دِرَاسَات فِى الْمَاسُونِيَّةِ وَطَوَائِفِ الْحِرَف

الشيخ عبد الواحد يحيى



تنْوِيه

تعمل ترجمات 'تراث واحد *One Tradition*' على نقل آداب الحضارات العريقة فى الشرق والغرب إلى اللسان العربى، للذين تسمح ذائقتهم بالاستمتاع بأعمال الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى، وغيرهما من حكماء العالم العربى والإسلامى، ويجدون سعادتهم فى قراءتها، وقد حضَّنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على طلب العلم والحكمة فقال: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"، وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم: "الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا".

وتعتبر هذه الأعمال التى نقدمها مفتاحًا لفهم الحضارات الهندوسية والطاوية والبوذية واليونانية القديمة، من حيث جوهرها الذى تجلى به الله تعالى عليها جميعًا.

ولعل ما يُضفى هذه الأهمية الكبيرة على كتب هذه المدرسة أنها تتناول بشكل أساسى موضوعات خمسة، هى علم الحقيقة أو ما وراء الطبيعة، والعقل المُلهَم، والتصوف المعرفى، والأديان مِن حولنا، ومشكلات العالم الحديث.

وهذه الأفكار والموضوعات بمركزيتها تستحق أن تخرج إلى اللسان العربى فى ترجمات شتى، لما قد يحمله ذلك من إيضاح وتفسير لها، وعونًا للقارئ على فَهم ما صَعُبَ منها.

ونأمل بترجمتنا تلك أن نكون قد نقلناها إلى مهدها القديم، وحاضنتها الأولى وهى اللغة العربية التى ألهمت أجيالًا من الأولياء والعارفين على مدار قرون عدة.

أخيرًا، ورغم ما بذلناه من جهد وعناية فى مراجعة نصوص هذه الكتب، إلا أننا نلتمس مقدَّمًا من القارئ الكريم العذرَ فى النزر مِن الخطإ الذى قد يكون تفلَّت منَّا سهوًا، فصادفه هنا أو هناك بين صفحاتها.

المحتويات

الباب الأول

1 الأفكار العلمية والمثل الماسونية

تنص المادة الأولى لدستور مِحفَلُ المشرق الأعظم على أن،

... الماسونية تعتبر الأفكار الميتافيزيقية أمرا يخص الأحكام الفردية لأعضائها وترفض فرض أية توكيدات عقائدية.

ولا نشك فى أن هذا التصريح له نتائج عملية فائقة، ولكننا نعتقد من منظور أقل عَرَضية أن من الأفضل تجنب تعبير 'الأفكار الميتافيزيقية' واستبداله بالأفكار الدينية أو الفلسفية أو حتى العلمية أو الاجتماعية، وسوف يكون ذلك تطبيقا صارما لمبادئ 'التسامح المتبادل' و'حرية الضمير' التى أقرها الماسونيون الأحرار من عدم التمييز بين آراء أعضائها بناءًا على دستور مِحفَلُ المشرق الأعظم فى فرنسا.

ولو كانت الماسونية أمينة لمبادئها فلا مناص لها من احترام كل معتقدات الأديان والفلسفات وكل الآراء العلمية أو الاجتماعية أيا كانت شرط أن تنبع من الإخلاص، وليست العقائدية الدينية ولا العقائدية العلمية أفضل من أحدهما الآخر، كما أن من المؤكد أن الروح الماسونية تستبعد كل العقائديات بالضرورة حتى لو كانت 'عقلانية' بموجب الطبيعة الخاصة لتعاليم التعميد الرمزى[1]، لكن ما دخل الميتافيزيقا بالتوكيدات العقائدية من أى نوع كان؟ ولا نرى علاقة بينهما، ولذا نرغب فى الحديث بعض الشىء عن هذه النقطة.

والحق إن العقائدية بالمعنى العام ليست إلا انفعالا عاطفيا وميلا إنسانيا لطرح الفكر الفردى سواءً أكان صادرا عن فرد أم جماعة بكل ما فيه من نسبية وعناصر غير مؤكدة كما لو

---

[1] راجع باب *2* 'مهندس الكون الأعظم' وباب *6* 'الأرثوذكسية الماسونية'.

كانت حقائق لا تُدحَض، لكنها خطوة قصيرة لفرض ما يسمى 'حقائق' على الآخرين، ويبرهن التاريخ على اتخاذ هذه الخطوة مرَّات شتى، إلا أن هذه الأفكار أو 'العقائد' بطبيعتها النسبية افتراضية فحسب، وتصبح أوهاما إلى حد بعيد ولا غير.

ويتضح من ذلك أنه لو كان هناك يقين ينفى كل الفرضيات وأية اعتبارات عاطفية عادة ما تميل إلى الأسوأ كى تفرض نفسها على أرض الفكر، فلن تطرأ مسألة العقائدية على منوال اليقين الرياضى، والذى لا يترك مجالا 'لاعتقاد' ولا 'رأى'، ويستقل تماما عن الفردية والعَرَضية، ولا يحلم أحد بملاحاته ولا حتى الوضعيين، ولكن هل هناك إمكانية لتحقيق اليقين الرياضى فى أى مجال علمى سوى الرياضة؟ ونعتقد أن الجواب بالسلب، ولكن ذلك لا يعنى الكثير عندنا، فهناك ما يخرج عن نطاق العلم وهو الميتافيزيقا الحقة، والتى ليست إلا تركيبا كاملا لمعارف صمدية تتعالى عن كل ما هو عَرَضى وعن كل ما يتغير، وعليه فإننا نعتبر أن الحقائق الميتافيزيقية برهان على ذاتها ونظرية فى استنتاجاتها، ولذا كانت صارمة على منوال الحقائق الرياضية التى لا تعدو امتدادا لها بلا حدود، وليس فيها ما يزعج أحدا حتى الوضعيين، والذين لا يملكون إنكار أن هناك ما يذهب إلى ما وراء أفهامهم من حقائق لا تُدحَض لا شأن لها بالعقائدية، إذ إنها على طرف نقيض من العقائد التى لا تملك برهانا على ذاتها، فهى طريقتها فى الوجود خارج نطاق الجدل وما وراءه.

ولو كانت الميتافيزيقا كما نصِفُها حقا فإن علينا الاعتقاد بعبارة 'الأفكار الميتافيزيقية' فى النص المقتَبَس فى صدر الباب، وهو نصٌ قال عنه نواليس *F.A. Noailles* فى مقالة له *'La Morale lai' que et scientifique', published in L'Acacia (June-July 1911).* عن أخلاقيات العامة العلمية' كبرهان لا يُدحَض 'لوجود آراء علمية علمانية عن الأشياء'، وبالطبع لن نعارض الكاتب فى هذه النقطة طالما كان حريصا على تحديد معنى الرأى المطروح فى النطاق العلمى، لكن سيكون تمديده لهذا المنظور على ما وراء هذا النطاق خطئًا فاحشًا، ولو تمسكنا بالحاجة إلى تمييز عميق بين مختلف المجالات التى تُمارَس فيها الأعمال الإنسانية المختلفة على نحو مختلف فذلك بموجب أن هذه الفوارق غالبًا ما تُهمَل بما يتمخض عنه اضطرابات نابية فى نطاق الميتافيزيقا، ولابد من صرفها مع ما يرافقها من أحقاد، ولذا نعتقد أن الاعتبارات الراهنة ليست مناسبة تماما.

ولو كان تعبير 'الأفكار الميتافيزيقية' قد قيل عن أى شىء آخر غير الميتافيزيقا فإننا نواجه

خطئا ماديا يعتمد على معنى اللفظ تماما، ولا نرغب فى أن يكون هذا المقال غير ذلك الأمر، ويُفَسِّر هذا الخطأ بجهل الغرب الحديث التام بالميتافيزيقا، ولذا استحقت العذر فى هذه الأحوال التى جعلتها ممكنة، وهى أحوال تقدم تفسيرًا لكثير من الأخطاء المرتبطة بها، وهكذا سوف نترك هذه النقطة لنعود إلى التمايز الذى ورد سلفًا، وقد فسرنا موضوع المذاهب الدينية فى أعمال أخرى[2]، أما عن منظومة الفلسفة فنعتقد أننا قلنا صراحة ما نعتقد عنها[3]، ولن نزيد عن ذلك فى هذا السياق كى نحدد حديثنا فيما ينطبق على المفاهيم العلمية والاجتماعية، وقد ميَّز نواليس بين حقائق الدين التى تنتمى إلى العالم اللامعروف يستطيع المرء قبولها أو رفضها و بين الحقائق العلمية كمساهمات متتابعة قابلة للبرهنة للعقل الإنسانى الذى يختبرها ويعدلها ويجعلها ملكا له.

ولنتذكر أولا أن هناك أمور يجهلها الإنسان الراهن، ولا يصح افتراض أنها 'مستحيلة الفهم'[4] ولا تعدو الأمور التى تسمى 'حقائق الدين' عن مسائل إيمانية تعتمد على القبول أو الرفض، وهى بالتالى تفضيلات عاطفية، أما 'الحقائق العلمية' فنسبية تماما وعرضة للمراجعة فيما نتج عن تجربة وملاحظة، ومن نافلة القول أننا نستبعد منها الحقائق الميتافيزيقية التى ترجع إلى مصدر مختلف، ونعتقد أن نسبيتها ذاتها قابلة للتجريب بمقدار وليس على نحو مطلق صارم، كما أن العلم حين يدَّعى القيام على نطاق التجريب فهل المفاهيم المنظومية التى نشأت عليها خلو من العاطفية؟ ولا نعتقد ذلك[5]، كما لا نرى أن الإيمان بالفرضيات العلمية مشروعٌ بموجب الأحوال التى أنجبتها أكثر من الإيمان الدينى أو العقائد الفلسفية.

ذلك أن هناك على الحقيقة عقائد علمية لا تكاد تختلف عن غيرها سوى فى المسائل التى تتغياها، والميتافيزيقا كما نفهمها لا تعتمد على هذه ولا تلك، وفهمها على غير ذلك يعنى الجهل بها، ولو كنا نسعى إلى أمثلة من العقائدية العلمية فلا علينا إلا الرجوع إلى مقال كتبه نيرجال *F. Nergal* فى مجلة لاكاسيا *L'Acacia* بعنوان 'الآباء العارفين وماسونيتنا المثالية' *Les Abbes*

[2] . *See 'La Religion et les religions', La Gnose,September-October 1910, p219, mo. - See also Matgioi's articles on 'L'erreur metaphysique des religions a forme sentimentale', La Gnose,July-August 1910, p177, n9 and 1911, p77, n3.*

[3] راجع باب 2 'مهندس الكون الأعظم'.

[4] المرجع السابق.

[5] راجع الباب الثانى مرة أخرى.

ويشكو الكاتب بالاحترام الواجب من تدخل الكنيسة ‘*Savants et Notre Ideal Masonnique*’ الكاثوليكية أو بعض ممثليها فى مجال ما يسمى ’العلوم الوضعية *positive sciences*‘، ثم يعرض للنتائج المحتملة لهذا التدخل، لكن ذلك لا يهمنا، وما نرغب فى ملاحظته هو طريقته فى الدفع بفرضيات كحقائق كلية لا تُدحض، رغم أنها صحيحة بمعنى ضيق[6] فإن مجرد احتمالها يستعصى على البرهان، كما أنها لا تربو عن تناظرات شاحبة الاحتمال، ولا يقتصر هذا الوهم فى مفاهيم بعينها على نيرجال الذى لن تُلاحى معارفه بل إن غالب الدارسين المعاصرين يشاركونه الوهم ذاته.

إلا أن هناك نقطة واحدة نتفق عندها مع نيرجال، فهو يدفع بأن ’العلم ليس دينا ولا هو مناهض للدين‘، ومن الواضح أنه لا يمكن أن يكون غير ذلك حيث إن العلم والدين لا ينطبقا على المجال ذاته، ولو كان الأمر كذلك فإن على المرء أن يترك قضية التصالح بين العلم والدين التى لا يقربها إلا لاهوتى فاسد[7] أو طالب علم ضيق الأفق، ولابد للمرء من الزهد فى التعارض بينهما بحيث لا يجد تناقضا وعدم تقابس بين الاثنين حال عدم وجودهما، حيث إن المنظورين لا علاقة بينهما تسمح بالمقارنة، ويصدق الأمر ذاته على ’علوم الدين‘ لو وُجِد شىء من هذا القبيل، والتى تلتزم بالأرض العلمية ولا تصبح ذريعة لتفاسير بروتستانية ولا حداثية، وهو ما لا يربو عن الشىء ذاته، وسوف نسمح لأنفسنا بالشك فى قيمة نتائجها ما لم يظهر برهان على العكس[8].

وهناك نقطة أخرى خُدِع فيها نيرجال تتعلق بالنتائج الممكنة لبحث ’ قرابة الكائنات ‘، وحتى لو ثبت فى يوم ما أن أحد تلك الفرضيات المطروحة قد ثبت على نحو لا يُلاحى فإننا لا نرى فى ذلك حرجا لأى دين ما لم يكن ممثلوه يندفعون إلى طرح حلٍ لمسألةٍ لم يطلبها منهم أحد عن مسألةٍ علميةٍ تخرج عن نطاق كفائتهم[9]، وحتى لو كانت هذه هى الحال فسوف يبقى

---

[6] المرجع السابق.

[7] وقد كان ذلك السبب الرئيسى لمحاولة جاليليو.

[8] *See 'La Religion et les religions', La Gnose,September-October 1910, p219, nt. 10 the other hand, we do not believe that Loisy can still be considered Catholic anymore. - Finally, we must ask ourselves what 'the mother of Braliama' [sic] might be; we have never found anything of the sort in the Hindu Theogony.*

[9] أم يُقَل فى إنجيل فولجيت "إن الرب قد ترك العالم لخلافات الناس"؟

’المؤمنون‘ دائما دون أن يكفوا عن إيمانهم، ولن يلتفتوا إلى آرائهم الشخصية فى هذا الصدد، ويعنى التصرف على هذا المنوال أن السلطات تجاوز حقوقها فيما تعلق بدينها[10]، أما الميتافيزيقا فلا يتعين عليها التعامل مع المسألة برمتها حيث إن الاهتمام بها يزول بفضل نظرية ’تعدد أحوال الوجود‘، والتى تسمح برؤية كل شيء من منظور المعيَّة والتتابع فى الآن ذاته، وتختزل أفكار ’التقدم‘ و’التطور‘ إلى قيمتها الحقيقية كنسبية وعَرَضية صرف، وعن موضوع ’سقوط الإنسان‘ فإننا نرى أن أهم ملحوظة هى أن الإنسان هو المبدأ الروحى للخليقة، فلابد أن يكون من ثمارها من الناحية المادية[11]، ’فالأدنى على شاكلة الأعلى على نحو مقلوب‘.

ولن نذهب إلى أبعد من هذا فيما تقدم ولكننا نضيف فحسب أن نيرجال يستنبط بمقولته ’إن العلم لا يحتكم إلا على هدفٍ واحد هو المعرفة التامة بالظواهر‘، ونقول ’إن المعرفة بالظواهر دونما تساؤل عما كان أكثر أو أقل كمالا‘، فالعلم النسبي بالضروة سوف يتمخض عن وقائع لا تقل عنه نسبية، أما المعرفة المتكاملة فحسب هى ’الحقيقة‘ كما أن ’المثال‘ "ليس أعظم كمال ممكن لجنس الإنسان فحسب"، ولكنه الكمال الذى يكمن فى التركيب الكلى *Universal Synthesis* لكافة الأجناس وكل الإنسانيات[12].

وبقى الآن علينا توضيح مسألة المفاهيم الاجتماعية، ونقول إننا لا نعنى بهذا التعبير الاعتراض السياسى الذى يخرج عن موضوعنا، ولم يكن تحريم الماسونية لأى جدل فيها أمرًا بلا غاية، والحق إنها ليست رجعية بحال، ولذا يمكن للمرء تفسير ’الجمهورية الديمقراطية‘ بأنها ليست مثالا لكل الماسونيين فى الكرة الأرضية، وينطوى فى هذا الصنف من المفاهيم الاجتماعية ما تعلق بالأخلاق، والتى يستحيل اعتبارها إلا ’فنا اجتماعيا‘ كما عبر عنها نواليس بمقدرة فى المقال الذى أسلفنا ذكره، ولكننا لن نذهب إلى ما ذهب إليه حتى "نترك الساحة لكل التكهنات الميتافيزيقية" فى حقبة لم يعد لها ارتباط بها، والحق إنه رغم ما قال الفلاسفة والأخلاقيون فيما تعلق بالعلاقات الاجتماعية التى لا تعدو اعتبارات مبنية على المصالح،

---

[10] ويتفق ذلك تماما تعريف العقيدة الكاثوليكية عن عصمة البابوية حتى لو فهمناها حرفيا.

[11] ولذلك تتفق الأديان فى اعتباره يتكون من تركيب كل العناصر وكل ممالك الطبيعة .

[12] ولا يُقر الدين بكثرة العالم المسكون فحسب بل كذلك بكثرة الإنسانيات التى تملأ العالم *see Simon and Theophane, Les Enseigements secrets dela Agnose, pp27-30);* وسوف نعود إلى هذه المسألة لاحقا.

والمصالح بدورها ليست إلا وسيلة مادية صرف أو هى تفضيل انفعالى أو كليهما فى معظم الأحوال، وهنا يتعلق كل شىء بتقدير الفرد، ويُختزَل الأمر فى الجماعات المقصودة إلى السعى إلى إيجاد أرض مشتركة يتصالح عليها تنوع هذه المشارب التى تناظر مصالح متباينة، ولو كان للمواضعات ضرورة لتهوين الحياة الاجتماعية أو حتى جعلها أمرا ممكنا فلابد من أن يعترف المرء صراحة إنها لا تعدو مواضعات لا مطلق فيها، ولابد لها من التغير مع أحوال الزمن والمكان التى يعتمد عليها كل شىء كان، وهذه الحدود هى التى تحد السمات النسبية والأخلاق قصرًا على "السعى إلى وضع قواعد للعمل شرط أن يعيش الناس فى مجتمعات"، وسوف يكون لها قيمة مستقرة ومنفعة لا تُنكَر، لكنها لا تملك ادعاء غير ذلك، كما أنه ليس من دين يستطيع ادعاء ما يربو عن الإيمان فحسب بالمعنى الغربى وإلا نكص عن أداء دوره كما يحدث غالبا، ونظرًا لطبيعته العاطفية فإن الأخلاقية مهما كانت 'علمانية' و'علمية' سوف تنطوى أبدًا على نصيب من الإيمان، حيث إن حال الفرد الراهن لا تملك تجاوزه باستثناءات نادرة.

ولكن هل تعيَّن على المثال الماسونى أن يقوم على منوال العوارض الحادثة؟ وهل لابد له من الاعتماد على ميول كل فرد وكل مجتمع إنسانى على حدة؟ ونحن لا نظن ذلك، بل نعتقد على العكس أن 'المثال' لابد أن يبقى خارج كل الأحزاب و الطوائف و الأنظمة و المدارس وكل الآراء والمعتقدات وما وراءها، فليس هناك من طريق "للميل نحو الكلية" إلا "بترك ما يفرِّق كى نحافظ على ما يوحِّد"، ولابد من مشاركة هذا الرأى بين الذين ينتوون العمل، وليس نحو بناء 'برج بابل' بل نحو حضارة فعالة للعمل الأعظم فى بناء معبد الكون الكلى.

2 مهندس الكون الأعظم

لقد نوهنا فى ختام مقالٍ أسبق[1] عن بعض المنجمين المعاصرين الذين يخرفون عن مجالهم ليخوضوا أحيانًا فى فلسفة عاطفية بوحى شاعريتها، ويناهز قول 'عاطفية' قول 'مركزية تشبيهية' على عدة أنواع، والنوع الذى نتناوله هنا يتجلى أساسًا كرد فعل نقيض لمركزية الأرض فى الأديان العقدية، وتنتهى إلى مفاهيم ضيقة للدارسين تحاول تحديد الكون الكلى بمقدار أفهامهم[2] من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى مفاهيم فردية لامعقولة عما يحاولون استبداله على أقل تقدير[3]، وسوف نعود لاحقًا إلى كلى النوعين من العقائد من منتجات العقلية ذاتها، ولكن من الأجدى ملاحظة أنهما قد يوجدا معًا، ولا يكاد يلزمنا على سبيل المثال المشهور ذكر 'الدين الوضعى' الذى أنشأه أوجست كومت نحو نهاية حياته، ولا يظنن أحدٌ أننا نحمل للوضعيين ضغينة بل على العكس حينما يكونون وضعيون حقًا[4] رغم واقع أن وضعيتهم

---

[1] راجع 'رمزية الصليب'، ترجمات تراث واحد، وهاهى الفقرة المقصودة، "ولو استحال علينا قبول المنظور الضيق لمركزية الأرض فإننا كذلك لا نستطيع قبول هذا النوع من 'الأناشيد العلمية *scientific lyricism*'، أو ما يمكن أن يسمى بذلك، وهى عزيزة على قلوب العرافين الذين لا يملون من الحديث عن 'الفضاء اللانهائى' و'الزمن الأبدى' التى لا تربو عن عبث فارغ، ولا نرى فى ذلك إلا جانبا آخر من الميل نحو التشبيه *anthropomorphism*".

[2] لقد قال فيلسوف يونانى "إن الإنسان معيار كل شىء"، لكن من الثابت أنه لا ينبغى اتخاذ هذا التعبير عن الإنسان العَرَضِىّ بل الإنسان الكامل.

[3] وحتى نتماشى مع الأفكار التى يتطارحها علم الفلك فلنقتبس مثلا من نظرية غريبة عن هجرة أشخاص إلى المنظومات الكوكبية، وهو خطأ يناهز القول ببعثهم، راجع أعمال فلا ماريون *Figuier's Le Lendemnin de la Mort au la Vie future selonla Science. Flammarion*

[4] ولو أردنا أن نلتزم المنطق فلن يمكن بالطبع أن نتبنى موقف الإنكار أيا كانت الصور التى اتختها، أى لن يمكن أن نكون 'منظوميين'، حيث إن الإنكار يعنى التحديد والعكس صحيح.

حبيسة النقص على الدوام، ويتمسكون بموقع يختلف تمامًا عن منظورنا على نحو أكثر من الحداثيين والفلاسفة المذهبيين الذين يدمغوا أنفسهم بالواحديين أو الثنويين أو الروحانيين أو الماديين.

ولنَعد إلى منجمونا وأشهرهم كاميل فلاماريون *Camille Flammarion* الذى نفضل الاقتباس عنه على الرجوع إلى المراتب العلمية العالية حتى فى أعماله التى تبدو فلكية صرف، والتى تتضمن عبارات مثل ما يلى،

> "لو كانت العوالم تموت إلى الأبد ولم تكن هناك شموس لو انطفئت مرة فلن تسطع مرة أخرى فمن المحتمل ألا تبقى فى السماء نجوم،

ولماذا؟

> ذلك أن الخلق قديم وأن ماضيه يعتبر أزلا[5]، ومنذ تكونت الشموس التى لا تحصى فى الفضاء توفر لها زمن لكى تنطفئ، لكنه نسبي قياسًا إلى الأزل الماضى، ولا تتوهج إلا الشموس الجديدة، أما الشموس الأولى فقد انطفأت، وهكذا انطبعت فكرة التتابع فى عقولنا[6].
>
> وأيًا كانت المعتقدات الخاصة فكل منا قد انطوى وعيه على الطبيعة والكون الكلى، ويستحيل التسليم بنظرية الخلق الأسبق الذى انبعث مِرة واحدة[7]، أليست فكرة الرب مرادفة لفكرة الخالق؟ فقد طفق الرب يخلق منذ وُجِد، ولو كان قد خلق مرة واحدة فحسب فلن تكون فى الكون الشاسع شموس ولا كواكب تدور حول نورها وحرارتها وكهربائها وحياتها[8]، ولذا كان الخلق بالضرورة أبديا[9]، وإن لم يوجد الرب فإن الأزل والأبد فى الكون سوف تتجلى فى بهاء أعظم[10].

---

[5] الفكرة القائلة بالخلود المؤقت *temporal eternity* تشتمل على تتابعات من الدوام، ويبدو أنها تنقسم إلى شطرين هما الماضى والمستقبل، لكن المسألة جوهريا هى دوام الدوام التى تناظر الخلود، وسوف نعالج لاحقا هذه الفكرة وأثرها على بعض الفلاسفة المحدثين.

[6] ومن نافلة القول لفت الانتباه إلى كثير من الفرضيات التى ازدحمت فى بضعة أسطر.

[7] وباسم أى مبدأ يمكن أن نسأل ما إذا كانت الاستحالة المذكورة فى سياق الإيمان أمر يتعلق بالضمير الشخصى فحسب؟

[8] ويتبع هذه العبارة أن الرب عند الكاتب له بداية وأنه خاضع للزمن والمكان.

[9] ولكنه أبدى بما يعنى الدوام اللانهائى، وهو ما لا يترادف مع الخلود والقِدم.

[10] *Astronomie populaire, pp380-381.*

ويقول الكاتب "إن وجود الرب مسألة فلسفية محض وليست علماً وضعياً"، ولا يمنعه ذلك من محاولة طرحها[11]، "وإن لم تكن علمية فهى على الأقل مطروحة بمقولات علمية، وتنطوى على ذات الوجود الربانى، أو لنقل ربٌ لا يمكن أن يوصف بالنورانية[12] حيث إنه لا يربو عن ديميورج"، ويؤكد الكاتب هذه الصورة عن الرب حين يقول "إن فكرة الرب مرادفة لفكرة الخالق"، وعندما يتكلم عن الخلق فعادة ما لا يخرج عن العالم الطبيعى ومحتوياته والفضاء الذى يسبره بمنظاره[13] التلسكوبى، وهناك متعلمين يعتقدون أنهم ملحدين لأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يستطيعون بها فهم الموجود الأسمى، كما أنهم يأنفون من مجافاتها للعقل الذى يحكم لصالحهم، لكن فلاماريون ليس منهم حيث إنه لا يترك فرصة للتعبير عن إيمانه بالرب، حتى إنه يستطرد بعد القطعة المقتبسة ليصوغ من استنباطه "إن الحياة كلية خالدة"[14]، وتكاد تكون من اعتبارات الفلسفة الذرية، ويدَّعى أنه توصل إلى ذلك من العلوم الوضعية فحسب، ومن الغريب أن هذا الاستنباط ذاته كان أحد العقائد التى دفعت بها الكاثوليكية باعتبار انتمائها قصراً على نطاق الإيمان[15]، ولو كان العلم والدين على اتفاق فهل كان هناك حاجة إلى لوم الدين بهذه المرارة لمجرد تعرض جاليليو لبعض المضايقات على يد ممثلى الدين لأنه قال بدوران الأرض حول الشمس؟ وهو رأى ينقض مركزية الأرض التى دفعت بها التفاسير البرانية الخاطئة للكتاب المقدس، لكن ربما لم يعد المنافحون عنها على قيد الحياة بين المؤمنين بالدين

---

[11] *Dieu dans la Nature, or 'Le Spiritualisme et le Materialisme devant la Science moderne'.*

[12] إننا نعلم أن كلمة الرب *Dieu* فى الفرنسية اشتقاق من ديفا *Deva* السنسكريتية التى تعنى ’المنير‘، وبالطبع فذلك نور روحى وليس نورا عضويا ليس إلا رمزٌ له.

[13] والواقع أن العلم الحديث يعترف من حيث الميدأ بأن مالا يمكن إدراكه بأحد الحواس الجسدانية الخمسة لا وجود له فى ذلك المنظور التخصصى الضيق، أما باقى الكون فلا وجود له.

[14] *Astronomie populaire, p387.*

[15] سوف نعود مرة أخرى إلى هذه المسألة فى سياق الحديث عن ’الحياة الأبدية‘، ونكتفى هنا بقول إن ما يسمى ’تخليد العارض‘ فإن الوجود الفردى ليس إلا حادثا فى الخلط بين الأبدية والخلود، كما أن هذا الخطأ يمكن انتحال عذر له عن الذى تحدث عنه الأرواحيين *spiritists* وغيرهم من علماء الطبيعة، والذين يعتقدون أن الخلود يمكن البرهنة عليه ’علمياً‘، أى تجريبياً رغم أن التجربة قد برهنت فقط على بقاء بعض العناصر الفردية بعد موت الجسد والعناصر العضوية، ولازال ذلك بعيدا عن ادعاء كثير من مدارس الأرواحيين الجدد.

الموحَى[16]، وحين نرى فلاماريون يقرن العاطفية بالعلم بموجب 'روحانيتها' على هذا المنوال فلا عجب فى أن يصل إلى 'أرواحية *Animism*' تضاهى مفهومها عند كروكس *Crookes* و لومبروزو *Lombroso* و ريتشيه *Richet*، وتختلف عن الروحانية المعتادة *spiritism* شكلياً حتى تنقذ المظاهر 'العلمية' فحسب، ولكن ما يدهش أكثر من ذلك أنه لو كان المرء لم يؤمن بفكرة الرب 'الشخصى' التى تُرضِى كل العقليات أو حتى كل العاطفيات هى أن تجد 'فلسفة العلم' التى أنشأها فلاماريون فى روحانيته الجديدة بمصطلح يشاكل ما لدى الدارسين الأخر رغم أنها تبرر المفهوم المادى للكون الكلى، ولا نملك بالطبع التسليم بأحدهما بأكثر من الآخر، فالأرواحية أو 'الإحيائية *vitalism*' أو 'الحيوية *animism*' كلها غريبة عن الميتافيزيقا الصرف شأنها شأن 'المادية' و' الآلية *mechanism*'، وكلا الطرفان يدفعان بمفاهيم الكون الكلى ذاتها على محدوديتها بطرق مختلفة[17]، فيأخذون المكانى والزمنى بمعنى اللانهائية *indefinitude* والأبدية، فيقول فلاماريون "إن الخلق يطَّرد فى اللانهائية والأبدية"، وهكذا نعلم محدودية المعنى الذى يضع فيه كلمة 'خلق'، ولكن لننتقل إلى ذكر الأحوال التى دعت إلى كتابة هذا المقال.

∴

حمل عدد مارس *1911* من مجلة لاكاسيا الدورية مقالا للسيد نيرجال *F.M.I. Nergal* عن 'مسألة مهندس الكون الأعظم *La question du Grand Architecte de l'Univers*'، وهى مسألة نشرتها الدورية ذاتها[18] فى مقالات ليموزين *Limousin* و ويرث *F. Oswald Wirth* كما كتبنا عنها بضعة كلمات منذ عام مضى[19].

---

[16] وننوه إلى أن هناك جماعات من الغيبيين ليس لديهم نظريات جدية حتى تستحق الذكر، وهذه الإشارة البسيطة تكفى للحذر من ترّهاتهم.

[17] ويمكن أن نعلق على محددات الكون الكلى كما يفهمها الدارسون والفلاسفة المحدثون، وهى مسألة ربما نعود إليها.

[18] عام *1908*.

[19] راجع باب *7*. 'الأرثوذكسية الماسونية'.

ولو اتخذنا فلاماريون كمثل لميول الروحانيين الجدد فإن نيرجال مثل لميول الماديين الأخر، والواقع أنه أكد بنفسه على هذه المسألة، وأنكر كل المقولات التى قد تؤدى إلى التباس فيها، ونعلم أن الماديين الحقيقيين قلائلا ومن الصعب عليهم الالتزام بالمنطق، ففى حين يعتقدون أن عقولهم علمية منضبطة فإن مفاهيمهم عن الكون الكلى ليست إلا آراء فلسفية فحسب شأنهم شأن غيرهم، ويدخل فى تركيبها عدة عناصر عاطفية، فيذهب البعض إلى التسليم بأسبقية العاطفة على الفكر، والتى نجد منها حالات فى الأسرارية المادية الحقة، أليس مفهوم الأخلاقية المطلقة فكرة دينية حينما تسيطر بهذه القوة على عقلية المادى بحيث تدفعه دفعاً إلى التسليم بأنه سيبقى كلا واحداً بموجب أنه 'أنبل منهم' و'يعمل الخير' دون انتظار لجزاء؟ ولا شك أن هذا سبب من 'الأسباب' التى لا يعرفها العقل، لكننا نعتقد أن نيرجال يعلق أهمية كبرى على اعتبارات الأخلاق حتى إنه ينكر قيمة هذه الموضوعة[20].

وليكن ما يكون، فقد عرَّف نيرجال الكون الكلى بأنه "مجمل العوالم التى تدور حول اللانهائيات *infinites*".. كذا، ألا يجعلنا ذلك نعتقد أننا نسمع صوت فلاماريون؟ فقد كانت مثل تلك التوكيدات سبباً عندنا لطرحه جانباً، ولو ذكرنا ذلك فلكى نبرهن على التشابه بين أفكار بعينها عند رجال مختلفين فى ميولهم الفردية إلا أنهم يعتمدون مفاهيم فلسفية متناقضة مع ذاتها.

وتبدو لنا مسألة مهندس الكون الأعظم موصولة بالاعتبارات السابقة وتستحق الذكر بين آن وآخر، وحيث إن نيرجال يرغب فى الاستجابة إلى مقاله فسوف نقدم له بعض الخواطر التى أثارتها لدينا، وليس هذا بالطبع من موقع الادعاء العقدى بل لأن ذلك سيكون غريباً على الرمزية الماسونية[21]، وقد ذكرنا سلفاً أن 'مهندس الكون الأعظم' رمز تعميدى فحسب، ولا مناص من استخدامه مع غيره من الرموز، فقبل كل شيء لا بد من تكوين فكرة معقولة عنه[22]، وهى أن هذا المفهوم لن يكون له علاقة برب الأديان العقدية التشبيهية، والتى لن تكون

---

[20] *In the same article in question here, F. Nergal speaks of' the ideal of beauty and of sentiment, which have in view the sincerity of strong and profound convictions founded upon the methods and disciplines of science; a sincerity he opposes to that of 'the spiritualism of F.G ... , the natural fruit of his literary education.'*

[21] *See chap. 6, 'Masonic Orthodoxy)" (quotation from the Rituel interpretatif pour le Grade d'Apprenti).*

[22] *Ibid.*

الفكرة فيها معقولة بل لا مقبولة[23]، ورغم أننا نعتقد "أن كل امرئٍ يضفى على الرمز معنى من مفهومه الفلسفى أو الميتافيزيقى" فإننا لن نذهب إلى مقارنته بأمر غامض مثل 'مالا يُدرك *Unknowable*' عند هربرت سبنسر، أو بتعبير آخر "ما لا يدركه العلم"، ومن المؤكد أن نيرجال يقول مصيبًا "رغم أن أحدًا لن يلاحى وجود ما لا يُدرك[24] فما من شيء يبرر ادعاء أنه يمثل العقل والإرادة"، ولا شك "أن ما لا يُدرك يمكن أن يتقهقر إلى ما لا نهاية"، وهو إذن محدود، وهو ما يربو إلى قول إنه يشكل شظية من الكلية، ولا يتفق هذا المفهوم مع 'مهندس الكون الأعظم'، وحتى يكون الأمر كليًا على الحقيقة لابد أن يتسق فى توحد الكائن الكلى[25].

وقد كان نيرجال مصيبًا مرة أخرى فى قول إن تعبير ' مهندس الكون الأعظم' يناظر الفراغ المطلق حتى للذين اتبعوه، ومن غير المحتمل أن تكون تلك هى الحالة عند الذين صاغوها، فلابد أنهم أرادوا نقشها على هيكل التعميد بدلًا عن تعبير فارغ من المعنى، ولكى نعيد اكتشاف تيار تفكيرهم فيكفى التساؤل عما يعنى التعبير بذاته، ونجد من هذا المنظور أنه أكثر توافقًا مع الطريقة التى استُخدم بها حيث إنه نظير للرمزية الماسونية فى مجملها، كما أنه يلقى الضوء على المفهوم 'المثالى' الذى يرأس بنية معبد الكون الكلى.

وليس المهندس الأعظم ديميورج ولكنه أعظم وأبعد شأوا، حتى ليمكن القول إنه يمثل مفهومًا أوسع، فهو الذى يضع المخطط المثالى[26] الذى يتحقق بالعمل، أى يتجلى بما لا يحصى من التطورات فى كائنات فردية كإمكانات محتملة فى الكائن الكلى، وتشكل جماعة هؤلاء الأفراد

---

[23] وينطبق ما نقوله هنا عن التشبيه على العاطفية عموما والأسرارية بكل صورها.

[24] ويتعلق ذلك بالطبع بالعلاقة بين الفرديات الإنسانية فى حالها الراهن، ولكن 'مالا يُعرف' لا يعنى بالضرورة استحالة معرفته، وليس هناك ما يستعصى على المعرفة من منظور الكلية *Universality*.

[25] ولا ينبغى نسيان أن الإمكانية المادية ليست إلا عنصر واحد من الإمكانيات، وأن هناك أعداد لا تحصى من الإمكانات، وكل منها عُرْضة للنمو والتغير فى تجلياتها، أى الانتقال من القدرة إلى الإمكانية. راجع *'La Symbolisme de la Croix', 2nd year, nos. 2-6*.

[26] والمهندس المعمارى هو الذى يستوعب المبنى ويدير بناؤه كما يقول نيرجال، ونتفق معه تماما فى هذه النقطة، ولكن لو قيل بهذا المعنى أنه 'مؤلف هذا العمل' فسيعنى أنه ليس 'خالقه' ماديا حيث إن المعمارى هو الذى يصمم رسم الموقع، ولا يجوز الخلط بينه وبين الصانع الذى يبنيه، ومن منظور آخر فإن ذلك يناظر الماسونية التأملية والماسونية العاملة.

الديميورج أو الحِرَفى الصانع للكون الكلى[27]، وهذا المفهوم للديميورج الذى طرحناه فى دراسة أسبق يناظر فى القبالة آدم الأول *Adam Protoplastes* [28]، فى حين يتماهى المهندس الأعظم مع الإنسان الكامل *Adam Qadmon* [29].

وسيكفى ذلك لبيان التمايز العميق بين ’مهندس الكون الأعظم‘ فى الماسونية وبين ’الرب‘ فى الأديان المتنوعة الذى كان على جوانب عدة من الديميورج، ثم إن من الخطأ مماهاة رب البرانية التشبيهى المسيحى مع يهوى أو الله، ثم إن هناك التركيب الثلاثى المقدس الذى يبين مبدأ البنية الكلية[30] بوضوح، وهذه الرموز ليست تشخصات من أية جهة حتى حُرِّم تمثيلها بأية صورة كانت.

و من ناحية أ خرى ينبنى على ما تقدم أن ا ستبدال الصيغ المختلفة للتعبير السابق على منوال "لمجد ا لرب مهندس ا لكون ا لأعظم" أو "لمجد مهندس العوالم الأ سمى" بحسب الشعائر المصرية ليست على الحقيقة إلا ا ستبدالًا بما يساويها مثل "لمجد الإنسانية" بمعناها الشامل فى ’الإنسان الكامل‘[31]، أو "لمجد الماسونية الكلية الحرة" بموجب ان الماسونية بالمعنى الكلى تماهى مع "الإنسانية الكاملة" فى ضوء الإنجاز ’المثالى‘ لبناء معبد الكون الأعظم[32].

---

[27] *See 'Le Demiurge; La Gnose,1st year, nos. 1-4, Miscellanea, pt.I, chap.1.*

[28] وليس ’المصنوع الأول‘ كما يُعرِّفه الاصطلاح اليونانى الذى يترجمه البعض خطئا على عكس معناه.

[29]. *See 'Le Demiurge', La Gnose,1st year, no. 2, pp25-27, Miscellanea,pt.1, chap.1*

[30]. والواقع أن الاسم العربى الرباعى الحروف يشكل معظم الأسماء الحسنى، وهو الرمز الذى يعنى ’الحاكم‘ على الزاوية القائمة والدائرة التى ا ستبدلها الماسونيون بالمثلث، وهو ما يجعل منا رمزية رباعية قصرية.

[31] *31.* و من نافلة القول إن كل فرد يبنى واقعيا لنفسه فكرة محدودة عن الإنسانية المتكاملة بحسب اتساع قدرته الفكرية، ولكن من ناحيتنا لا بد أن نعتبر فى الصيغة بمعناها الكامل، ومنبتة عن كل العوارض التى قد تنتاب المفاهيم الفردية.

[32] *32.* لابد أن نراعى أن المفهوم الأول للتراتب فى القانون الماسونى على المنوال التالى، *'Honor the GA'. of the U' and do not 'Worship the GA'. of the U.* حتى نتجنب أقل خلط بالشرك، إلا أن ذلك سيتجلى فى الظاهر كما برهنت عليه الاعتبارات التى تناولناها، وستكفى الصيغة التى تعنى العبادة لتبرير مذهب ’الهوية الأسمى‘، والتى تبدو من هذا المنظور معادلة عددية يعرفها المسلمون والقباليون، ويقول القرآن الكريم وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ

ويمكننا الاستطراد طويلاً فى هذا الموضوع القابل بطبيعته لتطورات لانهائية، ولكن حتى نستنتج على نحو عملى فسوف نشير فحسب إلى أن الإلحاد فى الماسونية ليس إلا قناعًا، ولا شك أن البلاد اللاتينية وخصوصًا فرنسا قد استفادت منه، ويكاد المرء يقول إنها ضرورة من جرَّاء عدة أسباب لسنا بحاجة لبحثها هنا، لكنها اليوم قد بلغت حد الخطر والتآمر على سمعة المحفل ونفوذه، وليس القول إن على المرء أن يطالب بتقاليد 'الأتقياء' الذين سيطروا على الماسونية الأنجلوساكسونية بما يعنى الاعتقاد بربٍ شخصيٍ تشبيهيٍ، ونأمل أن تنتفى هذه الفكرة من عقولنا، زد على ذلك أن أية أخوَّة تعميدية تصدر بيانًا كهذا فسنكون أول من يرفض الانضمام إليها، فالصيغة الرمزية لا تحتوى على شيء من ذلك، ويكفى أن كل امرءٍ حر فى معتقداته الشخصية[33]، ولا يملك المرء من منظور الماسونية أن يسأل عن شيء أكثر من ذلك ولا غير ذلك سوى حقيقة الإنسان الكامل، والتى تتوج الرمزية الشعائرية على مذبح المحفل.

....

وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ البقرة *34*، وهناك سؤال آخر يتصل بالأول، وله أهمية فى الشعائر والمنظور التاريخى، وهو تحديد قيمة الرمز الأصلية لعبارة "*G.A. of the U.*" وبحث ما إذا كان يمكن قول "لمجد *G.A.* فى *U.*" باتباع الاستخدام المعتاد فى الماسونية الفرنسية.

[33] ولا ينبغى خلط 'التدين *Theism*' بمذهب 'وجود الرب العقلى *deism*'، فالكلمة اليونانية *0eoi* تحمل معان كونية أكثر من كلمة *God* فى المذاهب البرانية للأديان، وسوف نتناول هذا الموضوع لاحقا.

3 كلمات مفقودة وكلمات بديلة

نعلم أن كل الأديان تنوه عن شيء مفقود قد اختفى، وهو شيء ظل معناه الأصلى كما كان فى أول أمره أيًا كانت رمزيته، ونقول ’معناه الأصلى‘ بموجب أن كل الرمزيات لها عدة معانٍ إلا أنها تترابط بإحكام، وما يستحق التساؤل فى كل ذلك هو العتامة الروحية الناتجة عن قوانين الدورات فى سياق تاريخ الإنسان وافتقاد الحال الأولانى، وكذلك نتيجة مباشرة للدين الذى يناظرها، فهذا الدين فى الواقع معرفة جوهرية مقصودة لهذا الحال، وقد طرحنا ذلك مسبقًا فى أحد أعمالنا[1] حيث أشرنا إلى رمزية الكأس المقدس *Grail* التى عبَّرت عن كلى الجانبين المذكورين عن الحال الأولانى والدين الأولانى، ونضيف إليهما بعدًا ثالثًا يتعلق بالموئل الأولانى، لكن من نافلة القول أن الإقامة فى ’الفردوس الأرضى‘ أى ’مركز العالم‘ حرفيًا لا يختلف عن تحقيق الحال الأولانى ذاته فى أى مكان أو زمان.

ومن ناحية أخرى لابد من ملاحظة أن العتامة المقصودة لا تحدث فجأة لكل الناس، ولكنها تمر بمراحل متتابعة بعد فقدان الحال الأولانى، وتناظر مراحل الحقب فى دورة وجود الإنسان، ولم يُطرح ’الفقدان‘ الذى نتحدث عنه من قبل على نحو موضوعى، ويبدو أن البدائل قد فقدت مما أدى إلى استبدالها بدورها، ويتضح ذلك جليًا فى تكوين المراكز الثانوية بعد اختفاء المركز الأسمى عن أنظار الإنسانية بشكل عام على أقل تقدير بمدى اهتمام الإنسان ’العادى‘، كما أن هناك استثناءات حتمية لا تقوم بدونها روحانية بكل مراتبها ومقاماتها، وينقطع كل تواصل مع هذه المراكز الثانوية، كما يمكن قول إن هناك أديان بعينها تناظر المراكز الثانوية المذكورة كبدائل للتراث الأولانى، وقد احتجبت أو تخفَّت لكى تتلاءم مع أحوال الزمان، وسواء أكان ذلك يتعلق بالمراكز الثانوية أم بالدين فإن البديل انعكاس للمركز المفقود

---

[1] راجع ’ملك العالم‘ باب 5، ترجمات تراث واحد، قيد الطبع.

على نحو مباشر أو غير مباشر وبعيد أو قريب بحسب الحال، ونظراً لاستمرار القرابة التى ترتبط بها بالتراث الأولانى يجوز القول إن الأديان كما لو كانت براعم شتى تنمو من جذر واحد للشجرة التى ترمز إلى 'محور العالم'، وتنمو فى مركز الفردوس الأرضى الذى تحدثنا عنه[2].

ونجد فى التراث المزدكى مثلاً على استبدال ما فُقِد، كما نضيف أن ما فُقِد لم يكن الكأس المقدس فحسب بل كذلك فيما يكافئه وما يحتويه فى أديان أخرى، وهو أمر مفهوم حيث إن المحتوى ليس إلا 'رحيق الخلود' فى كل الأحوال، ويشكل الحصول عليه أحد مميزات الحال الأولانى، ولذا قيل إن سوما الفيدية لم تعد مفهومة فى حقبة مجهولة ولزم التعبير عنها برحيق آخر يشاكلها، ورغم أن ذلك لم يُطرح من قبل فإن الرحيق البديل قد نُسِىَ بدوره[3]، فنجد عند الفرس رحيق هاوما الذى يطابق سوما الهندوسية، إلا أن هذا الفقدان الثانى قد ذُكِر فى سياق أن الهاوما البيضاء لا وجود لها إلا فى آلبورج، وهو جبل قطبى يمثل الموئل الأولانى، ومن ثم استُبدلت بهاوما الصفراء التى فُقدت هى الأخرى ولم يبق منها إلا ذكرى، ويحسن بنا فى سياق هذا الموضوع ذكر أن الخمر فى أديان أخرى بديل لرحيق الخلود، ولذا اتُّخِذت رمزًا لمذهب المعرفة الخفية المحفوظة فى الجوانية التعميدية كما نوهنا سلفًا[4].

ونأتى الآن إلى صورة أخرى من الرمزية ذاتها قد تناظر الأحداث التاريخية، ولكن لابد من توضيح أن اهتمامنا ينصب فحسب على القيمة الرمزية لتلك الأحداث، فكل دين على وجه العموم له أسلوب فى التعبير بلغته، والتى يتخذها لغة مقدسة، ولو حدث أن اختفى ذلك التراث فمن الطبيعى أن تختفى معه اللغة المقدسة فى الزمن ذاته حتى لو عاش ظاهريًا، ولكنها لا تعدو 'جثمانا' من نوع ما بعد أن فقدت اللغة الأولانية التى عبر بها التراث الأولانى، وذلك هو السبب فى أن القصص التراثية تنطوى على تنويهات عن افتقاد اللغة الأولانية، ولنضف إلى ذلك أنه حينما يأتى اليوم ذكر لغة مقدسة معروفة فإنها تماهى مع اللغة الأولانية ذاتها، ولابد من فهم أنها بديل حقا، وتحتل بالتالى موقعها عند المؤمنين بها، ومن واقع مراجع بعينها

---

[2] ومما له مغزى فى هذا الصدد أن بعض الأساطير تقول إن خشب الصليب قد جاء من سلالة هذه الشجرة.

[3] ويصبح البحث عن النبات الذى ينتج منه رحيق 'سوما' من قبيل العبث بغض النظر عن أى اعتبار، وندين لمستشرق تحدث عن سوما ليكفينا عن استخدام كليشيه عرَضى.

[4] راجع 'ملك العالم'، ترجمات تراث واحد، تحت الطبع.

عن هذا الأمر يبدو أن اللغة الأولانية قد عاشت حتى حقبة سحيقة القِدَم قد تبدو لنا أبعد من الزمن الأولانى، وهذه هى حال القصة التوراتية عن "بلبلة الألسنة"، ورغم إمكان ربطها بزمن تاريخى بعينه لا تناظر أمرًا سوى بدايات 'العصر الأسود كالى يوجا'، ومن المؤكد أن أديانًا تراثية بعينها كانت أقدم من ذلك كثيرا، وكان لكل منها لغة مقدسة، ولا ينبغى فهم أن استمرار وجود اللغة الأولانية الفريدة حرفيا، بل بمعنى أن الوعى الجوهرى لوحدة كافة الأديان لم يختف بعد[5].

ويحدث فى حالات معينة من فقدان اللغة أن يُطرح افتقاد كلمة فحسب لو كانت على سبيل المثال اسمًا ربانيًا يتميز به تراث بعينه ليمثله على نحو تركيبى، ويضع اسمًا جديدًا للاسم القديم مما ينبى عن تحول الدين إلى دين آخر، كما ورد كذلك حديث عن 'فقدان' جزئى فى أزمنة حرجة فى سياق وجود صورة تراثية بعينها، وحينما يُستعاد معناها بالاستبدال بما يكافؤها فإن ذلك يعنى تطويع التراث بحسب ضرورات الأحوال، أما فى الحال العكسى فإنه يعنى ضمورًا لا يمكن علاجه فى ذلك التراث، ونقتصر على ذكر مثل واحد معروف فى التراث العبرانى حيث نجد كلتا الحالتين فى الأسر البابلى حينما لزم ابتكار كتابة جديدة تحل محل الكتابة القديمة المفقودة[6]، واعتمادًا على قيم الحروف العددية للغة المقدسة فإن هذا التغير لا بد أن يكون تطويعًا للتراث[7]، زد على ذلك أن تدمير معبد أورشليم وتشتيت الشعب اليهودى وضياع الاسم الرباعى الأحرف *tetragrammatic Name* وحلول اسم أدُناى *Adonai* محله، ولكن من المسلم به أنه لا يساوى الاسم الأولانى الذى لم يعد منطوقا، والواقع أن تداول الاسم الربانى بمنطوقه الأصلى[8] قد استحال بموجب انقطاع الكهانة التى لا تُمارس إلا فى معبد أورشليم، واستبدل باسم 'ها شيم' بمعنى "الاسم مطلقا"، ومنذ ذلك الحين أصبحت اللغة العبرية ناقصة بلا

---

[5] *We could note in this connection that what is designated as the 'gift of tongues' (see Perspectives on Initiation, chap. 37) is related to knowledge of the primeval language understood symbolically.*

[6] ولا نكاد نحتاج إلى الإشارة إلى استحالة ذلك لو أخذناه حرفيًا، فتكفى 70 عاما لتبرير فقدان الذاكرة عند المسنين، ولكن ليس من غير المعقول أن ذلك لم يكن يحدث فى فترة التلاؤم فى القرن السادس قبل الميلاد.

[7] ومن المحتمل أن التغيرات المتواترة التى حدثت فى رسم الحروف الصينية يمكن تفسيرها على المنوال ذاته..

[8] ويضاهى ذلك التداول تماما 'مانترا' فى التراث الهندوسى.

أمل فى كمالها كما يبرهن على ذلك توقف شعيرة التضحية التى تشكل ’مركز‘ العبادة فى هذا الدين، وهكذا كان الاسم الرباعى يحتل ’المركز‘ بين الأسماء الربانية الأخرى، كما كان المركز الروحى للتراث المفقود[9]، ومن الواضح أن الحقيقة التاريخية لهذا المثل ليست موضع شك بأى طريق كان، ولا يمكن أن تنفصل عن المعنى الرمزى الذى أصبح مبررًا لوجودها دون أن يكتمل فهمه تمامًا.

وقد كانت فكرة الأمر المفقود رمزًا بصور متنوعة فى البرانية، ويجوز قول إنه كان يعنى هذا الجانب البرانى، فمن الثابت أن حدوث ذلك الضياع كان له أثر فعال، كما أنه عُدَّ فقهيًا ولا علاج له حيث إن أثره على الإنسانية الأرضية سيبقى طوال هذه الدورة الزمنية، وهناك أمر ينتمى إلى الأخوة الجوانية التعميدية فى القرون الوسطى وهو ’السعى‘ إلى اكتشاف ذلك الاسم المفقود، ويسهل فهم ذلك بموجب أن أول أمر فى التعميد يناظر ’الأسرار الصغرى‘، ويتغيا جوهريًا استعادة الحال الأولانى، ونلاحظ أن الضياع قد حدث تدريجيًا على مراحل قبل أن يصل إلى الحال الراهن، ولذا لزم أن يستمر هذا ’المسعى‘ بالرجوع بترتيب تنازلى لهذه المراحل، أى بالتسامى على الدورة التاريخية للإنسانية من حالٍ إلى ما سبقه من أحوال حتى الحال الأولانى فى ’الأسرار الصغرى‘[10] الذى يناظر تلك المراحل، ولابد لنا من إضافة أنه يمكن أن نأخذ الاستبدال المتتابع بترتيب معكوس حتى يفسر السبب الذى جعل ’الكلمة المُكتشفة‘ فى حالات بعينها لا يعدو ’استبدالا‘ يمثل أحد المراحل البينية فحسب، ومن المعلوم أن أى أمر يمكن استخدامه فى التواصل البرانى لن يمكن أن يكون ’الكلمة المفقودة‘، أى إنه لن يعدو رمزًا ناقصًا على منوال كل التعابير عن الحقائق المتعالية، وهذه الرمزية بالضرورة شديدة التعقيد نظرًا لتعدد المعانى التى ترتبط بها والمراتب التى تتناول تطبيقها.

وينطوى التعميد الغربى على مَثَلَين معروفين للبحث فى هذه المسألة، ويمكن اعتبارهما من الصور المبدئية للرمزية التى أشرنا إليها فى "السعى إلى الكأس المقدس *Grail*" فى تعميد الفروسية فى القرون الوسطى، و’السعى إلى الكلمة المفقودة‘ فى التعميد الماسونى، وقد أصاب ويت *A. E. Waite* فى الإشارة إلى أنها تنطوى على تنويه صريح بالصيغ والأشياء البديلة، كما أن ’المائدة المستديرة‘ ذاتها ليست إلا ’بديلاً‘، ورغم أنه كان مقدَّرًا لها أن تجد الكأس فهل

---

[9] ويُعَرِّف اصطلاح ’الشتات *diaspora*‘ فى العبرية تماما حال الذين حُرِم تراثهم من مركزه الطبيعى..

[10] *On this point see Perspectives on Initiation, chap. 39.*

حدث ذلك الإيجاد على الحقيقة؟ ولا يعنى ذلك أن ’المسعى‘ لن يمكن إنجازه كما قد يتبادر إلى ذهن البعض، لكن حتى لو بدا الأمر كذلك لقلائل فلن يكون كذلك لجماعة بأسرها حتى لو كانت ذات صبغة تعميدية لا شك فيها كما نوهنا عنها فى عمل أسبق[11]، وقد كانت ’المائدة المستديرة‘ وفروسيتها تمثيلاً لكل خصائص المركز الروحى الأصيل، ولكن لنكرر أنها لا تعدو مركزًا روحيًا ثانويًا وانعكاسًا للمركز الأسمى، ولا تملك إلا القيام بدور ’البديل‘ له كما هو الحال فى كل الصور التراثية باعتبارها ’بدائل‘ لصورة التراث الأولانية.

ونتناول الآن ’الكلمة المفقودة‘ والمسعى الماسونى فى البحث عنها، ولا بد أولا فى الحال الراهن من مراعاة أن هذا الموضوع ملفوف بالغموض، ولا ندعى بأية حال أننا نكشفه تمامًا، ولكننا نطرح ملحوظات قليلة قد تعين على كشف ما يمكن أن يبدو تناقضًا من الوهلة الأولى، وأول أمر هو مرتبة ’الأستاذ‘ فى ماسونية طوائف الحِرَف، والتى تؤكد على ’ضياع الكلمة‘ الذى تمخض عن موت حيرام، ورغم عدم وجود تعبير صريح عن السعى إلى استعادتها فإن من الغريب أن الأستاذية التى تمثل أعلى المراتب الماسونية تناظر افتراضيًا كمال ’الأسرار الصغرى‘ التى لا مبرر بدونها للأستاذية، والواقع أن المرء يمكن أن يجيب على ذلك بأن التعميد للمرتبة المذكورة ليس إلا نقطة بداية، وهو أمر طبيعى، لكن سيكون من الضرورى أن يحتوى التعميد على أمر يسمح ’برئاسة‘ السعى فى واجب الوظيفة وتحقيق الأستاذية، ورغم المظاهر فإننا نعتقد أن هذه هى الحال، فإن ’الكلمة المقدسة‘ كلمة بديلة كما أنها أُسبِغَت بهذا المعنى، لكنها ’كلمة بديلة‘ من نوع مخصوص حتى إنها تحولت بطرق شتى لدرجة استحالة فهمها[12]، وقد جرى تفسيرها بعدة طرق تعبر عن معان إضافية مهمة بتنويهها عن عناصر رمزية فى مرتبة الأستاذية، لكن لا يمكن تبريرها بأى تأصيل لغوى فى اللغة العبرية، ولو أن الكلمة قد عادت إلى صورتها الصحيحة فسوف تبدو غريبة تمامًا عن كل ما عُزِى إليها، وليست هذه الكلمة إلا سؤالاً جوابه ’الكلمة المقدسة‘ أو ’الكلمة المفقودة‘ ذاتها، أى الاسم الحق لمهندس الكون

---

[11] ’ملك العالم‘ بابا 4 و 5، ترجمات تراث واحد، قيد الطبع.

[12] وقد طرحت هذه التشوهات ما ادعت أنه كلمتين، إحداهما ’مقدسة‘ والأخرى ’كلمة سر *password*‘، وتستخدما فى الشعائر حسب الحال، ولكنهما فى الأصل كلمة واحدة فحسب.

الأعظم[13]، وبمجرد السؤال فإن المسعى قد بلغ غايته وسوف يبقى على القادرين إجابة السؤال والوصول إلى الأستاذية الفعالة بالعمل الباطنى.

والنقطة الأخرى التى لا بد من اعتبارها هى الاتفاق مع الرمزية العبرية عن 'الكلمة المفقودة' التى عادة ما تتشابه مع الاسم الرباعى *tetragrammatic Name*، ولكن لو أُخِذت بمعناها الحرفى فلابد أن تكون تناقضًا ترسَّب على الزمن، فمن المعلوم أن الاسم لم يُفقَد فى زمن بناء معبد سليمان، إلا أن من الخطأ الاعتقاد بأن التناقض المذكور عقبة كؤودٍ على الحقيقة، ونحن هنا لا نهتم 'بتأريخية' الوقائع التى لا أهمية لها بما هى، فالاسم الرباعى مهم باعتبار القيمة التى يحملها فى التراث فحسب، فهو بدوره قد لا يعدو 'كلمة بديلة' حيث إنها تنتمى إلى الوحى الموسوى ولا تملك العودة إلى التراث الأولانى بأكثر مما يمكن أن تعود اللغة العبرية إلى اللغة الأولانية[14]، ولو استطردنا فى هذه النقطة فإن ذلك بغرض لفت الانتباه إلى حقيقة أهم، وهى أن البرانية اليهودية تعتبر الكلمة البديلة للكلمة الرباعية الحروف *Tetragrammaton* التى فقد نطقها كانت اسمًا ربانيًا آخر، فكلمة 'أدُناى' تتكون بدورها من أربعة حروف ولكنها أقل جوهرية من أصلها، والواقع أن هناك استكانة إلى حقيقة فقدانٍ لا علاج له إلا بمقدار ما يسمح به الحال الراهن، لكن 'الكلمة البديلة' فى الماسونية على العكس تتعلق بإمكان اكتشاف 'الكلمة المفقودة'، وبالتالى استرجاع حال ما قبل ضياعها، وهذا هو التمايز الأصولى بين الجوانية والبرانية من منظور التعميد على نحو رمزى باهر[15].

---

[13] ولا حاجة بنا للبحث فيما إذا كانت التشوهات الشتى للكلمة ذاتها قد أصابت المعنى بشكل مقصود، وهو بلا شك عمل عويص نظرا لنقص المعلومات الواضحة فى الأحوال التى أحاطت بها، لكن من المؤكد أنها تركت أثرا يخفى تماما ما كان جوهريا لمرتبة الأستاذ، فجعلوا منها لغزا لا حل له.

[14] عن 'الاسم الربانى الأول' فى تراث تعميدى بعينه، راجع 'الثلاثى الأعظم' باب *25*، ترجمات تراث واحد، قيد الطبع.

[15] ونشير بالمناسبة إلى أن مرتبة الأستاذ ليست 'كلمة بديلة' فحسب بل كذلك 'علامة بديلة'، ولو كانت 'الكلمة المفقودة' تتماهى رمزيا مع تيتراجراماتون *Tetragrammaton* فإن هناك إشارات على وجود ارتباط بالعلامة المفقودة التى كانت تستخدم فى تبريك الكهنة، وهنا يلزم رؤية ذلك كتعبير حرفى عن واقع تاريخى، والواقع أن هذه العلامة لم تُفقَد قط، ولكن يمكن التساؤل عما إذا كانت تتراجراماتون التى لم تعد تُنطَق لازالت تحمل فاعليتها الشعائرية.

وقبل أن نستطرد يلزم التنويه عن أمر يمكّننا من تفهم ما يلى بوضوح، وهو أن الماسونية التعميدية بالضرورة متعلقة بالأسرار الصغرى وكذلك كل طوائف الحِرَف، والتى تبلغ فى كمالها مرتبة الأستاذ فحسب، فإن التحقق الكامل لهذه المرتبة لا يتم إلا باستعادة الاسم المفقود واسترجاع الحال الأولانى، ولنا أن نعجب عما كان معنى الدور الذى تقوم به الدرجات العليا من الماسونية وقد أصرَّ بعضهم على عِقَمها وعدم فائدتها و'سطحيتها'، وهنا لابد من التفريق بين هذه المراتب[16]، والتى تتصل مباشرة بالماسونية من ناحية[17]، ومن الناحية الأخرى بالمراتب التى تُعدّ بقايا أو ذكريات[18] عن منظمات غربية تعميدية قديمة غُرِست فى الماسونية أو تبلورت فيما حولها، وبعد كل ما قيل فإن الغرض من هذه المراتب العالية هو حفظ ما يمكن حفظه من هذه التعميدات بالطريقة الوحيدة الممكنة بعد اختفائها كصور مستقلة، وسوف يكون هناك الكثير مما يمكن أن يُقال عن دور 'حفظ' الماسونية وإمكان تعويضها فى زمننا الراهن فى العالم الغربى بمدى بعينه لغياب التعميد فى منظمات سالفة أخرى، لكن كل هذا يخرج عن موضوعنا الحالى عن المراتب التى تتصل رمزيتها مباشرة بالماسونية.

ويمكن اعتبار هذه المراتب امتدادًا أو تطورًا لمرتبة الأستاذ رغم أنه من حيث المبدأ مكتفٍ بذاته، وواقع أن من الصعب انسحابه من مرتبته راجع إلى أن ما تمخض عنها مبررٌ ضمنى للتطورات التى جرت[19]، وهو إذن مسألة عون يُقدَّم للذين يرغبون فى تحقيق ما يحتكمون عليه افتراضيا، وهو نيّة أساسية لهذه المرتبة أيًا كانت التحفظات التى تحوطها من حيث أثرها العملى، ويمكن القول على الأقل إن معظم الحالات تضمُر لسوء الحظ جوانب متشظية تناظر

---

[16] ونترك هنا بالطبع كل ما تراكم من أسماء مراتب فى 'منظومات' بعينها لا تعنى غير المفهوم الفردى القصرى لمن ابتكرها.

[17] ولا نملك هنا القول إنها شطر متكامل من المراتب باستثناء فى محفل العقد الملكى *Royal Arch*.

[18] *18.* ونضيف إلى ذلك كلمة 'ذكريات' حتى نجتنب الجدل حول الانتماء المباشر لهذه المراتب، والتى ستبتعد بنا عن موضوعنا خاصة فى المنظمات التى تتبنى صورا مختلفة لتعميد الفرسان..

[19] ولابد من إضافة سبب جانبى يتعلق باختزال سبع مراتب من الماسونية العاملة القديمة إلى ثلاثة فحسب، وحيث إن هذه المراتب لم تكن معلومة لدى مؤسسى الماسونية التأملية فقد ظهرت فجوات فى 'التجديدات' التالية التى لم يمكن إنجازها فى الإطار الحديث لثلاثة مراتب فى المحافل الرمزية، فهناك مراتب تبدو كمحاولات لعلاج ذلك العجز، رغم أن المرء لا يملك القول بما إذا كانت قد نجحت فى ذلك نظرا لافتقادها التداول الصحيح فى الماسونية العاملة التى تستلزمها.

الشعائر، لكننا هنا بحاجة إلى الانشغال بالمبدأ الضمنى مستقلاً عن الاعتبارات العَرَضية، والحق إن مرتبة الأستاذ لو كانت أكثر صراحة ولو اعترف الجميع بأهليته الحقة فإن هذه التطورات ستجد موقعها فى إطارها، ولن يكون هناك حاجة إلى جعلها موضوعًا لدى المراتب الإسمية الأخرى[20].

والغاية التى قصدناها أن هناك عددًا من المراتب العليا يؤكد على ضرورة 'البحث عن الكلمة المفقودة' أى ما يشكل العمل الجوهرى للأستاذية، وتقدمت بعض المراتب 'بكلمات وجدت' بما يعنى اكتمال نجاح بحثهم، ولكنهم على الحقيقة لم يصلوا إلا إلى 'كلمات بديلة'، ومن السهل فهم ذلك بناءًا على ما تقدم من أن 'الكلمة' الحقة لا ينبغى استعمالها للتواصل، ويصدق ذلك على الأخص على مرتبة 'العقد الملكى' وهى المرتبة الوحيدة التى تُعَدُّ ماسونية بشكل صارم، ولا يشوب أصلها الإجرائى شكوك، وهى المكل الطبيعى لمرتبة الأستاذ بمنظور منفتح على 'الأسرار الكبرى'[21]، ففى هذه المرتبة تبدو 'الكلمة التى وجدت' مغايرة ككثير غيرها، وقد أدت إلى افتراض معانٍ لها، لكن معظم السلطات والمفسرين المعقولين يرون أنها كلمة مركبة من ثلاثة أسماء ربانية من أديان مختلفة، وهذا يثير الاهتمام بنقطتين من منظورين على الأقل، يتعلق أولهما بأن معنى 'الكلمة المفقودة' هو اسم ربانى، ثم إن ارتباط معانى الكلمات المتنوعة يمكن تفسيره كتوكيد صريح للوحدة الأولانية للأديان جميعا، لكن من نافلة القول أن خلط الأسماء المشتقة من عدة لغات مقدسة يبقى تجاورًا برانيًا بالكامل ولا يملك أن يرمز بكفاءة إلى استعادة التراث الأولانى، وليست بالتالى إلا 'كلمة بديلة'[22].

---

[20] وواقع أن الأستاذ يمتلك 'كافة الشعائر الماسونية' وفى متناوله كل المعارف التى تصل الصورة التعميدية التى ينتمى إليها، فذلك باهر الوضوح فى مرتبة 'أستاذ المراتب جميعا'، والذى صار قيد النسيان حاليا.

[21] *We refer the reader to what we have already said on this subject, especially in our study 'La pierre angulaire' (issues of April-May) [see 'The Cornerstone', Symbols of Sacred Science, chap. 45).*

[22] وينبغى فهم أن ما نقوله هنا يتعلق بمحفل 'العقد الملكى الانجليزى'، والتى ليس لها إلا علاقة واهية بالمرتبة التى تسمى 'عقد إخنوخ الملكى'، والذى صارت نسخة منه المرتبة الثالثة عشر فى المحفل الاسكتلندى المعدل المقبول، والتى وجدت فيه الكلمة فى تيتراجراماتون ذاته، وقد رسمت على لوح ذهبى فى القبو التاسع، زد على ذلك أن عزو هذا الراسب إلى إخنوخ يُشكل بقايا تخص تتراجراماتون العبرى، ولكن يمكن تفسيرها كنيِّة للرجوع إلى الأولانى.

وهناك مثل يختلف تمامًا فى الرتبة الاسكتلندية للصليب الوردى *Rosicrucian*، والتى طرحت كلمة جديدة رباعية الحروف *Tetragrammaton* بديلاً للكلمة القديمة المفقودة، وواقع أنها رباعية من الحروف الأولى لأرباب أديان أخرى لا يجعلها تشكل كلمة تعبر عن شىء سوى التراث المسيحى فى مواجهة الناموس العبرى، أو استبدال 'العهد القديم بالعهد الجديد'، وسيكون من الصعب القول إنها تمثل حالاً أقرب من الحال الأولانى ما لم يكن ذلك مقصودًا بالمعنى المسيحى على أنه "إعادة التكامل" التى تفتح إمكانات جديدة لاستعادة الحال الأولانى، وهو صحيح على نحو ما لكل دين تراثى قام فى زمن بعينه ليتسق مع أحوال ذلك الزمن، ويحسن إضافة أن هناك تفاسيرًا أخرى تنطبع على الأديان البرانية، وغالبًا ما تكون هذه الأديان هرمسية تستحق الاهتمام، لكنها ستخرج بنا عن سياق الأسماء الربانية التى تنطوى عليها 'الكلمة المفقودة'، وقد اشتُقَت من المسيحية الهرمسية لا من الماسونية، وأيًا كانت القرابة بين دين وآخر إلا أنها تُعَدُّ جميعًا متماهية، فلو كانت تستخدم الرموز ذاتها إلى حد ما إلا أنها تبدأ بدايات تعميدية تختلف كثيرًا من جوانب عدة، زد على ذلك أن 'الكلمة' فى محفل الصليب الوردى تشير إلى وجهة نظر بعينها لصورة تراثية نائية عن التراث الأولانى الذى يكمن فى كل الصور المخصوصة، أما محفل 'العقد الملكى' فقد كان له أسباب ليعلن عن أنه يفوق كل المعموديات الماسونية.

ونعتقد أننا قلنا ما يكفى عن 'البدائل' المتنوعة، وحتى نختم هذه الدراسة فسوف نعود الآن إلى رتبة الأستاذ حتى نبحث عن حل لغز آخر فى هذا الموضوع، فكيف يُعزى 'ضياع الكلمة' إلى موت حيرام فحسب فى حين تقول الأسطورة أن هناك غيره ممن عرفوها؟ والحق إن هذا اللغز كان محيرًا لكثير من الماسونيين الذين تفكروا فى هذه الرمزية حتى إن بعضهم ذهب إلى استحالة تصديقها على نحو مقبول، ولكنها كما سنرى أمر آخر تماما.

وقد كان السؤال الذى طرحناه فى نهاية الباب السابق من هذه الدراسة يستحق إعادة الصياغة كما يلى، "لقد كانت 'كلمة' الأساتذة فى زمن بناء المعبد فى حوزة ثلاثة بعد سليمان هم حيرام و ملك طيرة و حيرام آبى، ولو سلمنا بذلك فكيف تأتى لموت حيرام أن يكفى لضياع الكلمة؟"، والإجابة أنه حتى يتسنى تداول الكلمة بالتواتر فكان تعاون 'الأساتذة العظام الثلاثة' لازمًا حتى لو غاب أحدهم أو اختفى لبطُل التواصل، فثلاثتهم أضلاع فى مثلث واحد، ورغم ما قد يخطر للذين لم يتعودوا على التناظر الرمزى، فليس ذلك مجرد مقارنة ولا

وهم خيال ولا علاقة لا أساس لها، بل إن المحفل لا يمكن أن يتحقق إلا بتعاون ثلاثة أساتذة[23] لديهم عصى تتناسب فيما بينها بنسبة 3 إلى 4 إلى 5، وحينما تتصل العصيان ببعضها يتكون المثلث الفيثاغورى قائم الزاوية، وهنا يبدأ العمل، وحيث إن الأمر كذلك فسوف يسهل فهم أن الكلمة المقدسة قد تتكون من ثلاثة مقاطع[24] ينتقل كل منها مع أحد الأساتذة فقط، وهكذا تظل الكلمة والمثلث ناقصان فى غياب أحدهم، ولا يجوز أن يكتمل تأسيس المحفل، وسوف نعود إلى هذه المسألة فيما يلى.

ولنُشِر الآن إلى حالة أخرى فى رمزية مشاكلة فيما تعلق بموضوعنا الراهن على الأقل، ففى بعض الطوائف فى الشرق الأوسط يرمزون بصندوق يحتوى على الكلمة له ثلاثة مفاتيح، يؤتمن عليها ثلاثة حراس، ولذا تعين حضور الثلاثة حتى يُفتَح الصندوق، وبالطبع سيجد الذين يرون سطح الأشياء فى ذلك مجرد احتياط لاتقاء خيانة الأمانة، لكن هذا التفسير البرانى الدنيوى لا يكفى، ويقرون بأنها قد تكون مشروعة فى مستواها، وليس ذلك بمانع من أن الواقعة ذاتها يمكن أن تحمل رمزية عميقة وقيمة حقيقية، والظن بغير ذلك يربو إلى استغلاق فهم تام للمنظور التعميدى، كما أن المفتاح له رمزية مهمة تبرر ما طرحناه هنا[25].

ولنعد الآن إلى مسألة المثلث قائم الزاوية المذكورة عاليه، فيجوز القول إن موت أحد السدنة الثلاثة العظام يترك الكلمة مبتورة والمثلث ناقصا، وتعتبر مربعاً بمعنى ما فيما يناظر

---

23 والأساتذة هنا هم من فى المرتبة السابعة من الماسونية العاملة التى انتمت إليها أسطورة حيرام فى أول أمرها، كما أن ذلك سبب لعدم معرفته فى المحافل 'المقبولة'، والذين أسسوا بمبادرة منهم محفل العقد الملكى فى انجلترا عام 1717، كما أنهم بالطبع لم يستطيعوا تداول أى شيء أكثر مما تلقوه فى عمادهم.

24 والمقطع هو العنصر الذى لايمكن اختزاله فى اللفظ المنطوق، كما أنه يجدر ملاحظة أن 'الكلمة البديلة' فى صورها المتعددة تتكون دائما من ثلاثة مقاطع تُذكَر متفرقة فى الموعظة الشعائرية.

25 ولا نملك الإسهاب فى هذه النقطة عن رمزية المفتاح خاصة عن صبغة محورها الرأسى، لكن لابد من الإشارة إلى أن لغة الطقس الماسونى *catechisms* قد طرحت 'مفتاح القلب'، والصلة بين اللغة والقلب ترمز إلى 'الفكر' و'الكلمة'، أى من حيث المبدأ كما تنص المعانى القبالية فى كلى المعنيين الظاهر والباطن للكلمة، وقد نبع منه 'المفتاح الخشبى' المصرى القديم والحرف المقدس لشجرة برسيا *persea tree*، والتى تتخذ ثمارها صورة القلب، وتمثل أوراقها مفردات اللغة.

’الأستاذ الفاضل *The Venerable One*‘، وهو رباعى شبه منحرف، بحيث يشكل ضلعا الزاوية القائمة بنسبة *3* إلى *4*، ويغيب عنها الوتر[26]، ولابد من مراعاة أن إعادة بناء المثلث الكامل كما صورته علامات ’الأستاذ الماضى‘، أو على الأقل تعنى نظريًا أن ’الأستاذ‘ المذكور قد نجح فى اكتشاف ما فقد وإعادة بنائه[27].

أما الكلمة المقدسة التى لا يمكن تداولها إلا بتعاون ثلاثة أشخاص فما له مغزى أن هذا الإجراء قائم فى محفل ’العقد الملكى‘، ويعتبر تمثيلاً ’للكلمة التى وُجِدت‘، ويعتمد تداولها الفعال فحسب على هذا المنوال، فالأشخاص الثلاثة يكونون مثلثًا يرمز إلى الثلاثة مقاطع التى تناظر ثلاثة أسماء ربانية، وتتتابع حتى تصبح الكلمة ’صحيحة كاملة‘، ورغم أنها ’كلمة بديلة‘ على الحقيقة إلا أن محفل ’العقد الملكى‘ هو أكثر المحافل العليا ’أصالة‘ فيما تعلق بالأخوة الفعالة، كما تضفى أهمية مؤكدة على صيغة التواصل التى تبرهن على صحة تفسير ما كان غامضًا فى مرتبة الأستاذ كما تجرى اليوم.

وسوف نضيف ملحوظة أخرى تتعلق بالاسم العبرى الرباعى الحروف *Tetragrammaton* حيث إنه أحد الأسماء الربانية التى يُرمز إليها ’بالكلمة المفقودة‘، ولا بد أن يكون فيها أمرًا يناظر ما أسلفنا قوله، ومن حيث إن الخصائص ذاتها جوهرية فلا بد من وجودها على نفس المنوال فى كل شىء يمثل الكلمة بأى درجة من الكفاءة، ونعنى بذلك أن انضباط التناظر الرمزى يعتمد على نطق الاسم الرباعى بثلاثة مقاطع، وحيث إن الاسم الرباعى يُكتب بأربعة حروف فيمكن القول إن القيمة الرمزية للعدد أربعة يتعلق هنا ’بالجوهر القابل *substantial*‘ للكلمة ويمثل الثلاثة الأخر ’جوهرها الفاعل *essential*‘، وينبنى على ذلك أنها لا تُعتبر منطوقًا صحيحًا للاسم الذى لم يعد معروفًا لأحد نظرًا إلى أن له ثلاثة مقاطع، وقد كان اسم ’يهوى *Jehovah*‘ الذى اخترعته أوهام المفسرين والنقاد يتكون من مقطعين فحسب ولذا لا يصلح للشعائر.

---

[26] ونشير فى هذه النقطة إلى ’الماسونية المختلطة‘ أو *CoMasonry*، والتى رأت من الحكمة تساوى الساقين فى مثلث المعبود حتى يرمز إلى تساوى الرجل والمرأة، وهو ما ليس له أوهى علاقة بمعناه الحقيقى، وهذا مثل من أمثلة عدم فهم الرمزية وما تجره من نتائج فى التجديدات الوهمية.

[27] ’الثلاثى الأعظم‘ البابان *15* و *21*.

ويمكن الاستطراد طويلاً فى كل ذلك لكننا لابد أن نختم هذه الاعتبارات التى نكرر أنها مقصودة لإلقاء بعض الضوء على الجوانب المعقدة 'للكلمة المفقودة'.

4 بنّاؤا القرون الوسطى

نشر آرمان بيداريد *Armand Bedarride* فى شهرية *Symbolisme* بتاريخ مايو *1929* مقالاً بعنوان ’أفكار أسلافنا *Les Idees de nos Precurseurs*‘ بما أتاح لنا مناسبة لذكر بعض الخواطر المفيدة، وموضوع المقال هو طوائف الحرف فى العصر الوسيط ومدى تأثير روحها وتراثها على الماسونيين المعاصرين.

ولنلاحظ أولاً أن هناك تمايز بين ’الماسونية العاملة *Operative Masonry*‘ و’الماسونية التأملية *Speculative Masonry*‘، ولابد من فهمه بمعنى غير المعنى الذى يُسبَغ عليه حالياً، والواقع أن المعلوم غالبًا أنهم جماعة من العمال أو الحرفيين فحسب، وأن المعنى العميق لرمزيتهم لم يطرأ إلا بعد السماح بإنشاء طوائف الحرف، لكن ذلك ليس رأى بيداريد، فهو يذكر أمثلة شتى من الآثار الدينية وأشكالها التى تنطوى على رمزية على وجه اليقين، ويقول "إن بنائى القرن الرابع عشر كانوا يحتكمون على ’فلسفة رمزية‘"، وهذا صحيح شرط أن يَقصد بها ’فلسفة هرمسية‘ وليست ’فلسفة‘ بالمعنى المعتاد، فهى دنيوية صرف ولا نفع لها فى الرموز بأى شكل كان، ومن السهل مضاعفة هذه الأمثلة حيث إن تخطيط الكاتدرائيات رمزى محض كما ذكرنا فى مناسبات أخرى، ونضيف أن الرموز الوسيطة التى حفظ الماسونيون المعاصرون بعض ذكرياتها رغم أن فهم معناها شحيح، ناهيك عن الكثرة التى لا تعرف عنها شيئاً[1].

[1] وقد أتيح لنا ملاحظة أن كاتدرائية شتراسبورج وغيرها من كنائس الألزاس عليها علامات شتى للحجارين من أزمنة متفاوتة بين القرنين الثانى عشر والسابع عشر، وكان بعضها يثير العجب، وخاصة الصليب المعقوف على برج شتراسبورج.

وأرى أن المرء لا بد أن يذهب عكس تيار التفكير السائد ويعتبر فى معنى 'الماسونية التأملية' باعتبارها انحطاطًا عن 'الماسونية العاملة' التى كانت مكتملة فى منظومتها، وتحتكم على النظرية وما يوفى بها من العمل، وقد يُفهم مغزاها على نحو أفضل لو كان اسمها 'الماسونية العاملة فى الفن الشعائرى'، أما 'الماسونية التأملية' التى نشأت فى زمن الانحطاط التام لطوائف البناء فإن اسمها يدل على أنها مكرسة 'للتأمل' فحسب، أى لنظريات لا تَحَقُّق لها، ولا بد أن الأمر يحتاج التواءًا غريبًا حتى يعتبر هذه الأمر 'تقدمًا'، وربما لو كان ذلك مجرد ضمور لما كانت الخسارة فادحة كما هى فى الواقع، لكن الأمر كما ذكرنا مرارًا أن الانحراف قد بدأ مع بداية القرن الثامن عشر حينما قام المحفل الأعظم فى انجلترا، وكان ذلك هو منطلق الماسونية الحديثة برمتها، ولن نستطرد الآن فى هذه المسألة رغم رغبتنا فى الإشارة إلى أن المرء لو أراد أن يفهم روح بنائى العصر الوسيط فإن هذه الملحوظات جوهرية، وإلا كانت المفاهيم التى يكوِّنها زائفةً أو ناقصةً تمامًا.

وهناك فكرة لا يقل تصحيحها أهمية وهى أن استخدام الرموز قد فرضته دواعى الحذر، ونحن لا نلاحى أن هذا السبب قد يوجد فى حال أو آخر، ولكن ذلك أكثر الأمور ظاهرية وأقلها أهمية للمسألة، وقد تحدثنا عنها فى سياق ذكر دانتى و'صرعى الغرام *Fedeli d'Amore*'[2]، ويمكن أن نكررها فى سياق ذكر طوائف حِرَفة البناء، حيث إن هناك روابط وثيقة بين كل هذه التنظيمات التى تبدو مختلفة إلا أنها تشارك فى المعرفة التراثية ذاتها[3]، فالرمزية هى الصيغة الطبيعية للتعبير عن المعرفة فى هذه المنظومة، وهذا هو غاية وجودها فى كل الأزمنة والبلاد حتى لو لم يكن هناك ما يدعو إلى السرية، وذلك ببساطة لأن هناك أمورًا لا يمكن التعبير عنها إلا على هذا المنوال فحسب.

ويبدو أن الخطأ الذى يطرأ عادة فى هذه المسألة ونجد صداه فى مقال بيداريد ناتج عن سببين رئيسيين، أولهما أن الكاثوليكية الوسيطة لا تكاد تُفهَم عمومًا، ولا ينبغى نسيان أن وجود جوانية إسلامية يعنى بالتالى وجود جوانية كاثوليكية، ونعنى بها جوانية تقوم على الرموز فى شعائر الدين الكاثوليكى، والتى انطبعت عليه دون أن تناقضه، ولا جدال فى أن طرقًا دينية عدة لم تكن تلك الجوانية غريبة عنها، ولو أن ميل الكاثوليكية إلى إنكار وجود هذه الأمور

---

[2] *See Voile d'Isis,Feb. 1929. Chap. 4 of Insights into Christian Esoterism. En.*

[3] وقد حافظت محافل طوائف الحرف على ذكرى 'طقس سليمان' وعلاقته بمحفل فرسان المعبد.

يبرهن على أنهم ليسوا أكثر علمًا من باقى المعاصرين بها.

والسبب الثانى للخطأ هو أن من الشائع الاعتقاد بأن ما خفى وراء الرموز المذكورة فكرة اجتماعية أو سياسية[4]، ولكنه فى الواقع أمر مختلف تمامًا، فيرى الذين يعرفون أفكارًا بعينها من هذا القبيل إنه لن يكون لها إلا أهمية ثانوية وليست إلا تطبيقًا ضمن تطبيقات شتى، وسوف نضيف إلى ذلك أنه أينما تصدَّت لدور رائد فإنها تسبب انحرافه وانهيارة[5]، أليس ذلك ما منع الماسونية الحديثة من تفهم ما حافظت عليه من الرموز القديمة وتراثها رغم أنها على عجزها الوريث الوحيد للعالم الغربى الراهن؟ ولو كانت الأشكال الشهوانية العبثية لازلت تسم أعمالهم التى يقدمونها برهانًا على الدور الاجتماعى لمحفل البنائين فإننا نُجيب بأن هذه الأشكال كانت مقصودة لمنع الدنيويين من تخطى ظاهرها، ولا يعلمون أنها تخفى أعمق الأمور، وليس هذا مقصورًا على البنائين، فكثير من الكتّاب على شاكلة بوكاتشيو *Boccacio* و رابليه *Rabelais* على وجه الخصوص ومن جرَّ جرَّهما يرتدون القناع ذاته ويعبرون بالوسائل ذاتها، ولا مناص من العلم بأن هذه الاستراتيجية قد أتت أُكُلَها حيث إنها لازالت تتغذى على الدنيوية.

ولو كنا نرغب فى سبر أغوار الأمور لابد أن نرى فى رمزية البنائين تعبيرًا عن علوم تراثية ترتبط بما يسمى ’الهرمسية‘, لكن الحديث عن ’العلوم‘ التراثية لا علاقة له بالعلوم الدنيوية التى يعرفها المحدثون اليوم، وهذا التماهى غير المشروع يتفق مع عقلية بيداريد الذى يتحدث "عن تغيرات صور المعرفة الوضعية فى العلم"، وهى ملحوظة تنطبق قصرًا على العلوم الدنيوية التى تفسر الرموز على نحو حَرفى، ويعتقد أنه قد وجد فيها أفكارًا ’تطورية‘ وحتى ’تحولية‘، وكلها أفكار على طرف نقيض من كل التعاليم التراثية، وقد داومنا فى كثير من أعمالنا على توضيح الاختلاف الجوهرى بين العلوم التراثية والعلوم الدنيوية، ولكننا لا نملك ذكرها فى هذا السياق، إلا أننا نعتقد أن من الأفضل لفت الانتباه إلى هذه المسألة.

ونضيف فى ختامنا لهذا الباب أنه لم يكن عبثًا أن يانوس الرومانى *Romans Janus* كان فى الآن ذاته ربًا للتعميد فى الأسرار وربًا لطوائف الحِرَف، كما لم يكن عبثا أن يتمسك بناؤوا

---

[4] ويشارك آرو *Aroux* و روزيتى *Rossetti* فى هذا المنظور فى تفسيرهما لكوميديا دانتى، كما أننا نجد فى كتاب ليفى *Eliphas Levi* ’تاريخ السحر *History of Magic.*‘ عدة فقرات عنه.

[5] ومثال ذلك المنظومات الإسلامية التى اتخذت فيها الاهتمامات السياسية أهمية خنقت الروحانية.

العصر الوسيط باحتفال الصيف والشتاء[6]، فقد تحول يانوس الرومانى إلى شخصيتا القديسان يوحنا فى الجوانية المسيحية، ألا ندرك على الفور أنه باعتبار أحوال 'القوانين الدورية' فإن التعميد بالأسرار هو ذاته التعميد المذكور؟

[6] *6. See Symbols of Sacred Science, chaps. 37 and 38. ED.*

5 البنَّاؤون والنجارون

لقد كان هناك دائمًا نوع من التشاحن عن أسبقية البناؤن والحجارون عن النجارين، ولو نحن اعتبرنا العلاقة بين الطائفتين لا فى إطار الأحوال الراهنة بل من منظور قِدَمهما فمن المؤكد أن من حق النجارين ادعاء الأسبقية، والواقع أننا قد طرحنا فى مناسبات أخرى أن المبانى كانت تُصنع من الخشب أول الأمر قبل أن يبدأ بناؤها بالحَجَر، ولذا لم يعد أثر للمبانى الخشبية بعد دوام محدود فى الهند، فمن الواضح أن مبانى الحجر أطول دوامًا من مبانى الخشب، زد على ذلك أن استخدام الخشب فى مبانى الشعوب الحضرية يُقَصِّر من عمرها عن مبانى الحجر، أو بتعبير آخر أنها أقل 'صلابة'، وهو ما يتفق مع العمليات الدورية[1] فى المرحلة المبكرة.

ورغم بساطة هذه الملحوظة إلا أنها مهمة لفهم جوانب بعينها من الرمزية التراثية وخاصة واقع أن معظم المتون الهندوسية القديمة تنطوى على مقارنات تتناول رمزية البناء وأدواته وعملياته و'المهندس الأعظم فيشفاكارما'، والذى يسمى أيضًا 'النجار تفاشترى' حرفيًا، ولا حاجة لقول إن دور المعمارى ستهاباتى هو كذلك معلم النجارة، وبصرف النظر عن التعديل فى طبيعة المواد المستخدمة فإنه يتعين عليه استلهام 'النموذج الأول *archetype*' ذاته أو 'النموذج الكونى'، وسواء أكان فى بناء معبد أو منزل أو عربة أو سفينة، ولم تفقد النجارة أهميتها على الخصوص فى الحالات الثلاثة الأخيرة[2]، ومن الواضح كذلك أنه سواءً أكان بناء أجزاء بعينها من المبنى من الخشب أو الحجر أو مجرد تشكيل الواجهة فلن يغير ذلك من معناها الرمزى، ولن

---

[1] راجع ما ذكرنا عن هذا الموضوع فى كتابنا 'هيمنة الكم وعلامات الزمان' وخاصة فى بابى *21* و *22*، وبالطبع كان التغير المقصود لا يعنى أنه انتشر تلقائيا بين كل الشعوب، ولكنه كان دائما يناظر مراحل الحياة عند كل شعب.

[2] ومن المعلوم أن حرفا مثل صناعة العربات والأكشاك لابد من اعتبارها مجالا لتخصص النجار، ففى معناها العام القديم كل ما يتعلق بحرفة الخشب.

يكون هناك اختلاف فيما إذا كانت قمة القبة مفتوحة أم مغلقة بحجر أو خشب، فكلاهما يتماهى مع فكرة 'تتويج القبة'، وبناءًا على ما تقدم فى الدراسات الأسبق[3] وما يصدق على الخصوص على أقسام الهيكل التى بنى معظمها بالحجر قد احتفظ بالخشب كمادة بناء أولية فى الكمرات التى تتلقى أشعة الشمس النافذة من قمة القبة وبما تتضمنه من تناظر رمزى[4] ويمكن القول إذن إن حرفتى النجارة والبناء كلاهما يستمد من المبدأ ذاته، و بالتعبير المتوافق مع الحقائق العليا، والاختلاف الوحيد بينهما تعديل ثانوى كما هو الحال فى الترجمة من لغة إلى أخرى، وبالطبع يلزم معرفة ما ينتمى إلى كل من اللغتين حتى نفهم معناه وقيمته إذا كان علينا التعامل مع رمزية ثابتة.

والنقطة المهمة فى هذه المسألة أن الكلمة اليونانية 'هيولى *hyle*' تعنى 'الخشب' أصلا، ولكنها فى الآن ذاته تعنى مبدأ ' الجوهر القابل *principle substantial*' أو المادة الأولانية للكون *prima materia*، وتشتق منها كل المواد الثانوية *secunda materia*، أى كل ما له معنى نسبي، ويقوم بدور مشاكل للمادة الأولانية فى كل تجلياته[5]، كما أن هذه الرمزية التى توحى بأن مادة العالم الأولى أشبه بالخشب تتردد فى كثير من أديان العالم القديم، وتتسق مع رمزية البناء المذكورة، ومن السهل فهم السبب فى ذلك، فحيث إنها من الخشب فإن عناصر بناء الكون ترتسم به، ولابد من النظر إلى 'المهندس الأعظم' بصفته 'أستاذ النجارة' قبل كل شيء، كما أن من الطبيعى أن يكون كذلك حينما يتعين على البنائين الآدميين تقليد عمل المهندس الأعظم فى التراث أن يكونوا نجارين[6]، أما فيما تعلق بالتراث المسيحى فقد لاحظ

---

[3] *See Symbols of Sacred Science, chaps. 39-44. Ed.*

[4] وحتى لو كانت الكمرات الخشبية قد جُددَت فى زمن لاحق بعقود حجرية فلم يغير ذلك من دلالتها الرمزية، وتعنى كلمة *beam* الانجليزية 'شعاع' و'كمرة'، وقد لاحظ كوماراسوامى أمر ازدواج الدلالة فى عدة مناسبات، ولا ترجمة لها فى الفرنسية حيث لا يجرى الحديث عن 'الأشعة' ولا 'برامق' العجلة، والتى لها رمزية تقابس 'عين القبة'..

[5] ومن المدهش أن الكلمة الأسبانية *Madera* المشتقة مباشرة من *material* أى المادة لازالت تعنى الخشب، وخصوصا فى بناء السقالات.

[6] وربما كانت المرتبة الثانية والعشرين فى الماسونية الاسكتلندية بحسب التفسير الهرمسى تمثل 'إعداد المواد اللازمة للبناء العظيم'، ولا تعنى هذه المواد الحجر فى الماسونية التعميدية بل سقالات الخشب، ويمكن أن نرى فى هذه المحافل أصولها التاريخية وشىء من البقايا فى تعميد النجارين،

كوماراسوامى أن فى ذلك توضيح لأن يكون المسيح عليه السلام ابن نجار، فالوقائع التاريخية لا تعدو انعكاسًا لحقائق من مقام آخر، وهو ما يضفى على تلك الوقائع قيمتها، وهى رمزية أعمق مما يمكن أن تقوم بالفكر وحده حتى لو كانت قرابة ظاهرة، فهى ضرورية لمعنى الرمز رغم أنها تنتمى إلى مقام التجلى فحسب لا إلى مقام المبادئ، وهى تناهز التراث الهندوسى فيما تعلق برمز آجنى الذى كان نبيًا أفاتارا بلا جدال، وكان تفاشرى أبوه بالتبنى عندما ولد فى الكون، فكيف يمكن أن يكون الكون غير ذلك رمزيًا حيث إنه عمل 'المهندس الأعظم'؟

....

والبلطة التى تمثل صفتها الرئيسية، كما لابد من ذكر أن رمزية البلطة تختلف هنا عن الرمزيات الملغزة التى ترتبط بالمكعب الحجرى المدبب *pointed cubic stone*، والتى تناولها عدد *Le hieroglyphe du Pole* عام *1937*، ولنذكر أيضا أن الرمزية المرتبطة بالبلطة قد اشتُقت من رمزية فاجرا الهندوسية، والمقالات التى أشرنا إليها تشكل أبواب *15* و *25* و *26* من كتابنا 'رموز العلم المقدس'.

6 الأرثوذكسية الماسونية

لقد كُتِب الكثير عن مسألة الانضباط الماسونى، واختلفت التعريفات المطروحة إلى حد التضارب دون أن تُحَلَّ المشكلة، إلا أن الفوضى تفاقمت، ويبدو أن السؤال ذاته مطروح على نحو خاطئ، فالانضباط دائمًا ما يتعلق بالاعتبارات التاريخية فحسب عن البراهين الحقيقية أو المفترضة لتداول السلطة منذ أزمنة سحيقة، وعلينا الآن بالطبع أن نعترف من هذا المنظور بأن هناك درجة من عدم الانضباط التى يمكن أن نجدها فى أصول الشعائر التى تُقام اليوم، لكننا نعتقد بأن ذلك أقل أهمية مما يتوهم البعض من أسباب، ومن جانبنا نعتقد أن هناك انضباطًا جوهريًا فى الأرثوذكسية الماسونية أى الرشد الماسونى، والتى تقوم على اتباع التراث بإيمان، وحفظ الرموز والشعائر التى تعبر عنها وتكسوها، ومقاومة أية محاولة للتجديد تفوح بالحداثة، ونقصد باستخدام كلمة 'الحداثة' ميولاً منتشرة فى داخل الماسونية شأنها شأن كل أمر آخر، ويتسم بعدم احتمال النقد ورفض الرمزية وإنكار كل ما يشكل الجوانية والعلوم التراثية.

ولا نبغى قول إنه لو كان على الماسونية أن تظل رشيدة فلا بد أن تقتصر على الشكلية الضيقة، وأن على شعائرها أن تظل مطلقة لا يُضاف إليها ولا يُختصَر منها مما يُعدُّ فسوقًا، فسوف يكون ذلك بمثابة برهان على عقائديتها على نحو غريب عن روح الماسونية، فتراثها لا يستبعد التطور ولا التقدم، وعلى شعائرها أن تتعدل طالما احتاجت إلى تعديل كى تتفق مع الأحوال المتغيرة فى الزمان والمكان شريطة ألا يؤثر التعديل على أى أمر جوهرى، وتغيير تفاصيل الشعائر ليس مُهِمًا شرط بقاء التعاليم التعميدية كما هى بلا تشويه، وألا يؤدى تعدد الشعائر إلى تراجعات خطيرة، وربما أدى إلى مميزات بعينها، وألا يكون ذريعة للتفاصل بين المحافل المتنافسة بما يهدد كلية الماسونية ووحدتها، والتى هى واقعية رغم مثاليتها.

ومن المؤسف أن كثيرًا من الماسونيين يجهلون الرمزية وتفسيرها الجوانى تمامًا، كما

يهجرون دراسة التعميد التى تصبح الشعائر بدونها احتفاليةً لا معنى لها كما لو كانت دينًا برانيًا، ونجد من هذا المنظور حالات كُثرٌ من الإهمال الذى لا يُغتفر فى فرنسا وإيطاليا، ونذكر على سبيل المثال أساتذة كفُّوا عن ارتداء وشاح الماسونية الذى يُعَدُّ زىَّ الماسونية الحقيقى، وليس الحبل فيه إلا زينه، كما ذكر د. بلاتين *Dr F. Blatin* مؤخرًا فى ورقة لابد أنها لازالت تتردد على عقول الأعضاء *FF*، وأخطر من ذلك التبسيط المخل وحتى غياب محنة التعميد *initiatic ordeals* واستبدالها بمطالعة صِيَغٍ لا معنى لها، ولا نملك فى هذه الحالة أفضل من اقتباس السطور التالية التى تُعَرِّف الرمزية عموما،

> إن الرمزية الماسونية هى الصورة الملموسة للتركيب الفلسفى أو الترتيب التجريدى، ولا تُفضى المفاهيم التى تمثلها الرموز إلى أية تعاليم عقدية، وتجنب الصيغ الملموسة أو المنطوقة التى لا يمكن ترجمتها فى كلمات، فهى كما قيل حقًا أسرار تتخفى عن حب الاستطلاع الدنيوى، وحقائق لا يدركها العقل إلا بإعداد حكيم، وهذا الإعداد لفهم الأسرار يُطرح على سبيل الاستعارة فى محنة التعميد الماسونى للمراتب الثلاثة الأساسية للمحفل، وهذه الاختبارات ليست بغرض سبر الشجاعة ولا الصفات الأخلاقية فى المختارون الجدد كما قد يتوهم المرء بل تمثل تعاليماً يجب أن يتفكر فيها المرء ويميزها، ثم يتوسط بها طوال مهمته التعميدية[1].

وسنرى فى ذلك أن الأرثوذكسية الماسونية كما سبق تعريفها متصلة بكلية رموزها واتساقها، وليست منحازة لرمزٍ دون آخر ولا حتى لصيغةٍ مثل *A. L. G. D. G. A. D. L U.* التى رغب البعض فى جعلها شعارًا مميزًا للأرثوذكسية الماسونية، وكما لو كان ذلك شرطًا وضرورةً كافية، والواقع أن كبتها فى الماسونية الفرنسية منذ *1877* قد تعرض للنقد، ولننتهز هذه الفرصة للاحتجاج بشدة على حملة هزلية إن لم تكن تبعث على الامتعاض، فقد قامت فى الماسونية الفرنسية بدعوى ما أسمته الروحانية التى لا علاقة لها بهذه الحالة، ولو كان القائمون بها الذين لا نرغب فى شرف ذكر أسمائهم يعتقدون أن طريقتهم ستؤدى إلى نجاح الماسونية الزائفة التى يحاولون بلا جدوى نشرها تحت لافتات متنوعة فإنهم على ضلال.

ولا رغبة لدينا فى ذكر مسألة *A .G.* فى *U.* فى سياقنا هذا فى هذه المناسبة على الأقل، وقد طرأت هذه المسألة فى العدد الأخير من دورية لاكاسيا *L'Acacia* مطارحة مثيرة بين أوزوالد *FF. Oswald* وليموزين *Ch.-M. Limousin*، لكنها انقطعت بموت ليموزين الذى أثار

---

[1] *Rituel interpretative pour le Grade d'Apprenti, edited by the Groupe Maronnique d'Etudes Initiotiques,1893.*

حزن الماسونية بأجمعها، وسوف نقتصر هنا على ملاحظة أن رمزية *A .G. U*. فى *U*. لا تعبر عن عقيدة، ويمكن فهمها على وجه صحيح عند كافة الماسونيين رغم اختلاف آرائهم الفلسفية، ولا تتطلب منهم اعترافًا بوجود أى رب بعينه كما يُفتَرَض عادة، وقد كانت الماسونية الفرنسية للأسف مخطئة فى هذا الموضوع، ونقول بلا أدنى تحيز أنها شاركت بموقفها فى خطأٍ شائع، ولو انفثأ ذلك الاضطراب فسوف يفهم كل الماسونيون معنى رمزية *A .G*. فى *U*. لو أنها صيغت بفكرة معقولة بدلاً من إلغائها، ومن ثم تُعالَج على منوال كل الرموز التعميدية فى الماسونية كما قال أوزوالد ويرث *F. Oswald Wirth* الذى نتفق تمامًا مع رأيه.

ونأمل فحسب أن يأتى يوم قريب يتم فيه الاتفاق على نحو نهائى على مبادئ الماسونية الأساسية والأمور الجوهرية للمذهب التراثى التى انحرف بعضها، وسوف تعود الأرثوذكسية الحقة، وسوف يتوحد الجميع لإنجاز العمل الأعظم فى التحقيق المتكامل للتقدم فى كل مجالات العمل الإنسانى.

7 العرفان والماسونية الحرة

قال آلبرت بايك *T. IIL∴F. Albert Pike* "إن العرفان هو جوهر الماسونية الحرة ونخاعها"، ويعنى العرفان هنا المعرفة التراثية التى تشكل أساس كل طرق التعميد ومذاهبها ورموزها التى انحدرت من أزمان سحيقة حتى يومنا هذا فى طرق الأخوَّة السرية، وفى سلسلتها التى لم تنقطع حتى الآن.

ولا تنتقل المذاهب الجوانية إلا بالتعميد، ويمر كل تعميد بمراحل عدة تناظر المراتب المختلفة للطريقة، ويمكن أن تُختَزَل على ثلاث مراحل فى ثلاث كلمات هى 'الميلاد والتربية والعمل' على الترتيب، ونقتبس قول أوزوالد ويرث *F. Oswald Wirth* فيما يلى،

إن غاية التعميد الماسونى تنوير الناس حتى يتَّبعوا طرق العمل الناجح باتّساق مع غاية وجودهم، وحتى يستنيروا لا بد لهم من التخلص من كل ما يمنعهم من رؤية النور، ولذا يُكلَّفون بمجاهدات تطهيرية حتى يتخلصوا من الرواسب الغريبة، وهى أسباب العتامة التى تغلف الجذور الروحية للإنسان بقوقعة معتمة، وبمجرد تنظيفها تجلى شفافيتها لتسمح للنور بإضاءة مركز الإنسان الواعى ليتشبع به كيانه بأسمى معنى للكلمة، وبسمى راهباً يتحول إلى بؤرة من نور.

والتعميد الماسونى إذن يتكون من ثلاثة مراحل تتركز بالتتابع على 'اكتشاف النور واستيعابه ونشره'، ويمثلها المراتب الثلاثة للمريد والتابع والأستاذ التى تناظر الرسالة الماسونية، وعددها ثلاثة لا تزيد ولا تنقص، أما اختراع نظم مختلفة تسمى 'المراتب الأعلى' فيعتمد على عملية تسوية قد تضطرب بها المراحل الثلاثة للتعميد التى قد تصل إلى عدد غير محدود.

وتناظر هذه المراتب الثلاث فى التعميد البرنامج الثلاثى الذى تتبعه الماسونية، وتحمل فى طياتها لغز أبى الهول، من أين أتينا؟ ومن نحن؟ وإلى أين نذهب؟، ولذا تناظر كل ما يهم

الإنسان، وتقوم على مبدأ صمدى تتوحد فيه الثلاثة فى كل واحد، ولا يمكن أن يضاف إليها ولا أن يؤخذ منها شيء، وتشكل تلمذة المريد واتِّباعية الراهب عمودين يحملا الأستاذية.

أما عن مراتب التعميد فإنها تسمح للمريد بالغوص فى جوانية كل مرتبة، وينتج عن ذلك عددٌ لامحدودٌ من الطرق للدخول فى المراحل الثلاث للتلمذة والاتِّباع والأستاذية، والتى يمكن إحراز مظهرها البرانى فحسب، أما 'الحرف اللامعلوم' فى الماسونية فإن كثيرًا من يُدعى وقليلاً من يُختار، فهمة المريد أن يتفهم الروح الباطنة لمراتب التعميد، كما أن كلاً منهم لن يحقق النتيجة ذاتها كالآخرين، فلن يكد المريد أن يخرج من الجهل بجوانيه، ولن يتقدم على المنوال المعروف نحو المعرفة المتكاملة والعرفان الحق.

ويُرمَز إلى العرفان الكامل فى الماسونية بحرف *G* الذى يتوسط النجم الساطع، كما ينطبق فى الآن ذاته على برنامج الاكتشاف الفكرى والتربية الأخلاقية للمراتب الثلاث للتلمذة والاتباع والأستاذية، فغاية المريد النفاذ فى أسرار أصل الأمور، وغاية التابع كشف سر طبيعة الإنسان، وغاية الأستاذ كشف المعرفة بمستقبل المخلوقات ومصائرها، كما أنها تشجع المريد على حفز قوته الباطنة إلى أقصاها، وتبين للتابع كيف يجتذب القوى المحيطة به إلى ذاته، وتعلم الأستاذ كيف يسود على الطبيعة ويُخضعها بصولجان ذكائه، ولا ينبغى أن ننسى أن كل هذه التعميدات الماسونية تتعلق بالفن الأعظم والفن الملكى المقدس لقدامى السالكين[1].

ودون أن نرغب فى تناول السؤال المعقد عن الأصول التاريخية للماسونية فلنتذكر فحسب أنها ترجع من حيث صورتها المعروفة حاليًا عن الماسونية الحديثة فى اندماج جزئى بين أخوة الصليب الوردى التى حافظت على المذهب الجوانى منذ العصور الوسطى وبين طوائف البنائين القديمة التى كانت أدواتها رموزًا لفلاسفة الهرمسية كما تجلت عند أشخاص على شاكلة بازيل فالنتين *Basil Valentine*[2].

ولكن لنترك هذا المنظور المحدود إلى العرفان مؤقتًا لكى نؤكد أولاً على حقيقة أن التعميد الماسونى شأن غيره من طرق التعميد هو تحقيق المعرفة المتكاملة، وهى العرفان الذى يشكل سر الماسونية بالمعنى الحق، ولذا كان ذلك السر لا يقبل تعبيرًا ولا تواصلًا.

---

[1] *'L'Initiation Maconnique', an article published in L'Initiation,fourth year, January 1891.*

[2] *On this subject, see Le Livrede l'Apprenti, by F:. Oswald Wirth, pp24-29 of the new edition.*

وحتى نتجنب كل غموض نختم هذا الباب بملاحظة أننا نحن الماسونيون لا نملك الارتباط بأى فلسفة ولا ينبغى لنا، فلا هى روحية ولا مادية، ولا هى مؤمنة ولا ملحدة ولا مشركة بالمعانى المعتادة، ولا مناص لنا من الماسونية بنقائها وبساطتها، وقبل أن ندخل المعبد على كل امرئ أن يطهر ذاته من شخصانيته الدنيوية، ويضع جانباً كل ما كان غير المبادئ الأصولية للماسونية، والتى لابد أن يتوحد فيها الجميع لإنجاز العمل الأعظم للبناء الكلى.

8 مراتب الماسونية العليا

لقد رأينا فى الباب السابق كيف ينطوى التعميد الماسونى على ثلاث مراحل متتابعة، ولذا لا وجود إلا لثلاثة مراتب لتناظرها فحسب، ويبدو من ذلك أن المراتب التى تزيد عن ذلك لا نفع منها على الأقل من الناحية النظرية، حيث إن شعائر التعميد للمراتب الرمزية الثلاث تعبر عن دورة كاملة للتعميد، وحيث إن التعميد الماسونى رمزى فى الواقع فإنه يُنتج ماسونيين يعتبرون رموزًا للبنائين الحقيقيين، ويرسم لهم طريق كل خطوة حتى يصلون إلى التعميد الحق، وهذه هى الغاية الأصلية لكل نظم المراتب العليا، والتى يبدو أنها وُضِعت لتحقيق العمل الأكبر واقعياً من حيث النظرية على الأقل.

ولابد من العلم بأن قليلاً من هذه النظم قد أنجزت غايتها، ويجد المرء فى كثير منها غموضًا وفجوات وسطحية، كما تبدو القيمة التعميدية لطقوس بعينها متهافتة وخاصة فى معالجة المراتب رمزيًا، وتتبدى هذه السقطات بجلاء أشد فى العدد الأكبر من تعميد المراتب التى ينطوى عليها المحفل، ولو كان ذلك هو ديدن الماسونية الاسكتلندية التى بلغت *25* أو *33* مرتبة، فماذا يمكن قوله عن الطقوس التى بلغت *90* أو *97* أو حتى *120* مرتبة؟ وهذه الكثرة فى المراتب لا نفع منها حيث إن المرء مُجبَر على تحقيقها بالتتابع، وقد عكف الجميع فى القرن الثامن عشر على اختراع منظومات بأسمائهم، وكانت بالطبع مطعَّمة بالرمزية الماسونية لمجرد فصاحة التعبير عن المبادئ الأصولية، والتى عادة ما فُسِّرت حسب اعتقادنا بمنظور هرمسى أو قبالى أو فلسفى، وقل مثل ذلك عن طوائف الفروسية والتنويرية، وهذا ما أدى إلى تكاثر هائل فى الشعائر، وقد سُجِّل كثير منها كتابة، ويستحيل فك طلاسم تاريخها جميعًا، وكل من حاول أن يجد نظامًا فى هذه الفوضى فعليه أن يقنط، وأيًا كانت الأسباب لإضفاء تفاسير خيالية عن أصول المراتب العليا.

ولن يمكن أن نذكر هنا كل ما صادفنا مما يسمى ببرهان تاريخى فى أعمال كثير من الكتّاب، ولكن من المؤكد فى الدعاوى التى ترددت كثيرًا عن أن الفارس رمسيس الذى لم يكن مخترع المراتب العليا حتى لو كان مسئولاً عنها على نحو غير مباشر، فقد ألهمت خطبة نُسِبت إليه عام *1737* الذين أقاموا الشعائر الاسكتلندية لربط الماسونية بالأسرارية القديمة وبالمنظومات الدينية والعسكرية للقرون الوسطى، لكن رمسيس ليس واضع شعائر المحفل الماسونى الاسكتلندى بأكثر مما كان إلياس أشمول *Elias Ashmole* واضع شعائر المراتب الرمزية، على سبيل ذكر الرأى السائد الذى شارك فيه راجون *Ragon* وغيره من المؤرخين نقتبس ما يلى:

لقد كان إلياس أشمول عالم آثار مرموق وراهبًا فى الهرمسية والمنظمات السرية التى شاعت فى عصره، وقد قُبِل كماسونى بتاريخ *16* اكتوبر عام *1664* فى واريجتون، وهى مدينة صغيرة من أعمال مقاطعة لانكستر، ثم عاد إلى المحفل بعد بلوغه *35* عامًا فى *11* مارس عام *1682* للمرة الثانية والأخيرة فى حياته، ويشهد على ذلك يومياته التى كان يكتبها بدقة فائقة[1].

زد على ذلك إننا لا نعتقد أن شعائر التعميد عمومًا يمكن اعتبارها من وضع أفراد بعينهم، ولكنها اجتمعت فى عملية تستعصى على الوصف، فى حين أن بعض المراتب العليا القليلة الأهمية تطرح أدبيات مصطنعة مدبَّرة متآمرة تلاصقت بعقلية فردية، ودون أن نتأمل فى أمور عظيمة، ويكفى النظر إلى النُظم المتنوعة فى الميول الإبداعية لرجال غير راضين بالنظرية المحض، ولكنهم يرغبون فى تجاوزها عمليا، وغالبًا ما لا يذكرون أن التعميد الحق يعتمد على الشخص فى المقام الأول.

وقد رغبنا ببساطة فى قول ما نعتقد عن منظومات المراتب العليا وسبب وجودها، ونعتبرها أداة نفعية لا غير، ولكن بشرط أن تحقق الهدف الذى نشأت من أجله، وهو شرط ندر أن يتحقق، ولذا يحسن إسناد وظيفة الدراسات الفلسفية والميتافيزيقية التى أهملها محفل الماسونية الرمزية إلى محافل المراتب العليا، ولا ينبغى نسيان الطبيعة التعميدية للماسونية التى لا يمكن أن تكون منتديات سياسية ولا جماعات تكافلية أيًا كان ما قيل عنها، ولا شك فى استحالة التواصل الذى يستعصى بطبيعته على التعبير، ولذا كانت الأسرار الحقيقية حماية لها من العلنية، ولكننا على الأقل نقدم مفاتيحًا تسمح بتعميد حقيقى بجهودها وبالتأمل الشخصى،

---

[1] *Oswald Wirth, Le Livre de l'Apprenti, p30 of the second edition.*

وتّتبع التراث العتيد والمجاهدات في المعبد والجامعة لكل الأعمار وكل البلاد، كما يمكن أن نضع الذين يأملون على أفضل الأحوال فى تحقيق الاستنارة على الطريق الصحيح، وإمدادهم بالعون الذى يستحيل بدونه الوصول، ولن نتحدث أكثر من ذلك فى هذه الموضوع، ونعتقد أننا قلنا ما يكفى لإدراك طبيعى محافل المراتب العليا بدلًا من الرغبة فى التخلص منها جميعًا، ولو أن المرء على الحقيقة يريد أن يجعلها محافل تعميدية حقيقية حتى تتكفل بتداول العلوم الجوانية وحفظ نزاهة المكنز المقدس للتراث الماسونى الأرثوذكسى الكلى.

9 تعميد النساء وتعميد طوائف الحرف

كثيرًا ما قيل لنا إن المنظمات التراثية الغربية التى لازالت تحيا حتى اليوم لا تعطى فرصة للنساء للدخول فى منظوماتها التعميدية، ويعجبون من أنه أمر مؤسف إلا أنه يستعصى على العلاج، كما أن ذلك صادم للذين اعتقدوا أن الغرب قد أعطى النساء حقوقًا ووظائفًا لم تتيسر لهن فى أية حضارة أخرى، وربما كان ذلك صحيحًا فى جوانب بعينها ولكن على نحو ابتدائى بمعنى أن المرأة فى الزمن الحديث قد انتُزِعت من دورها الطبيعى فى السماح لها بمزاولة وظائف كانت مقصورة على الرجال فحسب، وهذه مجرد حالة من الفوضى التى تفشت فى زمننا، وقد كانت النساء الغربيات من منظور أكثر مشروعية أقل تميُّزًا فى الواقع عن النساء فى الحضارات الشرقية، واللائى دائمًا ما أمكنهن الالتحاق بمنظومات تعميدية بمجرد امتلاكهن المؤهلات المطلوبة، وهو الأمر السارى فى طرق الإسلام الجوانية على سبيل المثال، ويكفى لدحض الترهات التى تقال فى أوروبا عن مسألة الإسلام.

ونعود إلى العالم الغربى، فمن البديهى أننا لا نتحدث عن الأزمنة القديمة التى كان للنساء فيها حق التعميد حتى إن بعض المنظمات كانت نِسوية صرف فى حين كان البعض الآخر ذكورى صرف، ولكن كيف كان الحال فى العصر الوسيط؟ فبالطبع لم يكن مستحيلاً على النساء فى ذلك الزمن الالتحاق بمنظومات المسيحية الجوانية، وهو أمر محتمل فى حد ذاته[1]، ولكن لم يبق أثر لهذه المنظومات منذ زمن طويل، ومن الصعب الحديث عنها بيقين وانضباط، وعلى كل فإنها وفرت إمكانات محدودة مثل تعميد الفروسية الذى لا يناسب النساء من واقع

[1] وتعتبر حالة جوان دارك عميقة المغزى فى هذا الصدد رغم الألغاز التى أحاطت بها..

اسمه وطبيعته، ويصدق الأمر ذاته على طوائف الحِرَف أو على الأقل على أعظمها أهمية، والتى استمرت فى الوجود حتى زمننا، والسبب الحقيقى فى غياب التعميد النسوى فى الغرب المعاصر هو أن تلك الطوائف تقوم أساسًا على حِرَف لا يصلح فيها إلا الرجال، وكما قلنا سلفًا لا نرى سبيلًا إلى سد هذه الثغرة المؤسفة مالم يثُبت فى يوم ما تحقيق الإمكانية التى سنتناولها فيما يلى.

إننا على علم تام بأن معاصرينا يعتقدون أن اختفاء بعض منظومات الحِرَف قد أدى إلى اختفاء طرق التعميد التى تناظرها، ومن ثم فقدت دعوة النساء سبب وجودها، لكن ذلك لغو واضح، فلم تتغير أسس التعميد حيال هذا الأمر كما أوضحنا فى عمل أسبق[2]، ويدل هذا الخطأ على عدم فهم تام لمعنى مؤهلات التعميد ومداها، فالصلة بالحرفة مستقلة عن ظاهر أعمالها، وتظل بالضرورة محفورة فى صورة التعميد وفيما يشكلها جوهريًا كطائفة حِرَفية، حتى إنها لا تملك فى كل الأحوال أن تصلح لمن لا يقدر على مزاولة الحرفة، وبالطبع نتجه إلى الماسونية هنا، وإلى ما تعلق بطوائف الحرف *Compagnonnage*، فلازالت ممارسة الحرفة شرطًا لازما، ولم نر انحرافًا فى هذا الصدد مثل ' الماسونية المختلطة *mixed Masonry*' التى لم تعد تصلح كأمر مقبول لكل من لديه أدنى فكرة عن مبادئ الماسونية، وقد كان وجود تلك الماسونية المختلطة التى تسمى فى البلاد المتحدثة بالانجليزية *Co-Masonry* محاولة لحشر أمر فى نطاق التعميد كان أجدر بهم إعفائه منه، وقد كانت فكرة المساواة *egalitarianism* التى رفضت أن ترى الاختلافات الطبيعية بين الكائنات أن انتهت إلى تكليف النساء بدور ذكورى تماما، وهو ما يكمن فى كل الدعاوى النسوية المعاصرة[3].

والسؤال الذى يجدر الاعتبار فيه هو لماذا كانت الحرف قد تجمعت فى طوائف ذكورية صرف؟ ولماذا لم يكن هناك حرفة نسوية لها تعميد مماثل؟ وهو سؤال على قدر كبير التعقيد، ولا ندَّعى أننا نجيب عليه هنا ناهيك عن البحث فى العوارض التاريخية التى طرأت فى هذا الصدد، وسوف نقول فحسب إن هناك مصاعب بعينها وربما كان أهمها واقع أن المنظور التراثى

---

[2] *Perspectives on Initiation chap. 14.*

[3] ومن المفهوم بالطبع أننا نتحدث هنا عن الماسونية التى تسمح بعضوية النساء بشروط عضوية الرجال، وليس 'ماسونية التبنى *Masonry of adoption*' القديمة التى كانت تعمدهن على منوال شبه تعميدى حتى ترضى الغاضبات من عدم الانتماء إلى الماسونية، حتى لو كان التعميد وهميا ولا قيمة له، ولم تشاركن فى ادعاءات الماسوتية المختلطة.

للحرف النسوية وارتباطها بما فى داخل المنزل لا بما فى خارجه كما هو حال الحرف الذكورية، وهذه المصاعب تستعصى على الحل، ولا يمكن الدوران حولها بمواد دستورية تحكم المنظمات التعميدية، ومن ناحية أخرى لا شك أن هناك حِرفًا نسائية قادرة على تكوين طائفة تعميدية مثل النسيج على سبيل المثال، فهى حرفة لها رمزية مهمة تحدثنا عنها فى سابق أعمالنا[4]، ولكن هذه الحرفة يمكن للمرأة والرجل ممارستها، ونشير هنا إلى التطريز كحرفة مقصورة على النساء، كما أنها على اتصال مباشر برمزية الإبرة التى تحدثنا عنها فى أعمال أخرى وفى العمل الذى تناول سوترآتما[5]، ومن هذا المنظور يتضح من حيث المبدأ على الأقل أن تعميد المرأة أمرٌ لا ينبغى إهماله، لكننا نقول 'من حيث المبدأ' بموجب عدم وجود طرق تعميد أصولية فى الأحوال الراهنة لتحقيق هذه الإمكانيات، وحيث إنه يبدو دائمًا كأمر غائب عن الأنظار، وأن التعميد يستحيل أن ينشأ بمبادرة فردية، والتى لا يمكن أن تنتهى إلا إلى تعميد زائف بموجب غياب العنصر الذى يتعالى على الإنسان، أى النفوذ الروحى المفقود فى مثل هذه الحالات.

ولكن ربما لحنا بصيصًا من الحل فى تذكر أن الحِرَف التى تنتمى إلى طوائف كانت دائمًا ما تنضم إلى حرفة أخرى حتى تسبغ عليها تعميدًا لم تحتكم عليه من قبل، وأن من الممكن بناءً على واقع أن هذا الأمر لا يربو عن تلاؤم مع أنظمة تعميدية أسبق، أليس هناك حرفة قادرة على تطبيق هذا التلاؤم على ما تعلق بالحرف النسوية؟ ولا يبدو ذلك أمرًا مستحيلا وربما كان له سوابق فيما مضى[6]، ولكن لا ينبغى لنا ادعاء أن ذلك لن ينطو على مصاعب جمة فيما تعلق بالتلاؤم المطلوب، وهو أمر بالغ الدقة أكثر من تلاؤم حرفتين ذكوريتين، وأين نجد اليوم رجالا أكفاء لتحقيق هذا التلاؤم بروح تراثية منضبطة، والذين يحاذرون من أى تعديل يشوبه أهون نزوة مما يؤدى إلى خطر التآمر على التعميد المنقول؟[7] وأيًا كان الأمر فلن يمكن التعبير

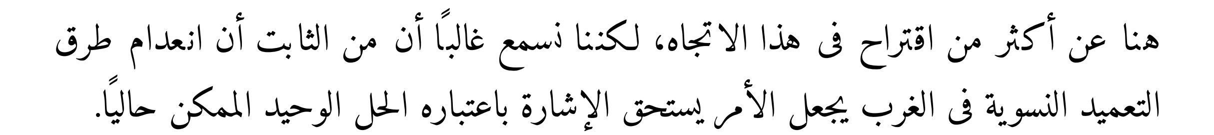
---

[4] راجع 'رمزية الصليب' باب *14*، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

[5] *See especially 'Encadrements et Labyrinthes in the October-November 1947 issue [translated as 'Frameworks and Labyrinths' in Symbols of Sacred Science, chap. 66). The drawings in question, by Durer and da Vinci, could be considered-and moreover have been by some-as representing models of embroidery.*

[6] وقد رأينا فى مكان ما ذكرًا لمحفل نسوى لصانعات الإبر الذى انضم إلى الطوائف، ولا نتذكر أمرا آخر فى هذ الصدد.

[7] *The danger would be to attach to the Compagnonnage something having no more real value than the 'Masonry of adoption' of which we have spoken above; yet those who instituted the latter at least knew what to expect, whereas under our hypothesis those who would want to institute a feminine companionic initiation without taking into account certain*



هنا عن أكثر من اقتراح فى هذا الاتجاه، لكننا نسمع غالبًا أن من الثابت أن انعدام طرق التعميد النسوية فى الغرب يجعل الأمر يستحق الإشارة باعتباره الحل الوحيد الممكن حاليًا.

....

necessary conditions, would, because of their incompetence, be the first to delude themselves.

10 رحلات الحجيج

ظهر حديثًا فى دورية وشاح إيزيس *Voile d'Isis* مقال باهر كتبه دى جيفرى *Grillot de Givry* عن أماكن الحجيج ذكَّرتنا مقدمتها التى كتبها كلافيل *Clavelle* بمسألة طرحناها فى هذه الصفحات.

لنبدأ اولا بذكر أن الكلمة اللاتينية *peregrinus* التى اشتقت منها كلمة *pilgrim* تعنى 'مسافر' و'غريب' فى الآن ذاته، وهذه الملحوظة البسيطة تشير إلى ارتباط عجيب، فإن أعضاء الطوائف يصنفون بعضهم بعضًا بصفتين هما 'المسافر' و'الغريب'، كما أن محنة الاختبار 'التأملية' فى رمزية التعميد الماسونى تسمى 'رحلة'، ويشيع فى كثير من الأديان وصف مراحل التعميد كرحلات أحيانًا ما تكون عادية وأحيانًا ما تكون هجرة، وربما كانت هذه الرمزية أكثر شيوعًا من الحرب التى نوهنا عنها فى عمل أسبق، كما أن الرمزيتين كلاهما يشتركا فى التعبير الظاهرى عن الوقائع التاريخية، ويخطر لنا على الخصوص العلاقة بين الحج إلى الأرض المقدسة وبين الصليبيين فى القرون الوسطى، ولنضف إلى ذلك أن اللغة الدينية المعتادة تعتبر الحياة زمنًا للمحن، وتتصل غالبًا بفكرة الحج إلى العالم السماوى وهو مناط هذا الحجيج، وأحيانًا ما يتعلق بفكرة 'الأرض المقدسة' أو ' أرض الأحياء'[1].

وقد كانت حال 'التجوال' أو 'المهاجرة' عمومًا أقرب إلى 'امتحان' أو 'محنة' فى منظومات مثل طوائف الحِرَف *Compagnonnage*، كما يصدق هذا الأمر على الأفراد والجماعات، والمثال الواضح فى ذلك هو تجوال الشعب اليهودى أربعين عامًا فى الصحراء قبل أن يصل إلى

[1] فيما تعلق برمزية الأرض المقدسة راجع كتابنا 'ملك العالم'، وكذلك مقالنا فى عدد خاص من مجلة *Le Voile d'Isis*، أما الاختلاف بين البدو والحضر فترجع أصوله إلى الإنسانية الأرضية، وله أهمية عظمى لفهم خصائص الصور التراثية المتنوعة.

أرض الميعاد، ولكن لابد من تمييزها كحالة انتقالية عن حياة رعاة البدو حتى بعد وصولهم إلى الأرض الموعودة، فقد ظلوا رعاة حتى زمن داود و سليمان، ولكن تلك الحياة الرعوية تختلف عن حالهم فى متاهة الصحراء[2]، ويمكن تمييز حالة ثالثة من 'التجوال' التى هى أشبه 'بالمعاناة' فى شتات اليهود بعد السبي كما تشاكل حياة البوهيميين، ولكن ذلك سينبو بنا عن مقصدنا، ونقول فحسب إن هذه الحالة تنطبق على الأفراد والجماعات، ويرى المرء درجة تعقيد الأمور والتمييز بينها فيما يبدو فى ظاهره متماهياً مع الحجاج الذين يختلطون بهم، كما أن المريدين وحتى الرهبان قد يظهرون على منوال 'المسافرين'.

ولكن لنعد إلى الحجيج الذى نعلم أن علاماته طاقية اليافوخ والعصا، وترتبط العصا بعصاة المشى عند طوائف الحرف التى ترمز على نحو طبيعى إلى المسافر، ولكن لها عدة معان أخرى ربما تناولناها فى دراسة لاحقة، أما عن قوقعة اليافوخ فقد كانت تسمى فى بعض المناطق 'بالبوتقة' التى تستدعى فكرة 'المحنة'، وهى من هذا المنظور تتعلق بالرمزية الخيميائية 'للتطهر *catharsis*' الفيثاغورى، والذى كان أول مراحل التعميد[3].

وحيث إن طاقية اليافوخ أحد الصفات الخاصة للقديس يعقوب بن زبدى *St James* فإن ذلك يؤدى بنا إلى ملاحظة الحج إليه فى *Santiago de Compostela* حيث إن طرق الحج التى كان يتَّبعها الحجيج قديماً لازالت تسمى حتى اليوم 'طرق القديس جاك *paths of Saint Jacques*'، لكن هذا الاسم يُطلق كذلك على أمر آخر فى لغة الفلاحين هو 'درب التبانة *Milky Way*'، وربما كان ذلك لسبب لغوى آخر حيث تعنى كلمة *Compostello* 'حقل نور النجوم'، وهنا نجد فكرة أخرى عن 'الرحلة السماوية' كما ينطبق على 'الرحلة الأرضية'، ولا نملك الإسهاب فى هذه النقطة حالياً ولكن نكتفى بملاحظة تناظر بين الموقع الجغرافى لمقصد الحج وتركيب السماء ذاتها، وهكذا كانت 'الجغرافيا المقدسة' تتكامل مع 'هيئة الكون المقدسة *Cosmogony*'.

ويحسن قبل أن نختم موضوع طرق الحجيج ذكر فضل بيديه *Joseph Bedier* فى اكتشاف الصلة بين المقامات التى أقيمت على طريق الحجيج لتشير إلى مراحل الحج، وقد تطورت منها

---

[2] *The footnote text is missing in both the book and the pdf.*

[3] ونشير إلى ما ذكرنا فى كتاب 'ملك العالم' عن التمايز بين تسمية المعمَّدين فى الأديان المختلفة بشروط تتعلق بالطهارة.

’أنشودة الإشارات *chanson de gestes*‘، ويجوز تطبيق هذه الحالة عمومًا حتى يمكن قول إن أساطير كثيرة لم تعد معروفة نظراً لتعدد المعانى، ولكن بجافل الحجاج تحب الروايات من هذا القبيل، وكذلك غيرهم، وكل منهم يفهمها بمدى قدرته الفكرية، وقليل من استطاع التعمق فى المعانى الأدق كما هو الحال فى التعاليم التعميدية، ولا بد من ملاحظة تنوع الحجاج بمن فيهم الباعة والشحاذين الذين يلتقون جميعًا على الطرق، وقد نشأت بينهم ألفة وتعاضدًا من الصعب تعريف أسبابها، ولغة مشتركة أطلق عليها ’لغة صدفة الرأس‘ و’لسان الحجاج‘، وقد انطوى أحد الكتب الأخيرة للكاتب ليون دوديه *Leon Daudet* على ملاحظات مثيرة وكلمات وعبارات شتى عن هذه اللغة، كما احتوت أدبيات فيون *Villon* و رابليه *Rabelais* على كثير منها[4]، وقد أشار رابليه أنه

أمضى سنوات تجوال فى مقاطعة بواتيه *Poitiers* التى اشتهرت بمسرحيات الأسرار والهزل والأساطير الشائعة فى بانتاجرول حيث اكتشفنا آثارًا من الأساطير والهزليات وعددًا من مصطلحات بويتفان[5].

وقد روينا هذا الاقتباس الذى تناول الأساطير المُشار إليها فى موضوعنا إضافة إلى معلومات عن أصول المسرح[6]، فقد كان فى أول أمره طَوَافًا مصطبغًا بسمات دينية تصل بينه وبين الحجاج من حيث مظهرها على الأقل، وما يضفى أهمية عليها أنها لم تكن فريدة فى أوروبا العصر الوسيط، وتناهز المسرح اليونانى القديم، كما أن هناك أمثلة شتى فى معظم بلاد الشرق.

ولكن لا بد أن نقتصر على ما تقدم سوى فى نقطة أخيرة تتعلق بصفة ’المسافر النبيل‘ التى تُطلق على المريدين أو على شطر منهم على الأقل فيما تعلق بأسفارهم، وقد كتب فى ذلك ميلوز *0. V. de L. Milosz*[7] ما يلى،

وقد انتقل اصطلاح ’المسافر النبيل‘ شفاهيًا من العصور الوسطى إلى العصر الحديث،

---

[4] *Les Horreurs de la Guerre, pp145, 147, and 167.*

[5] *Ibid., p173,*

[6] *See Perspectives on Initiation, chap. 28, 'The Symbolism of the Theater'. Ed.*

[7] *Oscar Vladislas de Lubicz [1877-1939], of Lithuanian and Jewish origin but educated in France, was a mystical poet, metaphysician, dramatist, Biblical exegete, and novelist, sometimes described as the French Goethe. See The Noble Traveller: The Life and Writings of 0. V.de L. Milosz, (West Stockbridge, MA: The Lindisfarne Press, 1985). ED.*

وكان الاسم السرى لمريدى الزمن القديم، وكانت آخر مرة ذُكِر فيها علنًا فى *30* مايو *1785* فى جلسة برلمانية فى باريس لاستجواب متهم شهير هو كاليوسترو *Cagliostro* كان ضحية لأحد مروجى الفضائح هو ثيفينو دى موراند *Theveneau de Morande*، وكان المريدون الجوالون لا يختلفون عن الجوالين العاديين إلا من حيث برنامج طوافهم، ورغم أن ذلك كان أمرًا عشوائيًا إلا أنه كان ملتزمًا بمواهب المريد وآماله السرية، وقد كان ديموكريتوس *Democritus* أحد الأمثلة الباهرة فى ذلك، فقد تعمّد فى دراسة الخيمياء السرية فى مصر على يد الساحر أوستانيس *Ostanes*، ثم فى المذاهب الآسيوية فى فارس والهند، و طاليس *Thales* الذى تعلم فى معابد مصرية وكلدانية، وفيثاغورس الذى زار بلادًا معروفة للقدماء ربما كان من بينها الصين و الهند، وقد كانت إقامته فى فارس قد اشتهرت بجواره مع الساحر زاراتاس، كما تعاون مع الدرو يديين فى بلاد الغال وإيطاليا حيث اشتهر بدروسه فى مجمع الأعيان فى كروتونا، ونضيف إلى هذه الأسماء باراكليسوس الذى أقام فترات فى فرنسا و النمسا و ألمانيا و البرتغال و ليثوانيا و فالاكيا و كارنيولا و دلماسيا و روسيا و تركيا، كما سافر فلاميل *Nicholas Flamel* إلى أسبانيا حيث تعلم على مايستر كاذشيس قراءة المقاطع المقدسة الشهيرة فى كتاب اليهودى أبراهام، وقد كتب الشاعر روبرت براوننج مقطوعة ثرية بأسرارية الجوَّالة الدارسين "إنى أرى طريقى كما ترى الطيور طريقها الخفى، ... وسوف أصل فى يوم ما، فهو الذى يرشدنى ويرشد الطير"، كما أن سنوات الترحال التى أمضاها وليم مايستر تتميز بذات المعانى التعميدية[8].

وقد أردنا طرح هذا المقتبَس رغم طوله نظرًا للأمثلة المهمة التى وردت به، ولا شك أنه يمكن العثور على غيرها، لكنها تنتمى بشكل مباشر إلى ما ذكرنا سلفًا، والتى لابد من تمييزها عن ’رحلات الدراسة‘ حتى لو تناولت التعميد وخاصة إرساليات الرهبان والمريدين بدرجة أقل.

ولنعد إلى مصطلح ’المسافر النبيل‘، والنقطة التى نرغب فى توكيدها هى صفة ’نبيل‘ التى تشير إلى التعميد عمومًا كما تشتمل على تعميد الكاشاطريا، أو ما يسمى ’الفن الملكى *royal art*‘ بالتعبير الماسونى الذى لازال ساريا، أو بتعبير آخر فإن التعميد لا ينتمى إلى نطاق الميتافيزيقا المحض ولكن إلى المنظومة الكونية والتطبيقات المرتبطة بها، أى كل ما يسميه الغرب ’ تأويلًا

---

[8] *The Noble Traveller: The Life and Writings of 0.V.de L. Milosz,op. sit., verse 46, pp338-339. ED.*

'Hermeticism'[9]، ولو كان الأمر كذلك فقد أصاب كلافيل فى قول "لو كان القديس يوحنا يناظر وجهة النظر الميتافيزيقية فإن القديس يعقوب بن زيدى يناظر 'العلوم التراثية'"، وحتى بدون ادعاء صلة 'بالمعلم يعقوب' فى طوائف الحِرَف فإن كثيرًا من الإشارات تبرر التناظر بينهما، والحق إن هذا النطاق الذى يمكن أن يسمى 'وسيطا' يجمع كل الأمور المرتبطة بالحج وتراث طوائف الحِرَف أو البوهيميين، وتجرى معرفة 'الحقائق الصغرى' أو قوانين المصائر بعبور 'عجلة الأشياء'، ولكن معرفة 'الأسرار الكبرى' تتطلب معرفة المبادئ المعصومة وتأملًا لا يكلّ فى 'الوحدة العلية' من النقطة الثابتة فى مركز وجود العالم المتجلى.

[9] عن الفارق بين التعميد المقدس والتعميد الملكى راجع كتابنا 'النفوذ الروحى والسلطة الزمنية'.

11 طوائف الحِرَف والبوهيميون

كتب ميليسانت *M.G. Milicent* مقالًا فى دورية ’طوائف الحِرَف‘ بتاريخ مايو *1926* ونُشِرت كذلك فى دورية وشاح إيزيس *Voile d'Isis* فى نوفمبر *1926* وقد وجدنا فيها العبارة التالية،

وكان ما أدهشنا وأثار شكوكنا ما قاله بيرنيه *C. Bernet* عن أنه رأَسَ الاجتماع السنوى فى سانت مارى ديلالا مير *Saintes-Maries-de la Mer* لانتخاب ملك البوهيميين,

وقد سبق لنا قول الشىء ذاته ولكننا لم نهتم بالاستطراد فى المسألة حينها، لكن حيث إن الأمر صار علنياً فليس لدينا ما يمنعنا من قول شىء عنها، خاصة وأنها تلقى ضوءًا على عدة أمور مهمة.

وأول أمر هو أن البوهيميين لا ينتخبون ملكًا بل ملكة، وثانيًا أن هذا الانتخاب لا يجرى سنويا، وما يجرى سنويًا بانتخاب أو بدونه ليس إلا اجتماعًا للبوهيميين فحسب فى قاعة الجناز بكنيسة سانت مارى ديلالا مير، كما أن من الممكن أن ينضم إليه بعض من ليسوا بوهيميين لفضائلهم أو وظائفهم فى تحديد الشعائر التى تُقام فى هذه المناسبة، أما ادعاء الرئاسة فأمر آخر تماما، وأقل ما يمكن قوله إنه أمر غير محتمل، وحيث إن التوكيدات المذكورة قد ظهرت منذ فترة فى مجلة *Intransigeant*، فإننا نميل إلى الظن أن الخطأ ناجم عن صحفى يبالغ كما يجرى عادة لإثارة اهتمام قرائه، وأنه جاهل إلى حدِّ التورط فى مسألة لا يدرك خطأه فيها، ولا ننوى الحديث أكثر من ذلك عن هذه المسألة، حيث إن اهتمامنا ينصب على مسألة علاقة البوهيميين بطوائف الحرف، ويستطرد ميليسانت قائلا،

إن البوهيميين يمارسون طقوسًا يهودية، ويُحتمل أن يكون لهم علاقة بما قاله بينيت *.C*

Bernet عن أن 'بنائى الحجر' غرباء عن واجب الحرية.

ويبدو أن العبارة الأولى تنطوى على خطأ آخر أو على غموض على الأقل، وصحيح أن ملكة البوهيميين تحمل اسم سارة كلقب، وهو يسبغ على القديسة الراعية المدفونة فى مدافن كنيسة سانت مارى، وصحيح أيضًا أن هذا الاسم عبرى يعنى 'أميرة'، ولكن هل يكفى ذلك مبررًا للحديث عن طقوس يهودية؟ فاليهودية دين مقصور على عرق بعينه، وليس للبوهيميين علاقة بالعرق اليهودى، ورغم ذلك ألا يحتمل أن يتماهى البوهيميون مع منظومة أسرارية ما؟

ولابد من ذكر تمييزٍ غالبًا ما يُنسى بين نوعين من البوهيمية فى الحديث عنها، والواقع أن هناك نوعان غريبان عن أحدهما الآخر حتى إنهما يصلا إلى حد العداوة، وليس بينهما علاقة إثنية ولا يتحدثا اللغة ذاتها ولا يعملا بالحرف ذاتها، فالبوهيميون الشرقيون أو 'الزنجار' يمارسون ترويض الدببه وحرفة تشكيل النحاس، والبوهيميون الجنوبيين أو الغجر الذين يسمون *Caraques* فى لانجدون وبروفانس، ويكاد يقتصر عملهم على تجارة الخيل، وهم الذين يجتمعون فى كنيسة سانت مارى ديللا مير، ويشير ماركيز بارونتشيللى يافون *Baroncelli Javon* إلى عدة سمات يشتركون فيها مع الهنود الأمريكيين، ولا يتردد بناءًا على هذه المقارنات وتفسيرهم لتراثهم فى إسباغ الأصل الاطلنطى عليهم *Atlantean origin*، وحتى لو كان ذلك افتراضًا إلا أنه جدير بالملاحظة، وهنا أمر آخر لم نجد له مرجعًا رغم أنه لا يقل عنه غرابه، فكما أن هناك نوعان من البوهيميين هناك كذلك نوعان من اليهود هما الأشكينازى والسفرديم، ويجوز القول عنهما بالاختلافات ذاتها من حيث السمات العضوية واللغة والميول، وليس بينهما علاقات ودية، ويدَّعى كلاهما أنه الممثل الوحيد لليهودية النقية سواءً من حيث السلالة أم التراث، ولا يحتكم اليهود ولا البوهيميون على لغة كاملة تخص كلًا منهما على الأقل فى لغة الحديث، فهم يتكلمون اللغة التى يعيشون بين أهلها مع خلطها بكلمات عبرية تخصهم، كم أن البوهيميون يخلطون لغة البلاد التى يعيشون فيها بكلمات اشتقوها من لغة أسلافهم ويمثلون آخر بقاياها، ويمكن تفسير هذه الخصيصة بأحوال الذين أجْبِروا على الحياة غرباء بينهم فى شتات، ولكن ما يصعب تفسيره أن المناطق التى عبر فيها البوهيميون كانت هى ذاتها المناطق التى عبر فيها الأشكينازى والسفرديم، فهل ذلك السلوك 'التبسيطى' مجرد مصادفة؟

وتدفعنا هذه الملاحظات إلى الظن بأنه حتى لو لم يكن هناك علاقات إثنية بين البوهيميين واليهود فهناك على الأقل صلات لن نتحدث عن طبيعتها ولكنها تراثية، ويؤدى بنا

ذلك مباشرة إلى موضوعنا الذى تركناه، فهل كان لطوائف الحرف التى لاعلاقة لها بالمسألة الإثنية أن يكون لها صلة من النوع ذاته سواءً أكان باليهود أم بالبوهيميين أو كليهما فى الآن ذاته؟ ولا نسعى حالياً إلى تفسير أصل هذه الصلات وأسبابها، وعلينا أن نرضى بلفت الانتباه إلى بعض النقاط، أليست طقوس طوائف الحِرَف منقسمة إلى عدة أنواع متضاربة؟ وهل كانت طرقهم فى السفر تتبع أسساً مختلفة؟ وهل يتحدثون بلغة مخصوصة قوامها اللغة المعتادة ولا تتميز عنها إلا ببعض المصطلحات كما فى حالة البوهيميين واليهود؟ ألا نستخدم اصطلاح 'رطانة' بمعنى اللغة العرضية المستخدمة بين جماعات سرية وخاصة من الطوائف؟

وأليس اليهود يطلقون اللفظ ذاته على اللغة التى يتحدثون بها؟ ومن ناحية أخرى ألا يُعرَف البوهيميين فى المناطق الريفية التى يجوبونها بأنهم 'رُحَّل' على منوال يخلط بينهم وبين الدلالين، وهل يسرى المصطلح ذاته على الحرفيين كما نعلم؟ وأخيراً ألا يمكن أن تكون أسطورة 'اليهودى الجوال' مثل كثير غيرها من أصول حرَفية؟

ولا شك فى أننا يمكن أن نضاعف علامات الاستفهام تلك إلا أننا نعتقد أن فى هذا ما يكفى، وأن البحوث المكرَّسة لهذا الموضوع يمكن أن تلقى ضوءًا على بعض هذه الأحاجى، ولو كان هناك سبب مُلحّ فربما عدنا إليه لنضيف معلومات تكميلية، ولكن هل حرفيو هذا الزمن يهتمون بكل ما يمس تراثهم؟

12 هيريدوم

بعد أن طالعنا بعض الملحوظات عن كلمة ’هيريدوم‘ التى تطرح بعض التفسيرات عن أصولها ولكنها لم تطرح استنتاجا، ويبدو لنا أن جمع بعض الملاحظات عن هذه المسألة لن يخلو من فائدة، ونعلم أن الكلمة الملغزة تكتب أحيانًا ’هيرودوم‘ أو بطرق أخرى تبدو لنا غير صحيحة، وتطلق هذه الكلمة على مرتبة ماسونية مرموقة وبالتالى على طقس التعميد الذى تترتب عليه وظائف هذه المرتبة بعناصرها المميزة، وتبدو كلمة *Heredom* للوهلة الأولى تصحيفًا لكلمة *heirdom* بمعنى ميراث فى المحفل الاسكتلندى الملكى، وقد يكون ذلك الميراث هو تراث فرسان المعبد الذين لجأوا إلى اسكتلندا بعد تحطيم محفلهم، ويقال إنهم قوبلوا بترحاب الملك روبرت بروس *Robert Bruce*، ومن ثم أقاموا المحفل الأم فى كيلوينج[1] *Kilwinning*، إلا أن هذا التأصيل لم يصل إلى تفسير كل شيء، وربما كان معناه ثانوى ناتج عن تزيّدٍ صوتى وتشابه للكلمة جعلها مختلفة تمامًا عن أصلها المفترض.

ويمكن قول الأمر ذاته عن افتراض أنها سليلة التعبير اليونانى *domus* *hieros* بمعنى ’موئل مقدس‘، وليس هذ أيضًا بلا معنى، ويمكن حتى أن يكون أقل ميلًا إلى الاعتبارات ’الظاهرية‘ أكثر من التلميحات التاريخية، لكن هذا التأصيل محاط بالشكوك، ويذكرنا بتأصيل آخر يدَّعى أن أصل كلمة *Jerusalem* هو الكلمة اليونانية *Hieroslema* فى حين أنها اسم عبرى صرف بمعنى ’أرض السلام‘، أو لو أننا اتخذنا جذرًا مختلفًا مثل يارا *yara* بدلًا من ياراه *yarah* بمعنى ’شهود السلام‘ لذكَّرنا ذلك بتفسير آخر لرمز طبقة العقد الملكى بثلاث تاءات،

---

[1] ويبدو وضع تراث أسرة ستيوارت كما أراد راجون أن يفعل بلا نفع حتى لو كان صحيحا أن البعض قد فعل، ولم يفلحوا إلا بشكل عرضى، وسوف يكون من المستحيل أن يكون حيرام هو تشارلز الأول.

والتى تبدو كما لو كانت منطبقة على حرفى *TT* و حرف *H* بما يعطى تعبير *Templum Hierosolymce*، أما للذين يفترضون هذه الفرضية فإن *domos hieros* المذكورة تعنى معبد أورشليم، ولا نرغب بالتأكيد فى قول إن المقارنات من هذا النوع سواءً أقامت على الحروف الساكنة للكلمات أم على تشكيل الحروف والرموز ليست بحاجة إلى معنى أو تبرير، فبعضها يثير الاهتمام وله جِرسٌ تراثى قيِّم، لكن من الواضح أننا لا بد أن نحذر من اختلاط هذه المعانى الثانوية التى يمكن أن تتكاثر بالمعنى الأصلى، وهى كلمة يمكن أن ينطبق عليها مبدأ 'التأصيل *etymology*'.

وربما كان فريدًا فى هذا الشأن دعوى أن *Heredomhas* اسم جبل فى اسكتلندا، ولكن جبلًا بهذا الاسم لا وجود له فى اسكتلندا ولا فى أى بلد آخر، لكن فكرة الجبل عمومًا لابد أن ترتبط بمعنى 'الموقع المقدس'، والتى تعيدنا دائرة كاملة إلى اسم *domos hieros*، ولا يقع هذا الجبل المفترض فى اسكتلندا دائمًا وإلا استحال تصالحه مع الطقوس التى تجرى فى الماسونية الأدونحيرامية *Adonhiramite Masonry*، والتى كان المحفل ينعقد فيها،

"فى عمق الوادى حيث يعم السلام والفضائل والحقائق والتوحد بين جبال موريا وسيناء وهيريدوم"، كذا..

ولو عدنا إلى الطقوس القديمة للماسونية العاملة التى تشكل بالتأكيد 'مصدرًا'[2] أوثق وأكثر أصالة فلابد أن نراعى أمرًا يجعل هذا التوكيد أشد غرابة فى أن هذه الجبال الثلاثة هى جبال سيناء و موريا و طابور، وهذه 'المواقع العالية' يقيم فيها رؤساء المحفل الثلاثة، وأن الأخير منهم يمكن أن يكون متصلًا بالوادى الذى يقع بين الجبال الثلاثة، وتُناظِر بوضوح تتابع وحى موسى و داود و سليمان، ونعلم أن جبل موريا تلًا فى أورشليم أقيم عليه المعبد، ويمكن أن نفهم ارتباط هذا التتابع، ولكن كيف ومتى وحيث حدث ذلك التبديل من *Heredom* إلى *Thabor*؟ وحيث إننا لا نحتكم على الوقائع اللازمة فسوف ننكص عن حل هذا اللغز، ولكننا نشير إليه فحسب.

---

[2] ونجد فى الطقس 'الآدونى الحيرامى *Adonhiramite ritual*' بعض الأمور الغريبة مثل تغيير شكيناه إلى ستيكينًّا، والتى قد تكون من جراء جهل الناسخ فى نقل الوثائق القديمة، وهو ما يقطع بضرورة الحذر فى الرجوع إلى تلك الوثائق.

ولنعد إلى أصل كلمة *Heredom*، ومن المهم مراعاة أن 'المحفل الاسكتلندى الملكى' قد اعتاد أن يكتب بعض الكلمات بحروفها الساكنة فحسب على منوال العربية والعبرية، وعليه تُكتبَ الكلمة هكذا *HRDOM*، ومن نافلة القول إن التشكيل بعلامات التنصيص قد يختلف، و هو ما يفسر الاختلاف الإملائى الذى ليس خطئًا عرضيًا، فيمكن بالطبع أن تُقرأ *Harodim*، وهو اسم أحد المراتب العليا فى الماسونية[3]، وهو ما يمكِّن من ممارسة وظيفة رئيس العمل[4]، ولذا كان اسم هاروديم مناسبًا لترسيم المرتبة العليا، كما كان ما يبدو محتملًا بناءً على هذا السبب أنه لابد كان أقدم اسم معروف لماسونية الصليب الوردى.

[3] وقد كان الأخير فى مرتبة الرفيق كما فى ماسونية 'المقبولين'، أما آندرسون فالأرجح أنه تلقى تعميدا خاصا ورتبة 'قسيس خاص *Chaplain*' فى محفل جاكين *Jakin*.

[4] وربما وجدنا شيئا من بقايا هذه التسمية فى المرتبة الثامنة *'Steward of Buildings'* فى المحفل الاسكتلندى القديم المقبول.

13 رمزية المسيح والقلب المقدس فى الطوائف القديمة

نُشِرت مقالة تسجيلية بقلم ديونَّا *W. Deonna of Geneva* بعنوان 'أسلحة بزخارف وطلاسم تنجيمية *'Armes avec motifs astrologiques et talismaniques'* فى دورية *Revue del Histoire des Religions* عدد يوليو- اكتوبر *1924*، ويعرض علامات ظهرت على أسلحة ويقارنها برموز تضاهيها، وخاصة ' برمز الأربعة *quatre de chiffre*'[1]

وقد استخدمت عادة فى القرن السادس عشر والذى تلاه[2] فى شعارات على بيوت الأسر ويضعونه على دروعهم.

ويقول إن هذه العلامات حمَّالة لكل أنواع التكوين من الصليب إلى الكرة الأرضية إلى القلب إضافة إلى شعارات المُلَّاك، ويطرح رسومًا لعدد من الأمثلة، ونعتقد أنها كانت 'شعارا للأستاذ' كما هى عادة كثير من الطوائف، والتى تنتمى عائلاتها وأفرادها إلى طائفة على منوال وراثى.

ويذكر ديونَّا بإيجاز أصول هذه العلامات ومعانيها، فيقول

---

[1] ولا يُترجم تعبير *quatre de chijfre* على نحو مباشر، لكن المراجع المعتمدة تذكر أن معناه الأولى 'فخ للحيوانات الصغيرة'، ويعرف فى الانجليزية باسم *'figure four trap'*، وذلك نظرا لأن العصى فيه تتخذ شكل عدد *4*، وحيث إن جينو يستخدم هذا الرمز بمعنى مختلف فسوف نحتفظ بالاستخدام الفرنسى للمصطلح. المحقق.

[2] وقد كانت العلامة ذاتها تستخدم بالمعنى ذاته فى القرن الخامس عشر فى فرنسا على الأقل، وخاصة كعلامة تجارية لمهنة الطباعة وبيع الكتب.

لقد اشتقها جوسيلين *Jusselin* من شعار قسطنطيني وترجمه على نحو مشوه فى الوثائق الموروفية والكارولينية[3]، لكن هذه الفرضية تبدو تعسفية ولا تنطوى على تشاكل يفرض نفسه.

لكننا لا نرى هذا الرأى، ولابد أن يكون العكس صحيحا، فمن الطبيعى تصنيفها على هذا النحو حيث إننا نفعل ذلك دائما حتى بلا علم عن وجود دراسات عنها، كما أننا لن نعتبرها أمرًا لا يُدحض، وتبدو لنا برهانا على ذاتها، ولكن لنستمر ونرى ما إذا كان هناك تفسيرات أخرى لها،

فهل يكون رقم *4* العربى مستبدلا برقم لاتينى بخط أوروبى من القرن الحادى عشر؟ أم هل نفترض أنه القيمة الأسرارية لرقم *4* الذى يعود إلى زمن غابر وحفظه المحدثون؟

ولا يرفض ديونًّا هذا التفسير ولكنه يفضل تفسيرا آخر يفترض "إنه علامة من علم النجم ترمز إلى المشترى".

والحق إن هذه الفرضيات لا تستبعد بعضها البعض، ففى هذه الحالة كما فى حالات أخرى قد يحدث انطباع أو حتى انصهار لعدة رموز فى رمز واحد يُعزى إليه عدة معانٍ، وليس فى ذلك ما يدهش حيث قلنا سلفا إن فى الرمزية عدة معان كامنة يبرز فى أحدها أعظم مميزات التعبير عنه، لكن لابد من القدرة الطبيعية للتعرف على المعنى الرئيسى بينها، وهنا نُصرّ على أن المعانى تُسبَغ بناءً على التماهى مع الرمز الأعظم[4]، فى حين يظل غيره مرتبطا به على نحو ثانوى.

ومن المؤكد أن هناك رموز تنجيمية بعينها للمشترى وأهمها شكل *1*، ويوحى شكله العام برقم *4* العربى، كما أنه على صلة بفكرة 'الأستاذية'، وهو أمر سنعود إليه لاحقا، لكن هذا الجانب من الرمزية يُعَدُّ على أهمية ثالثة، ولنلاحظ أن أصل رمز المشترى موضع شك، حيث يراه البعض تعبيرا عن الصاعقة، ويراة البعض الآخر تعبيرا بالحرف الأول عن زيوس.



شكل 1

شكل 2

[3] 'Origin

[4] The monogram of Ch

ويبدو لنا من ناحية أخرى أن ما سماه ديونًّا 'قيمة أسرارية' لرقم *4* أمر لا شك فيه، وقد كان له دور أكثر أهمية، ونعتبره الثانى فى هذه الرموز المعقدة، كما نلاحظ فى هذا الصدد أن رقم *4* على شكل صليب تتصل قمته بذراعه الأيسر بخط مائل فى شكل *2*، وقد كان الصليب فى الزمن القديم عند الفيثاغوريين على الأخص رمزا للتربيع، ولابد أن يكون ارتباط الصليب برمز المسيح قد استقر تلقائيا على نحو طبيعى تماما.



شكل 4



شكل 3

وتعيدنا هذه الملحوظة إلى رمز المسيح *the Chrisme*، ونقول أول الأمر إن من الصواب التمييز بين ما يسمى الرمز القسطنطينى للمسيح وعلامة راية قسطنطين الأكبر *Labarum* وبين ما يسمى الرمز البسيط للمسيح فى شكل *3*، ويبدو لنا رمزا أصوليا اشتُقَّت منه رموز كثيرة بشكل مباشر، ويتكون من توحد حرفى *I* و *X* ، أى الحرفان الأولان فى التعبير اليونانى *Iesous Christos*، وأن ذلك هو المعنى الذى يتغياه الرمز منذ بداية المسيحية، ولكنه أبعد قِدَمًا من هذا التاريخ حيث إنه كان واسع الانتشار فى كل العصور، وهنا مثل على تطويع المسيحية لرموز الأساطير التى سبقتها، والتى أشرنا إليها سلفا فى أسطورة الكأس المقدس *Holy Grail*، ويرى الذين اتفقوا معنا أن الرمز من بقايا التراث الأولانى، وأن التعديل فى المخطط مشروع بل ضرورى، فأسطورة الكأس المقدس من أصل كلتى، وقد تصادف اتفاق واضح بين الرمز

الذى نتحدث عنه الآن عند الكلتيين وبين العنصر الجوهرى فى 'العجلة' شكل *4*، والذى كان مسئولا عن انتشاره فى العصر الوسيط، ومن المحتمل أن له قرابة بنوافذ الكاتدرائيات[5]، والواقع أن هناك صلة بين شكل العجلة وبين الرموز الزهرية بمعانيها الشتى على منوال الوردة وزهرة اللوتس اللتان تناولناهما فى مقال أسبق، لكن ذلك سينبو بنا عن موضوعنا الحالى، أما المعنى العام للعجلة الذى يقصره المحدثون عليها فهو أنها رمز شمسى فحسب، ويعنى هذا النمط من التفسير استخدام الرمز وسوء استخدامه فى كل الأحوال، ولكننا نقول بلا توكيد أنه معنى آخر بالكلية، وأنها أولا رمز للعالم كما برهنت دراسة الأيقونية الهندوسية، وفى سياق الحديث عن العجلة الكلتية[6] فلنشر إلى أن الأصل شكل *6* بالمعنى ذاته قد يكون الشعار الذى يحتل مساحة جسيمة فى العلم البريطانى، ويختلف عن العجلة فى أنه مرسوم فى مستطيل لا فى دائرة، والذى يأمل الرجل الانجليزى أن يراه شعارًا لامتياز قوات بلاده البحرية[7].

وهنا نذكر ملحوظة مهمة تتعلق برموز الفروسية، ويكاد يكون رمز المسيح البسيط قاسمًا مشتركًا يجمع إليه معظم الرموز، مثل حينما ننظر إلى النسر أو أى طائر لا يصعب التعرف على ترتيب أطرافه من الرأس والذيل والجناحين والقدمين وتناظرها مع النقاط الستة فى شكل *3*، ولو نظرنا إلى شعار الوردة *fleur-de-lis* لرأينا الشيء ذاته، ثم إن الحالة الأخيرة للوردة تحتوى على ست بتلات، وربما كانت أصلًا رأس حربة أو طائر أو نحلة، وقد كان الشعار الملكى عند الكلدانيين المقطع المقدس 'سار' أو حتى ضفدع[8]، ويحتمل أنه نتج عن تركيب عدة أشكال منها، لكنه فى كل الحالات يفى بغرضه ويتسق مع المخطط المذكور.

---

[5] *In a previous article Deonna himself recognized a relation between the 'wheel' and the Chrisme ('Quelques reflections sur le Symbolisme en particulier dans l'art prehistorique', in the Revue de l'Histoire des Religions, January-February 1924). We were all the more surprised to see him later deny the relationship, even though it is more visible, between the Chrisme and the 'quatre de chiffre'.*

[6] هناك نوعان رئيسيان للعجلة، أحدهما بستة برامق فى شكل *4*، والآخر بثمانية برامق فى شكل *5*، ولكل من هذين العددين سبب لوجوده ومعناه، ويرتبط ثوب العماد *Chrisme* بالرمز الأول، أما الثانى فيشكل زهرة اللوتس الثمانية الهندوسية..

[7] ونجد صورة العجلة على نحو باهر فى الشعارات المرسومة على الدروع وتحمل الشكل الاستعارى آلبيون *Albion*.

[8] وقد كان هذا الشكل الغريب مقبولا كما يبدو فى الأزمان القديمة، فقد وجد على مطرزات االقرن الخامس عشر فى كاتدرائية ريمز *Rheims*.

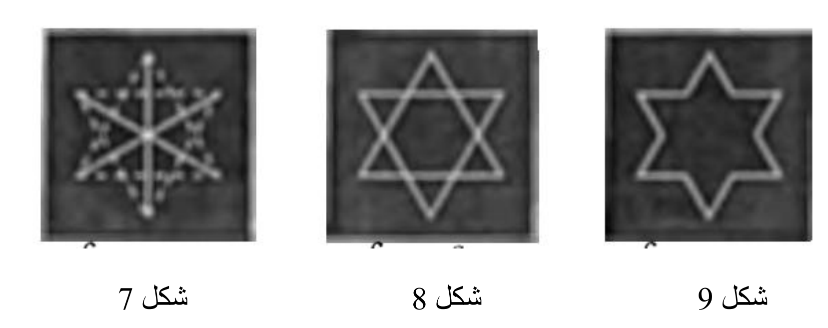


شكل 6



شكل 5

و قد كان أ حد ا سباب هذه الخا صية أهمية المعنى المرتبط برقم *6*، فليس هذا الرمز الهندسى إلا مناظرا لهذا الرقم، وإذا كانت نهاياته تتصل اثنين اثنين فى أشكال *7* و *8* و *9* ذو المثلثين فى شكل *8* فقد كان يُعزى إليه اسم 'خاتم سليمان'[9] ويتردد هذا الرمز كثيرًا بين اليهود والعرب، وهو كذلك شعار مسيحى كما أشار لاسّي *Charbonneau-Lassay*، كما كان أحد الرموز القديمة للمسيح *Chrisme*، وكان له رمز آخر هو النجمة السداسية شكل *9*، وليست إلا تنويعًا منه، كما أن رمز المسيح ذاته سبب آخر للصلة الوثيقة بينهما، ومن الأمور الأخرى كانت الهرمسية المسيحية ترى فى المثلثين المعكوسين المنطبقين رمزًا لتوحد الطبيعتين الربانية والإنسانية التى تعكس أحدهما الأخرى فى شخص المسيح، كما أن رقم *6* ينطوى فيه معان للتأمل تناسب تمامًا الكلمة التى 'تجسَّدت'، ويناظر فى القبالة العبرية عمل الأيام الستة، أما عن عزوه إلى رمز الكلمة فليس أقل من ذلك تبريرا، فهو يعمل كترجمة شكلية للوسيط بين السماء والأرض *Mediator between Heaven and Earth*.[10]



شكل 9 شكل 8 شكل 7

---

[9] يسمى هذا الشكل أحيانا 'درع داود' وأحيانا 'درع ميكائيل'، وقد يوحى الاسم الأخير بعدة خواطر واعتبارات مهمة.

[10] وتمثل العجلة ذات الستة برامق فى الصين رمز 'للكلمة'، كما تمثل الحد الأوسط فى 'الثلاثى الأعظ

شكل 6 شكل 5

وما يستحق الإشارة من منظورنا الراهن هو أن المثلث المزدوج قد اختير فى القرن السادس عشر وربما أسبق من ذلك شعارًا لبعض الطوائف خاصة فى ألمانيا، وأنه أصبح شعارًا لحانات ومقاهى قيل أنها تتبع الطوائف المذكورة حيث كانوا يعقدون فيها ندواتهم[11]، وأصبحت علامة عامة شائعة تولد عنها 'رموز الأربعة *quatre de chiffre*' التى ظهرت على شعارات شخصية يتسم بها كل مالك، ولكن افتراض قرابة بين الأوائل والأواخر ليس منطقيًا كما ذكرنا عن علاقة رمز المسيح بشعار المثلث المزدوج.



شكل 13 شكل 12 شكل 11

ويبدو شعار الكلمة القسطنطينى فى شكل *10* كما لو كان اندماجًا للحرفَين اليونانيين *X* و*P* وهما الحَرْفَان الأولان من رمز المسيح، ويحتمل أنه اشتقاق مباشر من الرمز البسيط الذى يحتفظ منه بالترتيب الأصلى، ولا يختلف عنه إلا فى تحويل حرف *I* إلى *P* ، ولو اعتبرنا 'رمز الأربعة' بأبسط أشكاله فإنه يتماهى مع الشعار القسطنطينى على نحو لا يُنكَر، ومما يلفت النظر أن رقم *4* أو العلامة التى تتخذ شكلها يمكن أن تكون تحريفًا لحرف *P* تتجه إلى اليمين فى شكل *11* لا إلى اليسار فى شكل *12* على نحو عشوائى[12]، كما نجد عنصرًا رمزيًا ثانيًا لم يوجد فى الشعار القسطنطينى، ونعنى به شكل الصليب الذى يظهر على نحو طبيعى بتحويل حرف *P* إلى *4*، وغالبًا ما تتأكد العلامة بإضافة خط أفقى فى شكل *13* إلى خط رأسى فى شكل *14*،

---

[11] ونذكر فى سياقنا واقعة لا تكاد تُعرف عن أسطورة فاوست التى تنتمى إلى الحقبة ذاتها تحتوى على طقس تعميد الطبَّاعين..

[12] *The figure 12 is given by Deonna with this caption: 'Marque Zacharire Palthenii, imprimeur, Francfort, 1599,'*

وهو ما يشكل نوعاً من الازدواجية للصليب كما يبدو فى الشكلين اللذين اقتبسناهما من ديونَّا[13]، ولاحظ أن الثانى منهما قد أخفى الجزء الأسفل من رمز المسيح واستبدله بشعار شخصى، كما أنه استُبدل بعدد من الشعارات المتنوعة، وربما كان ذلك ما أثار الشكوك حيال هوية العلامة التى ظلت قائمة فى كل تلك التغيرات، وندفع بأن العلامات التى تحتوى على رمز المسيح الكامل تمثل الشكل الأصلى، فى حين أن الأخرى لا تعدو تعديلات متأخرة له، وربما لم يكن بلا معنى أن يختفى تماماً عن الأبصار، ولكن يبدو عنصر الصليب فى حالات بعينها وقد انتقل إلى الأمام، ويبدو نتيجة لاختلاط رمز الأربعة برموز أخرى، وهى النقطة التى ننتوى تناولها فيما يلى.



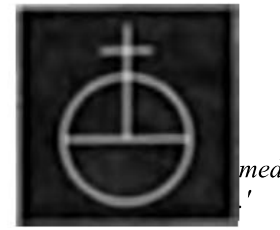
شكل 14



شكل 13

ويبدو من بين العلامات المذكورة تطريزا من القرن السادس عشر محفوظ فى متحف شارتر فى شكل *15*، والذى لا يترك مجالاً للشك، فلم يكد يختلف عن الكرة الأرضية فى شكل *16*، وهو رمز هرمسى لمملكة المعادن يعلوه صليب، وقد اتخذ رمز أربعة ببساطة موضع الصليب[14]، وترمز الكرة الأرضية بالضرورة إلى القوة الروحية والزمنية معاً، وهى علامة مميزة للمقام الامبراطورى، كما أنها دائماً ما وجدت فى يد المسيح، ولا ترمز فقط إلى الجلال الربانى كما يتجلى فى الآخرة بل كانت أيضاً فى يد المسيح طفلا، وهكذا حلت العلامة محل رمز المسيح بحيث يمكن القول إجمالاً إنها صفة أخرى له، ونتذكر هنا العلاقة بن رمز المسيح و'العجلة' فى شكلى *15* و *16* لعجلة العالم، وفى الآن ذاته تبدو فكرة 'الأستاذية' متعلقة بشكل مباشر بالصفة الجديدة كما فى رمز المشترى *Jupiter*، ولكنها رغم ذلك لم تفقد قيمة الصليب الرمزية، ولا تسمح المقارنة بين الشكلين بأى تردد فى هذا المعنى.







[13] *Figure 13,'Mark ... med pastor of Satign... .'*

[14] *We have also seen this sign of the 'Globe of the World' in several printers' marks from the beginning of the sixteenth century.*

شكل 15 شكل 16

وأخيرًا نأتى إلى مجموعة العلامات التى دفعت بنا إلى إجراء هذه الدراسة، والنقطة الجوهرية فى الاختلاف بين هذه العلامات وبين ما تقدم منها هو تحويل دائرة العالم إلى شكل القلب، ومن العجيب أن تظل مرتبطة بها، وينقسم القلب فى شكلى *17* و *18* بخطوط على المنوال الذى تميزت به عجلة العالم[15].

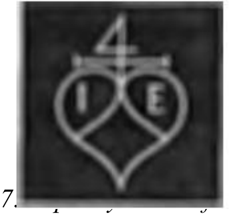


شكل 17



شكل 18

ألا يشير ذلك إلى درجة من التساوى فى بعض الجوانب على الأقل؟ وألا يكفى ذلك ليعبر هنا عن مسألة 'قلب العالم'؟ ونجد فى أمثلة أخرى أن الخطوط المستقيمة قد تحوالت إلى منحنيات كما لو كانت تعبر عن دائرة تحيط بالحروف الأولى فى شكلى *19* و *20*، لكن هذه العلامات تبدو أحدث من سابقتها[16] حتى لربما كانت تعديلًا لها يتغيا إضفاء طرازٍ زخرفيٍ أكثرَ ونمطًا هندسيا أقل، وهناك تنويعات أشد تعقيدًا حينما يُحاط الرمز الرئيسى بعلامات ثانوية لا تغير من معناه، ويجوز الاعتقاد بأن النجوم ترمز إلى الطبيعة السماوية الجديرة بها[17] فى شكل *21*، وفى رأينا أنها تعنى قلب المسيح فى كل هذه الحالات، ونعتقد باستحالة استلهام معنى آخر حيث يعلو الصليب هذا القلب، وحتى إن الصليب يزدوج بالخط الأفقى لرقم *4* .



شكل 19

شكل 20



شكل 21

[15] *Figure 17.* ... *8: 'Master's mark of* ... *, 1609.'*

[16] *Figure 19.* ... *indow of the seventeenth century.' Figure 20: 'Master's mark of Jacques Morel, on a pewter plate, Geneva, 1719.'*

[17] *Figure 21:'Master's mark of Pierre Royaume, on pewter plate, Geneva, 1609.'*

ونشير الآن إلى توازٍ عجيب فى شكل *22* مع رمزين هرمسيين لمثلثين يشير أحدهما إلى أسفل ويرمز إلى الماء ويشير الآخر إلى أعلى ويرمز إلى النار، وليس المثلث فى الوضع المقلوب لعنصر الكبريت الخيميائى، والذى اتخذ اتجاهه الصحيح فى شكل *23*، لكن المثلث المقلوب يتساوى مع القلب والكأس كما أشرنا سلفا، ومن ثم ينفصل عن معنى الماء الخيميائى، فى حين أن المثلث الذى يشير إلى أعلى يرمز إلى النار، ومن بين المعانى التى أسبِغت على الماء فى الأديان المختلفة يهمنا هنا مفهوم البركة وتجدد الخلق الذى يترتب عليه.

ولنتذكر ماء التعميد المقدس والينابيع الأربعة فى الفردوس الأرضى، وكذلك الماء الذى تسرب من قلب المسيح ليصبح موردًا لا ينضب للبركة، وأخيرًا فإن ما يؤيد هذا التفسير هو انقلاب رمز الكبريت الخيمائى إلى معنى تنزيل النفوذ الروحى إلى ’الحياة الدنيا‘، أى فى الحياة الإنسانية على الأرض، وهو ’الندى الربانى‘ الذى ذكرناه فى أحد أعمالنا[18]، وهذه هى الرموز الهرمسية المذكورة ، ولا بد من التسليم بأن هذا هو التفسير الصحيح على خلاف ما يدَّعية بعض المعاصرين.



شكل 23



شكل 22

ولنرجع إلى مسألة طوائف الحِرَف حتى نصوغ بإيجاز النتائج التى ترتبت على ما تقدم، ونعتقد فى المقام الأول أننا برهنَّا على أن رمز المسيح *the Chrisme* كان النموذج الأصولى لهذه العلامات التى انبثقت عنه، والتى تستقى منه معناها المبدئى، وثانيًا أنه حينما تستبدل بعضها

[18] وقد جاء شكل *24* من شاهد قبر فى جنيفا، وهو ذاته الرمز الهرمسى بما فيه الحروف، أما شكل *23* فإنه تعديل له، وقد قال عنه ديونا "لقد كان مفتاح العقد فى منزل فى ضاحية مولار فى جنيفا هُدِم عام *1889*، وكان على لافتته أنه بنى عام *1576*"..

القلب برمز المسيح وتستبدل بعضها الآخر برموز أخرى تتصل بالمسيح مباشرة أليس لنا الحق فى التوكيد على أن هذا هو قلب المسيح على الحقيقة؟ ثم إننا كما نوهنا سلفًا نرى واقع أن هذا القلب حين يعلوه الصليب أو علامة مكافئة أخرى أو كليهما معا، نقول إنها تأييد لهذا المنظور بما لا يقبل الشك، فلا نرى كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، ولا كيف يتأتى لنا تفسيرها على نحو معقول، وأخيرًا أليست الفكرة المدونة فى اسم المالك بالأحرف الأولى هى ذاتها فكرة قلب المسيح التى كانت جديرة بالإيمان فى الأيام الخوالى؟[19]



شكل 25



شكل 24

ونختم هذه الدراسة بهذه الفكرة الأخيرة، ونرضى بتوضيح بعض النقاط التى تهم الرمزية الدينية عمومًا فحسب، والتى عبرت عنها أيقونية القلب المقدس، وإلهامها الذى حل علينا من مصدر لم نتوقعه، ونأمل أن نجد من قرَّائنا من يكمل عملنا بالإشارة إلى وثائق أخرى من النوع نفسه، ولا نشك فى أن هنا وهناك عددًا لا بأس به من الذين يشكلون معًا شهادات ذات أثر.

[19] ويجب أن نراعى أن معظم العلامات المطروحة التى اقتبسناها من ديونا *Deonna* كانت أصلا من جنيفا *Geneva*، ولا بد أن تكون بروتستانتية، لكن ذلك لا يثير الدهشة لو تذكرنا قسيس كرومويل الخاص توماس جودوين *Thomas Goodwin*، الذى أهدى كتابه إلى 'قلب المسيح'، ويسرنا أن نرى البروتستنت يشهدون للقلب المقدس..

14 شعارات الأعمال ومعناها العام

يبدو أن مقالنا عن شعارات الأعمال القديمة[1] قد أثار اهتمام عدد من قرائنا وسوف نعود الآن إلى هذا الموضوع غير المطروق لنطرح تأملات وردت إلينا من دوائر عدة، وبينت لنا فوائدها.

ونقول أولًا إن الملاحظات الختامية عن البنائين والجارين والرموز الهرمسية التى ارتبطت بهم قد نالت تأييدًا وتوكيدا، وقد كان الخصائص التى وردت فى مقالة طوائف الحرف *Compagnonnage* قد نشرت فى الوقت ذاته مع هذه المقالة التى نقتبس منها ما يلى،

> بعد أن بلغت المسيحية ذروتها احتاجت إلى أسلوب لتشخيص فكرها، فاستبدلت القبة والعقد البسيط والبرج الجسيم بالأبراج الرشيقة والعقود القوطية التى تطورت بسرعة فائقة، وقد كان هذا زمن تأسيس البابوية لجامعة الفنون فى روما حيث اجتمع فيها تلامذة البنائون من أديرة كل البلاد، وقد أسست هذه الصفوة أستاذية عالمية، حيث ارتادها الجارون والبناؤون والنحاتون والنجارون وغيرهم من أصحاب الحرف الفنية ليتعلموا مفاهيم العمارة التى أسموها 'العمل الأعظم'، وقد أنشأ اجتماع كل هؤلاء الأساتذة الأجانب جمعية رمزية، وجعلوا رمز المسطرين يعلوه الصليب الذى يمتد من ذراعية المثلث القائم الزاوية والبرجل شعارًا عالميا[2].

وقد كان المسطرين الذى يعلوه الصليب رمزًا هرمسيًا أوردناه فى شكل *22* من باب رمزية المسيح والقلب المقدس فى الطوائف القديمة فى هذا الكتاب، وقد اتُخِذ المسطرين

---

[1] ظهرت هذه المقالة فى مجلة *Regnabit* فى عدد نوفمبر *1925*، وهى الباب الثالث عشر فى هذا الكتاب. المحقق.

[2] أوجست بونفو *Auguste Bonvous 'La Religion de I' Art'* فى *Voile d'Isis*، العدد الخاص عن طوائف الحِرف، نوفمبر *1925*. .

شعارًا للثالوث المقدس الذى يدير العالم *Sanctissima Trinitas Conditor Mundi*[3]، كما يبدو أن الطوائف القديمة قد أكدت على عقيدة التثليث، وكانت معظم وثائقهم تبدأ بصيغة "باسم الثالوث المقدس الذى لا ينقسم"، وحيث أننا أشرنا إلى تماهى رمزية المثلث المقلوب مع القلب[4] فإننا نضيف أن معنى التثليث كذلك يرتبط به، ونجد فى الرسم الذى صممه كالوت *Callot* برهانًا على أطروحة الأب أنيزان *Fr Anizan* فى ديسمبر *1922*، ويفتتح المقال بتكوين شكلى لقلب المسيح يحتوى على ثلاثة حروف أيود هى الحرف الأول من اسم يهوى *Jehovah* العبرى، كما أن هذه الحروف ذاتها تعتبر اسمًا ربانيًا يرمز إلى التثليث[5]، وكتب الأب أنيزان ما يلى،

> إننا نتعبد اليوم لقلب عيسى ابن الأب الخالد، والذى يوحِّدُ جوهرية كلمة الرب، ويتكون من الروح القدس فى رحم مريم العذراء، فكيف لنا أن نتعجب عام *1625* من صلة النسب الشريف لقلب عيسى المسيح بالثالوث المقدس؟ وقد رأى لاهوتيو القرن الثانى عشر أن هذا القلب هو ’قدس الأقداس‘، و ’عقد الإنجيل[6]‘، وهذه الحقيقة لا يمكن أن تضيع، ويحمل نطقها دعامة الروح، ولن تضيع مطلقًا، ونقرأ من جريدة ظهرت فى أنفير *Anvers* عام *1616* هذه الصلاة الجميلة "ياقلب عيسى الجميل حيث يوجد كل ما هو خير، إنك جسد الثالوث المعبود، إننى أسِرُّ إليك مؤمنًا بأنك تعيدنى إلى ذاتى حقا"، وتأتى عبارة ’ الثالوث المعبود‘ هنا فى موضعها، فهى قلب الحروف الثلاثة، ويعبر عنها التكوين الذى رسمناه عاليه، والذى يعبر باختصار عن هذا القلب هو جسد الثالوث ومبدأ النظام *Prcedestinatio Christi est ordinis origo*.

---

[3] تنطوى كلمة *Conditor* على تنويه عن رمزية ’حجر الزاوية‘، كما تنطوى خاتمة المقال ذاته على صورة عجيبة للثالوث حيث يحتل المثلث المقلوب مركز الأهمية.

[4] راجع ’رموز العلم المقدس‘ أبواب *30* و *31* و *72*. المحقق.

[5] وحروف الأيود الثلاثة تتوسط قلب المسيح على ترتيب تنازلى *3* و *2* و *1*، بحيث تناظر مثلثا مقلوبا، ويمكن ملاحظة أن الترتيب ذاته مألوف فى النقش على صدر لأمة الزرد، وعلى الخصوص فى الزهرات الثلاثة لملك فرنسا..

[6] ولهذه المفاهيم علاقة قرابة بمسألة ’المراكز الروحية‘ التى تناولناها فى دراستنا عن الكأس المقدس *Holy Grail* فى كتابينا ’نظرات فى الجوانية المسيحية *Insights into Christian Esoterism*‘ باب *8*، و’رموز العلم المقدس‘ باب *4*، وسوف تتضح هذه المسألة أكثر من ذلك عندما نأتى إلى رمزية القلب فى التراث اليهودى.

ولا شك أننا نجد فى ذلك سانحة للعودة إلى جوانب أخرى لهذه الرمزية، وخاصة عن المعنى الأسرارى لحروف أيود، ولكننا نرغب هنا فى طرح المقارنات التالية.

و قد عبر كثير من ا لذين يؤ يدون مقصدنا فى ا ستعادة معنى الر موز الأ صلية القديمة، وعبروا فى الآن ذاته عن رغبتهم فى رؤية الكاثوليكية تتبنى كل الرمزيات التى تنتمى إليها حقًا، وبما فيها المثلثات التى أنتجتها منظمات مثل الماسونية، والفكرة فى حد ذاتها سليمة وتناظر ما نعتقد به، لكن هناك غموضًا وأخطاء تاريخية فى بعض العقول ويحسن تصحيحها.

والحق إن كثيرًا من الرموز ليست مقصورة على 'الماسونية' كما أشرنا فى مجلة أكاسيا عدد ديسمبر *1925* ص.*26* حتى لو كا نت شعارات 'معمار ية' على منوال الزاو ية والبر جل فقد كا نت مشتركة بين كثير من الطوائف وتكاد تكون جميعها[7]، ناهيك عن ا ستخدامها كرمزية هرمسية صرف[8]، فالما سونية تستخدم الر موز بمعنى مختلف من الناحية الشكلية على الأ قل، لكن رغم ما يعتقد البعض فإنها لم تقتبسها لكى تغير من معناها الحقيقى بل تلقتها شأنها شأن غيرها من الطوائف، فقد كا نت فى الأ صل أ حدها ولم تكن على الا ختلاف الذى أ صبحت عليه اليوم، وحفظتها رغم أنها نسيت معانيها ومفاهيمها منذ حقبة من الزمن.

و كل شيء يؤكد أن الما سونية العا مة فرع منفصل وربما كان فاسقًا عن السياق القديم الرصين كما قال مايستر *Joseph de Maistre*،[9] ولا بد للسؤال أن يُرى من هذا المنظور، فعادة ما نكون مخطئين عند التفكير فى الماسونية الحديثة وننسى أنها ليست إلا نتيجة انحراف، ويبدو أن المسئولان الأو لان عنه كا نا القسيسين البروتستنتى أندر سون *Anderson* و ديساجوليه *Desaguliers* اللذين كتبا دستور المحفل الأعظم لانجلترا الذى نُشر عام *1723*، وقد تجاهلا كل الوثائق القديمة التى كانت تحت أيديهم على أمل التسرب فى خفية، وكذلك لأن هذه الوثائق تشتمل على صيغ للإيمان بالرب تصوروا أنها تسبب متاعبًا، وكان ذلك مثال للإيمان بالرب والكنيسة المقدسة والملك، وهو علامة لا شك فيها على حقيقة الأصول الكاثوليكية

---

[7] وتحرِّم الطوائف حمل البرجل على الاسكافية والخبازين فحسب.

[8] ومنذ بداية القرن السابع كان الرابيون الهرمسيون يحملون فى أيديهم الزاوية والبرجل.

[9] *Memoire au due de Brunswick (1782).*

للماسونية[10]، وقد استغرق البروتستنت خمسة عشر عامًا بين وفاة كريستوفر رين *Christopher Wren* آخر أستاذ عظيم للماسونية القديمة وتأسيس المحفل الأعظم فى انجلترا عام *1717*، إلا أنهم أبقوا على الرمزية وهم لاهون عن أن من يفقه هذه اللغة فى زمن تالٍ سوف يشهد عليهم بفصاحة تستحق التدوين، ولكنهم لم يقدروا على تحطيمها جميعا، وهذا باختصار ما لا بد من معرفته لكل من يرغب فى الصراع مع الميول الماسونية فى الزمن الراهن[11].

ولم نتعرض هنا لكل المسائل المعقدة المتضاربة للأصول الماسونية، ولكننا اقتصرنا على اعتبار ما يسمى الماسونية العاملة *operative Masonry* ، أى جماعات أخوَّة البنائين التى لازال لها دينها ورمزيتها شأن كل الطوائف، أو لو أحببت رمزيتها الدينية الهرمسية، والتى ترتبط بالجوانية الكاثوليكية التى كانت واسعة الانتشار فى القرون الوسطى، والتى بقيت آثارها فى كل أين بما فيها أدبياتها، كما ارتبطت بمفاهيم القبالة اليهودية، ورغم ادعاءات كثير من المؤرخين فإن ارتباط الماسونية بالهرمسية يرجع إلى زمن أسبق من إلياس أشمول الذى توفى *1646*، ونعتقد أن المسألة فى القرن السابع عشر كانت استرجاع تراث ضاع منه شطره الأكبر، وقليل ممن يعرفون تاريخ طوائف الحِرف يقدرون أن عام *1459* كان تاريخ ضياع التراث القديم[12]

وما لا نشك فيه هو أن الجوانب العملية والتأملية كانت متوحدة فى طوائف حِرَف العصور الوسطى، كما أنها استخدمت تعبيرات معتمدة للهرمسية على منوال 'العمل الأعظم *The Great Work*' فى سياقات مختلفة إلا أنها اعتمدت على التناظر التشاكلى13.

---

[10] وقد حاولت الماسونية الاسكتلندية فى القرن الثامن عشر أن تعود إلى التراث الكاثوليكى كما ظهر فى حكم أسرة ستيوارت من معارضة الماسونية الانجليزية التى انحازت إلى البروتستنتية وإلى بيت أورانج *the House of Orange*.

[11] وقد حدث فى البلاد اللاتينية انحراف آخر يناهض الدين فيما بعد، ولكن لا بد أولا من توكيد بروتستانتية الماسونية الأنجلوساكسونية.

[12] وتحتوى مقالة آلبرت بيرنيه التى نُشِرت فى العدد المذكور من *Voile d'Isis* على بعض الأخطاء الصغيرة، ومنها أن الشخصية الماسونية لم تظهر فى شتراسبورج بل فى كولونيا فى إبريل عام *].1459*

[13] ولنلاحظ كذلك أن تبشيرية القديس جرال *Saint Graal* قد وجدت فى القرن الرابع عشر إن لم تكن أقدم من ذلك بكثير، والتى ارتبطت بها طوائف البنائين حيث ألهمهم الهرمسيين، والتى استنبط منها هنرى مارتان مصيبا أنها كانت أصل الماسونية..

ولو ابتغينا الوصول حقًا إلى الأصول باقتراض أن ذلك أمر ممكن من المعلومات المتشظية التى نعتمد عليها فلا مناص من الرجوع إلى العصور الوسطى وحتى إلى ما قبل المسيحية، ويحدو ذلك بنا إلى إكمال أمر تحدثنا عنه فى الدورية ذاتها فى عدد ديسمبر *1925* عن ʼرمزية يانوس *Symbolism of Janus*ʻ14، فقد اتضح أن هذه الرمزية متصلة عن قرب بالموضوع الحالى15

وقد كانت مدرسة الصناعات *Collegia fabrorum* فى روما القديمة تقيم صلوات مخصوصة ليانوس، وكانوا يحتفلون به فى مهرجانى الانقلابين اللتان تناظرا نصفى الدورة الفلكية فى صعودها وهبوطها، أى النقطتان من العام اللتان تمثلا الرمزية الفلكية لبابى السماء والجحيم *Janua Coeli and Janua Inferni*، وقد استمرت طوائف الحرف فى إقامة مهرجانا الصيف والشتاء، ولكنهما ارتبطا فى المسيحية بالقديسين يوحنا الصيفى و يوحنا الشتوى كمثال آخر على تبنِّى الرمزية قبل المسيحية التى أشرنا إليها فى مناسبات عدة.

ويجوز أن نستنبط نتيجتين مهمتين مما تقدم، فأولًا كان يانوس عند اليونانيين رب التعميد فى الأسرارية وكان فى الآن ذاته رب التعميد فى طوائف الحرف، وليس ذلك من قبيل المصادفة، ولا بد أن يكون بين الوظيفتين تماهٍ رمزى، أى أنه كان من الضرورى أن يكون للطوائف تراث ʼتعميدىʻ، ولا نعتقد أن المسألة هنا حالة معزولة حيث يمكن قول الأمر ذاته على شعوب أخرى، ويؤدى ذلك بدوره إلى الأصل الحقيقى للفنون والحرف من منظور لا يتوقعه المحدثون الذين أصبح التراث بينهم حروفًا ميتة.

وقد كانت النتيجة الأخرى حفظ التراث القديم فيما تعلق برمزية يانوس عند بنائى العصور الوسطى بما يفسر أهمية رموز البروج الفلكية التى تزين مداخل الكنائس، وعادة ما يتم تكوينها عن طبيعة الصعود والهبوط للنصفين، ونعتقد بوجود أمر أصولى فى مفهوم بنّائى الكاتدرائيات الذين حاولوا أن يجعلوا من عملهم سيرة للكون، وإن لم يكن مفهوم البروج

---

[14] راجع ʼرموز العلم المقسʻ باب *17*، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

[15] ولنراعى أننا لم ننتو طرح دراسة كاملة عن يانوس، فذلك يتطلب ذكر الرمزيات المشاكلة فى الشعوب الأخرى فى العالم، وعلى الأخص مذهب جانيشا فى الهند، وهو ما سيعمل على تمديد هذه الدراسة بقدر هائل، وقد كانت صورة يانوس مُدخلا لملحوظاتنا التى وردت مرة أخرى فى مقال لاسّيى *Charbonneau Lassay* فى العدد ذاته *Regnabit* من ديسمبر *1925* ص. *15*..

برهانًا دائم الوجود فإن هناك رموز تعادله، ويستطيع بمعنى ما إثارة أفكار مشاكلة من المنظور الذى نتخذه، ومن دون تحيز فى اعتبار يوم الساعة مثلاً، كما أن هناك أشجار رمزية كما تَقدَّم، كما يمكن القول إن هذا المفهوم مشمول فى التصميم المعمارى للكاتدرائية، ولكن ذلك سيجرنا إلى تجاوز نطاق الملحوظات البسيطة التى تؤيد التوكيد الأخير16.

---

16 ونحن نسعى إلى تصحيح الهنات التى شابت مذكرة عن كتابنا عن علامات الطوائف فى نوفمبر *1925*، والتى أشار إليها أصدقاء من بروفانس، وهى أن النجمة التى تظهر على أسلحة بروفانس ليس لها ثمانية أركان بل سبعة فحسب، ولذا ارتبطت بمجموعة من الرموز تختلف عن التى ذكرناها، ولكن نجمة مقاطعة ليبو *Les Baux* تحتوى على ستة عشر شعاعا، أى ثمانيتين، وأن لها معنى رمزى مهم عن الأصل التاريخى الذى يُعزى إليها، فيقال إن الحكام القدامى للمقاطعة من نسل الملك الساحر بالتازار *Magi-King Balthasar*.

15 لغز مارتينيز دى باسكوالى

غالبًا ما يكون فهم تاريخ المنظمات التعميدية بالغ الصعوبة، وهو أمر يرجع إلى طبيعة الأمور موضوع البحث وكثرة العناصر التى قد تروغ مناهجها ووسائلها المتاحة من المؤرخين، ولكن يكفى الرجوع إلى فترات قريبة من التاريخ مثل القرن الثامن عشر حتى نكتشف صدق هذه المقولة، وحيث نجد تجليات معظم الأمور الدنيوية التى لازالت مختلطة فى العقلية الحديثة المناهضة للتراث، وما يبدو واقعيًا فى البقايا الأخيرة للتيارات التعميدية التى وجدت فى العالم الغربى، والشخصيات التى لازالت ملغزة كما هو حال المنظومات التى تنتمى إليها، وأحد هذه الشخصيات مارتينيز دى باسكوالى *Martines de Pasqually*، وردًا على عمل ظهر مؤخرا عنه وعن طائفة ' الكهنة المختارون *Elect Cohens*' الذى كتبه لو فورستيه *R. Le Forestier* و فوليو *P. Vulliaud*، وقد لاحظنا بعض النقاط الغامضة التى وردت فى سيرته رغم كل الوثائق المنشورة حاليا[1]، وقد نشر فان راينبرك *Gerard van Rijnberk* كتابًا آخر فى الموضوع ذاته[2]، والذى يشتمل على وثائق مهمة لم تنشر حتى صدوره، ورغم أن الكتاب ينطوى على أسئلة أكثر من الأجوبة[3].

---

[1] *Un nouveau livre sur l'Ordre des Elect Cohens (December 1929 issue); A propos des 'Rose-Croix' lyonnais' (January 1930 issue).*

[2] *Un thaumaturgy au XVIII siecle: Martines de Pasqually, sa vie, son oeuvre, son Ordre (Paris: FelixAkan).*

[3] ولنلاحظ فى سياقنا هنّات صغيره فى حديث فان راينبيرك عن أسلافه يعزو فيها المذكرة التاريخية الموقعة باسم 'فارس من الصليب الوردى' إلى رينيه فيليبون، والتى استخدمها مارتينيز فى مقدمة كتاب 'رسالة عن تكامل الموجودات *Traite de la Reintegration des Etres*' لمارتينيز دى باسكوالى، ورسالة 'التعاليم السرية عند مارتينيز دى باسكوالى *Des Enseigments secrets de Martines de Pasqually*' الذى كتبه فرانز فون بادر، ونشرته مكتبة الصليب الوردى

ويبدأ الكاتب بالإشارة إلى عدم اليقين الذى يحيط باسم مارتينيز، ويورد تنويعات شتى من الأدبيات المنشورة عنه، ولكن من الصحيح أيضًا أنه لا ينبغى إضفاء أهمية كبرى على هذه الاختلافات، فقد كان هجاء أسماء الأعلام فى القرن الثامن عشر بعيدًا عن الدقة، ويقول فيه،

> "أما عن الرجل ذاته الذى يجب أن يكون أدرى الناس بهجاء اسمه ووظيفته ككبير للمعمّدين *initiator chief* الذى كان يوقّع باسم 'دون مارتينيز دى باسكوالى' ووقّع مرة واحدة باسم 'باسكالى دى لا تور'، وقد كانت الوثيقة الوحيدة الأصلية فى الوثائق العامة هى شهادة تعميد ولده باسم جاك ديلفون لاتور دى لاكاس حيث كان اسم الوالد دون مارتينيتز دى باسكوالى *don Martinets de Pasqually*."

وليس صحيحًا أن الوثيقة المذكورة التى نشرها بابوس *Papus*[4] هى "الوحيدة الأصلية فى الوثائق العامة"، فهناك وثيقتان غيرها فى الوثائق العامة لم تحظيا بانتباه فان راينبرك، وهى شهادة زواج مارتينيز[5] وشهادة اعتناق الكاثوليكية التى صدرت فى حينها من سان دومينجو، وتحمل الأولى اسم 'جاك ديليورون يواقين لاتور دى لا كاس و سوزان دوما دى رينو *'Jaque Delyoron*[6] *Joachin Latour De la Case and Suzanne Dumas de Rainau',* وكانت الثانية تحمل اسم 'جاك باسكوالى دى لاتور'، وكان التوقيع بيد مارتينيز على الأولى 'دون مارتينيز ديباسكوالى *'Don Martines Depasqually'* وعلى الثانية ديباسكوالى ديلاتور *Depasqually de la Tour*، ويبدو أن وثيقة الزواج تسجل اسم الأب باسم 'ديلاتور دى لا كاس' تأييدًا لرأى فان راينبرك فى أن المرء يميل إلى الظن أن اسمه الصحيح 'لا كاس' أو 'لاس كازاس' وأن اسم 'مارتينيز دى ياسكوالى' لم يكن إلا اسم شهرة.

....

Bibliotheque Rosicucienne، وكان أن دفعتنا دهشتنا إلى سؤال فيليبون ذاته الذى رد بأنه لم يفعل سوى ترجمة منشور عن فون بادر كما توقعنا، ولابد أن تكون المذكرتان من وضع آلبريك توماس.

[4] *Martines de Pasqually,pp 10-11.*

[5] زواج مارتينيز دى باسكوالى عدد يناير *1930.*

[6] *It will be noted that here it is Delyoron, whereas the baptismal certificate gives Delivon (or perhaps Delivron); this name, inserted between two first names, does not seem to be a family name. On the other hand, there is hardly need to recall that the separation of the particles (which do not necessarily constitute a sign of nobility) was at the time quite optional.*

لكن اسم ’لا كاس‘ أو ’لاس كازاس‘ يمكن أن يكون شكلًا من المنطوق الغالى للاسم الأسبانى يثير أسئلة أخرى، وأولها أنه لابد من ملاحظة أن خليفة مارتينيز الثانى فى منصب ’الحاكم الأعظم *Grand Sovereign*‘ لطائفة ’الكهنة المختارون *Elect Cohens*‘ كان يسمى ’سيباستيان دى لاس كازاس‘، فهل كان قريبًا لمارتينيز؟ وهو أمر محتمل لأنه كان أصلًا من جزيرة سان دومينجو، وأن مارتينيز قد عاد إلى هذه الجزيرة لتحصيل ميراثه، وهو ما يؤدى إلى افتراض أن شطرًا من عائلته كان مقيمًا بها[7]، لكن ذلك يوحى بالظن بأمر أشد غرابة، فقد ورد تحت عنوان ’التمساح *Crocodile*‘ ذكر ’يهودى أسبانى‘ باسم إيليازار، ويعزو إليه سمات عديدة من أستاذه مارتينيز، ويفسر السبب الذى أجبره على مغادرة أسبانيا واللجوء إلى فرنسا،

> "كان لى صديقًا مسيحيًا فى مدريد ينتمى إلى عائلة لاس كازاس على نحو غير مباشر، وأنًا مدين له بعظيم الامتنان، وبعد فترة من الثراء فى التجارة أصابه إفلاس مفاجئ، ورحلت إليه على الفور لتعاطفى مع حزنه، وقدمت له كل ما تسمح به ثروتى الهزيلة، ولكنها لم تكف لاستعادة أعماله، وخضعت له بدافع الصداقة مما دفعنى إلى الضلال باللجوء إلى وسائل بعينها حتى اكتشفت جريمة مغتصبيه والموضع الذى أخفوا فيه ثروته التى نهبوها، ومكنته من استعادتها بالوسائل ذاتها، ودون أن يعلم اللصوص من الذى سرقهم، ولا شك أننى كنت مخطئًا فى استخدام هذه الوسائل لهذا الغرض، حيث يجب ألا تستخدم سوى فى أمور الإدارة التى لا شأن لها بثروات الدنيا، وقد عوقبت من جرائها، أما صديقى الذى كان متدينًا بإيمان خضوع فقد شك فى أن ما فعلته من أجله من قبيل السحر ودفعه حماسه الدينى إلى نسيان امتنانه كما دفعنى حماسى إلى اتباعها، فأبلغ محكمة التفتيش بأننى ساحر ويهودى، وحكمت حتى قبل القبض علىَّ، وقد عرفت بالوسائل ذاتها بالمصير الذى ينتظرنى، ومن ثم لجأت إلى بلادكم على الفور"[8].

ولا شك أن ’التمساح‘ تشتمل على كثير من الخيال الذى يصعب معه إدراك التنويهات التى تكشف عن واقع الأحداث والناس، إلا أن اسم ’لاس كازاس‘ ليس مجرد صدفة، ولذا اعتقدنا بأهمية طرح الفقرة السابقة بأكملها رغم إسهابها، فما هى الصلة التى تربط اليهودى

---

[7] والواقع أن والدا زوجته كانا أيضا من سان دومينجو، ويجوز أن يكون الإرث قد جاء من هذه الناحية، إلا أن الخطاب الذى نشره بابوس لم يكن تام الوضوح وكان منحازا للفرضية الأخرى، فلا يبدو أن شقيقا زوجته من سان دومينجو لهم مصلحة فى ’وهبه‘ الإرث..

[8] *Le Crocodile, canto 23.*

’إيليازار‘ الذى يشبه مارتينيز من حيث المذهب و’القوى‘ التى يسخرها و بين عائلة لاس كازاس، وما هى طبيعة ’الامتنان العظيم‘ الذى يشعر به لهم؟ ونحن نصوغ الآن هذه الأسئلة دون ادعاء إمكان الإجابة عليها، وسوف نرى ما يسمح به ما يلى لرؤية قد تزيد أو تقل عن المعقول[9].

ولنعكف على نقطة أخرى من سيرة مارتينيز التى تحفل بالمفاجئات، فيقول فان راينبرك "إن تواريخ ميلادة ومحله مجهولة تماما"، لكنه ذكر أن فيلمروز *Willermoz* كتب إلى بارون توركهايم *baron of Turkheim* أن مارتينيز قد مات بعد عمر مديد، وأضاف،

إن ويلرموز كان فى عامه الواحد والتسعين عندما كتب الخطاب، وأن الناس عادة ما يميلون إلى تقدير أعمار الغير بحسب أعمارهم هم، ولا شك أن ’العمر المديد‘ لمارتينيز قد كان سبعون عاما، وحيث إنه مات عام *1774* فلا بد أنه ولد فى العقد الأول من القرن الثامن عشر على أقل تقدير.

كما يميل إلى التسليم بفرضية جوستاف بورد *Gustave Bord* الذى قال بأن مارتينيز ولد عام *1710* أو عام *1715*، ولكن حتى التاريخ المبكر يجعل موته فى سن *64*، والذى ليس ’عمرًا مديدًا‘ بالنسبة إلى فيلمروز ، ... ولسوء الحظ كان هناك ’شهادة الكاثوليكية‘ التى صدرت عام *1772* والتى لم تكن معروفة عند راينبيرك وتثبت رسميًا "أن جاك باسكوالى دى لاتور المولود فى جرينوبل وعمره *45* عاما"، وتبرهن على أنه ولد قرابة *1727*، وعندما مات فى سان دومينجو بعد عامين بلغ عمره ’المديد‘ *47* عاما!

وتثبت الوثيقة ذاتها أن مارتينيز ولد فى جرينوبل كما قال كثير من الناس على عكس ما ظن راينبيرك، كما أنه مناقض لأصله الأسبانى حيث إن معظم الآراء عن اصوله الشتى تؤيد هذا الأصل بما فيه اسم لاس كازاس، لكن أباه بالطبع كان مقيمًا فى فرنسا قبل مولده، وهو ما ثبت من سهادة زواجه بالسيدة سوزان دوما دى رينو، والذى لا شك فى أنه اسم فرنسى،

---

[9] كما أن هناك صلة غريبة، فحينما يذكر سان مارتان لاس كاساس والصديق اليهودى إليازار عندما سُرِقت ثروته، فإن مارتينيز يقول فى خطابه الذى ذكرناه "إننى أعطيت إقطاعية كبيرة استرددتها فى منطقة سان دومينجو من رجل اغتصبها بلا حق"، واتضح أن هذا الخطاب كان إملاءً من مارتينيز على سان مارتان ذاته.

بينما كان اسم ’ديلاتور دى لا كاس‘ مجرد تصحيف غالى، وإجمالًا فإن السبب الجدى الوحيد الذى يجعلنا نشك فى أنه ولد فى فرنسا هو خصائص أدبياته اللغوية، لكن هذه الواقعة يمكن أن تُفَسَّر جزئيًا بالتعليم الذى تلقاه على والده الأسبانى، وجزئيًا كذلك بإقامته فى بلدان مختلفة، وسوف نعود إلى هذه المسألة لاحقا.

ويبدو أن أسرة كانت تعيش فى جرينوبل فى الفترة نفسها باسم باسكاليس فى الواقع، لكن اختلاف الأسماء على الوثائق الصادرة قد يجعلها باسكال أو باسكال مارتان، ويبدو مارتينيز غريبًا تمامًا، وربما كانت اسم أسرة تحترف صناعة العربات باسم مارتان باسكاليس كان يُعرف كذلك باسم مارتان باسكال أو باسكال مارتان، ولو كان الأخير شخصًا آخر غير مارتينيز ذاته الذى احترف المهنة ذاتها نظرًا لأحواله المالية الشاحبة فإن ذلك لم يتضح على نحو قاطع.

زد على ذلك أن كثيرًا ظنوا أنه كان يهوديا، ولكنه لم يكن كذلك من واقع الدفاتر التى تثبت كاثوليكيته، ولكن من الصحيح كما قال راينبرك "إن ذلك لا يدحض مسألة العرق"، ففى حياة مارتينيز مفاتيح تؤدى إلى الاعتقاد بأنه كان من أصل يهودى، ولكنها لم تكن وافية، ويمكن أن تُعزى إلى ماهية عرقية من نوع آخر، ويقول فرانز فون بادر *Franz von Baader* "إن مارتينيز كان يهوديًا ومسيحيًا فى الآن ذاته"، ألا يذكرنا ذلك بالعلاقة بين اليهودى إليازار وبين عائلة لاس كازاس المسيحية؟ ولكن واقعة وصف إليازار ’باليهودى الأسبانى‘ قد يكون تنويها عن أصل مارتينيز لا عن شخصه بذاته، أما عن أصل مذهبه فلأن العناصر اليهودية تسود بلا جدال.

وليكن ذلك ما يكون، فهناك خلط وتضارب دائم فى سيرة مارتينيز، كان عمره أشدها إدهاشًا، ويشير فان راينبيرك إلى الحل فى مقولة أن اسم ’مارتينيز دى باسكوالى‘ كان اسمًا تعميديًا فحسب *hieronym*، والواقع أن أنه احتفظ بذلك الاسم التعميدى كى يتميز عن غيره كما هى العادة فى أحوال مشابهة؟ وقد يكون الأمر كذلك ’عظيم الامتنان‘ للشخص الذى سماه سان مارتان اليهودى إليازار الذى كان يدين به لعائلة لاس كازاس بسبب تغطيتهم له فى نشاطه التعميدى؟ وسوف يكون ذلك ولا شك تسرعًا لو قلنا بهذه النقطة، ولكن سنرى ماذا يمكن أن يكون أصل مارتينيز، وقد لا يستطيع تقديم حلول أخرى، فالخطاب الذى كتبه فيلمروز عام *1821* يؤكد أن مارتينيز مات عن ’عمر مديد‘ يشتمل على عبارة مثيرة "إن التعميد

قد انتقل من الأب إلى الابن مارتينيز" فيما يلى،

"لقد كان خلفًا لأبيه فى الكهانة، وكان حكيمًا مرموقًا وعاقلًا أكثر من ابنه، وكان يحتكم على ثروة صغيرة وعاش فى أسبانيا، وأودع ابنه فى مدرسة ’حرس الوالون *Walloon guards*‘، حيث تشاجر مع آخر ومن ثم قامت مبارزة قُتِل فيها الآخر، واضطر إلى الهرب على الفور، ولم يضيع الأب وقتًا لتعميد ابنه قبل رحيله، وبعد غيبة طويلة شعر الأب بقرب أجله فاستدعى ابنه وأكمل مراسم تعميده.

والواقع أن قصة مدرسة حرس الوالون التى لم يوجد ما يؤيدها تبدو موضعًا للشك، ويقول فان راينبيرك "لابد أن تعنى أن مارتينيز قد ولد فى أسبانيا"، وهو ما ليس واضحًا تمامًا، كما أن المسألة أمر شهده فيلمروز مباشرة، وأشار إلى أنه عرف الابن عام *1767* فحسب فى باريس بعد وفاة أبيه بزمن طويل[10].

وسوف نترك هذا الموضوع الثانوى جانبا، فلازال هناك توكيد بأن مارتينيز قد ورث عن أبيه المعمودية فحسب بل كذلك عدة وظائف تعميدية، فكلمة ’كهانة‘ لا تُفسَّر على نحو آخر، وقد لفت فان راينبيرك الانتباه لخطاب كَتبه الماسونى فالكيه *Falcke* عام *1779*، وجاء فيه ما يلى،

كان مارتينيز باسكواليس يدعى أنه يعرف اللغة السرية بالميراث من عائلته التى عاشت فى أسبانيا، وقيل إن تاريخها يمتد منذ ثلاثمئة عام، ويقال إنهم حصلوا عليها بالتعاون مع محاكم التفتيش التى خدم فيها أسلافه.

---

[10] وقد كانت سنة *1767* هى تاريخ زواج مارتينيز، ومن الأرجح إذن أن الأخوين اللذين يعيشا فى سان دومينجو، والذى ادعى أنه جاء إلى باريس لمعاونتهما على الالتحاق بجماعة صليب القديس لويس ليسا إلا الأخين المذكورين ’بالغى الثراء‘، وكما قلنا سلفا أن خطابات *17* و *30* إبريل *1972* اللذان اقتبسهما بابوس فى كتابه ’مارتينيز دى باسكوالى‘ ص.*58*، وهو ما يتأكد بواقع أننا نجد فى خطاب بتاريخ *1* نوفمبر *1771* عبارة تقول "وأخبركم بأننى حصلت أخيرا على صليب القديس لويس من نسيبى" ص.*55*، وهكذا لم يتحصَّل عليه مباشرة عام *1767* بل من أحد الأخوين، وهو ما يخالف تقرير فيليرموز، والذى لا بد أن تكون ذاكرته قد خانته فى هذه النقطة، وما يثير الدهشة أن راينبيرك لم يستنتج تلك التوازيات، والتى يمكن أن تفسر هذا السؤال الثانوى.

وكل ذلك غير محتمل، فلا نرى أية بقايا تعميدية يمكن للتفتيش أن يحوزها أو يتداولها، ولكن لنتذكر أن في الفقرة التى اقتبسناها من كتاب 'التمساح' كان لاس كاساس هو الذى وشى بصديقه اليهودى اليازار لمحكمة التفتيش بحجة معرفته السرية، فألا نستطيع قول إن هناك أمر قد جرى خلطه عمدا؟[11]

ويجوز أن نسأل ما إذا كان مارتينيز أو الشخص الذى عرفه فيلمروز بهذا الاسم قرابة عام *1767* وتحدث عن أبيه، فهل يمكن أن نفهمه حرفياً أم كانت أقرب إلى مسألة 'الأب الروحى'، ومن يكون هذا الأب؟ والواقع أنه يمكننا الحديث عن 'القرابة التعميدية' التى لا تتفق مع القرابة بمعناها المعتاد، ولكن ربما تذكرنا أيضًا ازدواجية لاس كازاس واليهودى اليازار، ولكن يجب القول إن التداول التعميدى المتوارث ينطوى على ممارسة وظائف تعميدية بما يعنى أن هذا الأمر ليس استثناءًا، ولكن نقص المعلومات يجعل من الصعوبة تقرير ما إذا كان ذلك هو حال وراثة مارتينز بعد تعميده مباشرة، وقد حظى الابن الأكبر لمارتان على التبريك الأول فى هيكل طائفة المختارون *Elect Cohens*، وهو ما يدفع للظن أنه كان يقصد خلافته، وقد اختفى ذلك الابن أثناء الثورة، وقال فيلمروز إنه ليس متأكدًا عما صار إليه، أما عن الابن الثانى فهناك أمر يستدعى الملاحظة ، فنحن نعلم أن تاريخ ميلاده ولم يجر له ذكر فيما بعد، وعلى كلٍ فحينما مات مارتينيز عام *1774* كان الابن الأكبر حياً لكنه لم يخلف أبيه كحاكم أعظم للطائفة، فقد احتله كانييه دى ليستر، وعنما مات عام *1778* خلفه سيباستيان دى لاس كاساس، ويترتب على ذلك أن نتساءل عن الخلافة الوراثية، وواقع أن الابن كان أصغر سناً للقيام على هذه الوظائف فى عامه السادس، فربما اختار بديلًا حتى يبلغ سن الرشد، ولم يطرح أحد هذا الاحتمال، ومن جانب آخر فما يظل غريبًا هو العلاقة التى توطدت بين مارتينيز وخلَفيه، والحق إنه تحدث فى خطاب له عن 'ابن عمه كانييت *Cagnet*' الذى هو كانييت دى ليستير[12]، أما سيباستيان لاس كازاس فقد أشرنا إلى قرابته من واقع اسمه، لكن على كلٍ فإن خلافة الأقارب قد وجدت حتى لو كان هناك وريثًا مباشرًا، ولا يجوز

---

[11] ولنشر مرة أخرى إلى نقطة شاذة لا ننوى استقراء أى أمر منها، وهى أن فالك *Falck* يتحدث بصيغة الحاضر عن مارتينيز بعد موته بخمسة سنوات.

[12] "وأحيطكم علما بأننى سلمت شهادة التسجيل لابن عمى كاينيه"، من خطاب *1* نوفمبر الذى ذكره بابوس فى كتابه 'مارتينيز دى باسكواليس' ص. *56*.

تساويها مع ’خلافة العائلة‘ التى تحدث عنها راينبيرك حتى إنه ذكر أهمية جوانية لم نستطع فهمها تماما.

وليس السؤال الجوهرى هو ما إذا كان مارتينيز قد تلقى العماد على أبيه أم غيره، فلن يلقى ذلك ضوءً على حقيقة المسألة، فمن أى تراث يستقى؟ وربما ألقت أسفار مارتينيز قبل أن يبدأ نشاطه التعميدى فى فرنسا بعض الضوء على المسألة، لكننا لا نجد فى هذه النقطة إلا معلومات غامضة وتوكيدات بأنه سافر إلى الشرق لا تعنى شيئًا محددًا حيث إن ما تعنيه هذه المسألة قد يكون أسطوريًا أو حتى رحلات رمزية، ويعتقد راينبيرك أن هناك فقرة من ’رسالة تكامل الموجودات‘ *Traite de la Reintegration des Etres* تؤيد هذا الرأى حيث يبدو أن مارتينز قال إنه سافر إلى الصين، ولكنه لم يقل شيئًا عن بلاد أقرب منها، لكن هذه الرحلة لو أنها حدثت حقًا فربما لا تفيد بشيء من منظورنا الحالى، فمن الواضح أنه ليس فى تعاليمه ولا شعائره شيء يؤكد على أقل صلة مباشرة له بتراث الشرق الأقصى، إلا أننا نجد فى خطاب له هذه الفقرة المهمة، "إن حالى وطبيعتى كرجل حق قد عملا على بقائى حيث أنا"[13]، ويبدو أن أحدًا لم يلاحظ أن ’الرجل الحق‘تعبير طاوى، ولكن لا شك أنه التعبير الوحيد على هذا المنوال فى أدبيات مارتينز[14].

وعلى كلٍ فلو كان مارتينيز مولودًا عام *1727* فإن رحلاته لن تستغرق طويلا، حتى لو طرحنا سنوات إقامته فى مدرسة والون جاردز، فالمعلوم أن نشاطه التعميدى بدأ عام *1754* فى الوقت الذى بلغ فيه *27* عاما[15]، وتقر بأنه لابد قد ذهب إلى أسبانيا خاصة لو كانت أصول عائلته هناك، وربما سافر إلى إيطاليا كذلك، ويبدو ذلك معقولًا حيث إن خصائص لغته تأثرت بهذين البلدين، ولكن دون تفسير التفاصيل الظاهرية فإن ذلك لن يحملنا بعيدًا، فماذا بقى فى تلك البلاد من المنظور التعميدى؟ ولا بد أن نبحث فى مضمار آخر، ونرى أن أدق المؤشرات على ذلك ما ورد فى الفقرة التالية من خطاب الأمير كريستيان أمير هيسّى دارمشتاد "يدَّعى باسكوالى أن معرفته قد جاءت من الشرق، ولكننا نفترض أنها جاءت على

[13] مقتبس من بابوس من كتابه ’مارتينيز دى باسكواليس‘ ص. *124*.

[14] ولا ينبغى الاعتقاد بأن مارتينيز حينما يتحدث عن الصين أنه يعنى ذلك حرفيا، فلاإن لو فورستييه يستخدمة كلمة الصين فى الإشارة إلى نواكشوط.

[15] مع التحفظ على أن الرحلات المذكورة قد لا تخص هذه الشخصية بل تخص تخص الراوى.

الأغلب من شمال أفريقيا حيث يعيش اليهود السفرديم بعد أن طُرِدوا من أسبانيا[16]"، وسوف يفسر ذلك كثيرًا من الأمور، أولها غلبة العناصر اليهودية على مذهبه، ثم العلاقات التى عقدها مع اليهود الرعاة فى بوردو كما أشرنا سلفًا فى سياق حديث سان مارتان عن إيليازار ’كيهودى أسبانى‘، وضرورة أن يجرى العمل فى وسط غير يهودى حتى يمكن تطعيم المذهب على منوال تعميدى منتشر فى العالم الغربى، ولا يمكن أن يكون فى القرن التاسع عشر غير الماسونية.

وتثير النقطة الأخيرة أسئلة سنعود إليها فيما بعد، ولنلاحظ أولًا أن مارتينيز لم يذكر مطلقًا الأصل التعميدى المضبوط لمعرفته ويحيلها إلى ’الشرق‘ على نحو غامض، وهو أمر مفهوم تمامًا منذ اللحظة التى بدأ فيها مزاولة التعميد كما تلقاه، ولم يكن بحاجة إلى الإشارة إلى أصله، وقد نوه فى كتابه عن ’الأسلاف‘ مرة واحدة من دون أية تفاصيل، وبالتالى دون توكيد أى شيء كان عن سلسلة لتداول التعميد[17]، إلا أن من المؤكد أن صورة هذا التعميد لم تكن تنتمى إلى محفل الكهنة المختارون ، حيث إنها لم توجد قبل مارتينيز ذاته، والتى رأيناها تنمو بين عام *1754* حتى عام *1774* رغم أنها لم تستطع إكمال بنيتها[18].

وكان ذلك جوابًا على الاعتراض الذى دفع به البعض من حيث إن مارتينيز لو كان ’مكلفا‘ من قِبَل أحد المنظمات التعميدية فكيف تأتى أن يكون محفله ناقصًا من البداية من حيث شعائره ومراتبه؟ ولا شك أن كثيرًا من المنظمات الماسونية من المراتب العليا التى ظهرت فى الفترة ذاتها قد عانت من الأمر نفسه حتى إن بعضها لم يكن له وجود إلا على الورق، وليس هناك ما يدهش فى كل ذلك لو كانت هذه المنظمات تمثل أفكارًا شخصية لأفراد أو جماعات، ولكنها بدت كما لو كانت مفوضة من منظمات تعميدية حقيقية، وكان على الأمور أن تتقدم على نحو مختلف، لكن ذلك سؤال سطحى، فلابد من اعتبار أن ’رسالة‘ مارتينيز كانت ’تطويعا‘ تمخض عن تكوين محفل الكهنة المختارون ، وهى مهمة لم يقم بها

---

[16] وتناظر الثلاثمئة سنة التى تحدث عنها فالك على وجه التقريب الزمن الذى طُرِد فيه اليهود من أسبانيا، ولا نرغب فى قول إنه ليس أمرا فائق الأهمية.

[17] "إننى لم أسعى مطلقا لخداع أحد إلى الزلل، ولا أن أخدع الذين يأتون إلى بنية طيبة حتى يكتسبوا معرفة مما علمنى سلفى".

[18] عندما قال فيلرموز "إنه خلف أباه فى الكهانة" فلا ينبغى الظن بأن فان راينبيرك قد تسرع فى التصرف كرئيس للمحفل الذى لم يكن يحوطه شك فى هذا الزمن.

’أسلافه‘ لسبب أو آخر أو لأن أوانها لم يحن بعد، وربما عجزوا عن إقامته كما سنرى لاحقًا، فقد عجز مارتينيز عن إتمام مشروعه بشكل مُرْضٍ، ولكن ذلك لا يبرهن على وجود أمر تعميدى فيها منذ مولدها، والحق إن هناك حالتان قد أسهمتا فى فشلها الجزئى، أحدهما سلسلة أحوال معاكسة عملت بلا هوادة على إعاقة مشروعه، كما قد لا يكون هو نفسه كفؤًا للمهمة رغم ’القوى‘ التى كان يحتكم عليها، والتى كان من شأنها تسهيل مهمته، سواءً أكان بسبب أنه استحوذ عليها بشكل طبيعى كما يحدث أحيانًا أم الأغلب ألا يكون مستعدًا لهذه الغاية، وقد لاحظ فيلمروز "فهاهته اللغوية وتكتمه الذى استحق اللوم واستوجب الاختلاف"[19]، ويبدو عدم الحذر فى الوعود التى لم يملك الوفاء بها على الأقل فى التو واللحظة، وأحيانًا فى السماح لغير الأكفاء بحضور محفله، وقد كان عليه مثل كثير غيره أن يعمل بنفسه وعلى مسئوليته بعد ’تلقى‘ التجهيزات اللازمة، ولم يرتكب على الأقل أخطاءً تؤدى إلى سحب رسالته حيث إنه كان يحفز العمل حتى النهاية، كما اطمأن إلى تداول مذهبه قبل وفاته.

ولا نعتقد أن التعميد الذى تلقاه مارتينيز قد تجاوز قدرًا محدودًا من ’الأسرار الصغرى‘، ولا أن معرفته كانت حقيقية تمامًا ولم ’تتعالَ‘ عن شخصه ذاته، وقد عالجنا هذا الموضوع فى موضع آخر[20]، وأشرنا إلى خصاله فى هذا الصدد، وجاذبية ’السحر الاحتفالى‘ التى تخللت مواعظه وطقوسه، أو ’عملياته *operations*‘ كما سمَّاها، والأهمية التى أسبغها على المجال الظاهرى الصرف، ولا ينبغى أن نختزل تلك الأهمية ولا ’القوى‘ التى امتلكها إلى مجرد ’ظواهر ميتافيزيقية‘ كما يشيع اليوم، ولا النظريات النفسية الحديثة التى يبدو أن راينبيرك يتوهما، ولا نملك المشاركة فى هذا الهراء من جانبنا.

كما لابد أن نضيف إلى ذلك واقع أن محفل الكهنة المختارون كان صورة جديدة منعته من تأسيس تعميد محفل مشروع، ولذا كان يجند أعضاء محفله من بين الذين تلقوا تعميدًا فى منظمات تعميدية أخرى، ومن ثم لجأ إلى إقحام مراتب عليا فى محفله، أما المنظمة التى أمدته بالضروريات التى لم يكن بدونها ليفعل شيئًا فلابد أن تكون ماسونية، وعليه فإن الشروط التى طلبها مارتينيز كانت ’التجهيزات‘ والتعاليم التى تلقاها فى موضع آخر فى حوزة محفل ماسونى، وربما كان ’أسلافه‘ يفتقدون هذه الشروط حتى إنهم لم يقدروا على تحقيق ما أنجز، وقد قدَّم

---

[19]. الخطاب المذكور عاليه إلى بارون توركهايم فى يوليو *1521*.

[20] *Un nouveau livresur l'Ordre des Elus Goens,issue for December 1929.*

مارتينيز نفسه كماسونى فى أول الأمر، وقد كان 'فى داخل' محافل قائمة كأى مؤسس لمحفل جديد للمراتب العليا، وتكفّل بدرجات مختلفة من النجاح بتعليم 'العبادات' التى يحضرها الأعضاء المؤهلين من المحافل ذاتها، وكيف تعمل على منوال 'الكهنة المختارون '، وليس هناك أى غموض فى هذه النقطة، فلو كان مارتينيز قد تلقى 'رسالة' فلم تكن إلا ماسونية المراتب العليا، والتى يستطيع الإطاحة بها ليقدم تعاليمه التى تلقاها من مصدر تعميدى آخر.

وحينما نتفحص نشاط مارتينيز التعميدى لا بد أن ننتبه إلى صلته المزدوجة بالماسونية وبمنظمة أخرى أشد غموضا، ولابد أن تكون الأولى لازمة للدور الذى أسندته الثانية إليها، كما أن هناك أمر ملغز حتى فى انتمائه إلى الماسونية لم يظهر شىء منه، لكنه كان على كل حال قبل عام *1754*، فمنذ ذلك التاريخ وما تلاه ظهر كماسونى فحسب، كما أنه قد تحقق بالمراتب الاسكتلندية العليا[21]، وهذا ما سمح له بتولى وضع دستور 'محافله' بدرجات مختلفة من النجاح بحسب الحال فى جنوب فرنسا حتى عام *1761* عندما استقر فى بوردو، ولا حاجة بنا إلى تعقب كل هذه المخالفات الموثقة، بل نتذكر فحسب أن محفل الكهنة المختارون لم يكتمل مطلقا، وواقع أن قائمة المراتب والشعائر قد ثبتت على نحو كامل فيما بعد.

ونرى من منظورنا أن الجانب الآخر للمسألة أشد أهمية، ويلزم مراعاة أن مارتينيز ذاته لم يدَّع أنه الرئيس الأعلى لمنظومة تعميدية، فإن لقبه *Grand Sovereign* لا يناقض هذا الوضع، فقد وجدت كلمة *Sovereign* فى عدة ألقاب وظائف ماسونية، ودون أن تعفى حامليها من الخضوع، وكان من بين الكهنة المختارون من حمل هذا اللقب، وكانت سُلطة مارتينيز تظلهم جميعا، وأوضح برهان على ذلك فقرة من خطاب مارتينيز إلى فيليرموز بتاريخ *2* نوفمبر *1768*،

"وقد كان فتح المحيط الذى قمت به فى *12* سبتمبر افتتاحًا للعمليات الموصوفة للانقلاب الشتوى حتى لا تختلط وظائفى الروحية بالتزاماتى الزمنية، وسوف تظل المحيطات مفتوحة حتى الاعتدال الربيعى، وسوف أحافظ عليها بنفسى حتى أكون مستعدًا للعمل، وأصلى لدوام سلام النفس والصحة والعقل للرئيس الأعظم الذى خفى عنك وعن محفلك لأخوَّة *Reaux-Croix*،

---

[21] *On this subject we must however express some doubt as to the Masonic character attributed to the 'Knight of the Rose Croissante' by way of 'Squire': it is quite correct that this was the name of a Scottish grade, which has moreover survived up to our time in the Rectified Rite; but in Martines' case its mention in he official secular documents would seem rather to indicate that it was no more than a nobilary title. But it is of course true that the one does not exclude the other.*

والذى لا أملك إلا الصمت حياله حتى يفصح لى عن نفسه، ولا أخشى من أى عارض على نفسى ولا على أى من الإخوة، ولكنى أخشى على المحفل ذاته لو فقد قائده، ولا أملك إلا الحديث معكم بالاستعارات فى هذا الشأن[22].

وهكذا يعترف مارتينيز بأنه لم يكن 'الرئيس الأعظم' لمحفل الكهنة المختارون ، ولكن حيث إن الطريقة التى أقام بها نفسه أمامنا فى هذه المرتبة كان يلزم أن يكون الرئيس واحدًا من أعضاء منظمة ألهمت بهذا التشكيل الجديد، وألا يكون الخوف الذى عبر عنه مارتينيز من اختفاء هذا الشخص قد يؤدى إلى تعطيل التواصل؟

كما أن من الواضح مما يقول أنه كان يخاطب رجلًا حيًا وليس كيانًا شبحيًا، فقد أشاع الغيبيون أفكارًا من هذا النوع الخيالى بما لا يجعل من هذه الملحوظة تزيدا.

وربما أمكن القول إن مسألة الرئيس الخفى لبعض المنظمات الماسونية[23] كانت هذه الفرضية التى دحضتها وثيقة أخرى أظهرها فان راينبيرك، وهى تلخيص خطاب من بارون توركهايم *Turkheim* إلى فيلرموز بتاريخ *25* مارس *1822*، جاء فى ديباجتها،

"أما عن باسكوالى الذى قال عن نفسه رئيس محفل *Reaux* فى منطقته التى تشتمل على أوربا بكاملها، فإنه يمكن أن يقيم اثنى عشر محفلًا تعتمد عليه، وسوف يساويهم بنفسه"[24].

---

[22] وقد اقتبسها فوليو *P.Vulliaud* فى كتابه *Les Rose-Croix Lyonnais au XVIII siecle,p72.*، ولا نعلم لماذا تحدث فوليو عن 'الرؤساء المجهولين' حتى إنه قال إن مارتينيز يتحدث عنهم فى ذلك الخطاب، ولكنه لم ينوه إلى تسميته، ومن ناحية أخرى كان مارتينيز يستخدم الكلمة لا على سبيل الاستعارة بل على سبيل الإلغاز، فليس فى الأمر شبهة استعارة..

[23] ولو كان ذلك هو الحال فربما استطاع البعض مماهاة هذا الشخص بالمدعى تشارلز إدوارد ستيوارت الذى أسند إليه دورا مشابها، ولو نحن نوهنا هنا عن ذلك فلكى نضفى بعض المعقولية على 'فارس الصليب الأحمر' الذى تحدث عن "شارات التقدير التى عرضها المحتال ستيوارت على مارتينيز" حينما تقدم أمام محفل تولوز عام *1760* قبل ثمانى سنوات من الخطاب الخطاب المقتبس، ولكن ما تبع ذلك سيبين أن شيئا مختلفا لابد قد تعلق بالأمر.

[24] ويسمى هؤلاء 'الرؤساء *Sovereigns* ' كما ذكرنا، ونلفت الانتباه إلى عدد *12* الذى يتردد فى المراكز التعميدية أيا كانت الصور التراثية الذين يتبعونها.

ويتبع ذلك أن مارتينيز كان يحتكم على تلك ’القوى‘ التى تم تعريفها بعناية فى المنظمات التى امتدت خارج أوروبا[25]، والتى كانت رئاستها خارج بلادها، ولو كانت هذه الرئاسة فى أوروبا لما استطاع مارتينيز الحصول على تفويض منها بهذه المنطقة ولا ممارسة ’الرئاسة‘ على وجه صحيح، ومن ناحية أخرى فلو صحَّ ما قيل عن أصل مارتينيز بالانتماء إلى تعميد اليهود السفارديم فلا بد أن يكون موقعه فى شمال أفريقيا، ولكن يتضح فى هذه الحالة أن مسألة المنظمات الماسونية ليست فى فرنسا، ولابد أن نسعى لمعرفة مصدر ’القوى‘ التى تمتع بها مارتينيز فى موقعه برتبة *Reaux Sovereign* فى منطقة من العالم تساوى النفوذ الماسونى بأكمله، وهو ما يبرر تأسيسه لمحفل الكهنة المختارون على شكل ’نظام‘ هيكلى[26].

ولم تكن نهاية هذا النظام أقل غموضًا من بدايته، فقد خلف مارتينيز خليفتين لم يزاولا وظيفة *Grand Sovereign*، وكان أولهما كاينيه دى ليستير *Caignet de Lestere* الذى مات عام *1778*، ولم تقتصر سلطة مارتينيز على أوروبا وحدها، وامتدت أربع سنوات بعد موته، ثم لفترة ثانية انتهت بعد سنتين باستيداع سيباستيان دى لا كازاس عام *1780*، فماذا بقى من منظومة قائمة؟ ويبدو أنه لم يبق منها سوى نَذَرٌ يسير، ورغم استمرار بعض ’المعابد‘ بعد *1780* فلم يكن ذلك ليؤخر توقف كل الأنشطة، أما عن ’الرئيس الأعظم *Grand Sovereign*‘ الذى خلف استيداع سباستيان دى لاس كازاس فلم يتسائل عنه أحد، إلا أن خطابًا من فارِس باكون *Bacon of Knight* بتاريخ *26* يناير *1807* يقول فيه "إن هناك صمت تامٌ عن محفل الكهنة المختارون الذى كان يقوم دائمًا بتنفيذ أوامر الأستاذ الأعظم *Sovereign Master, G: Z:W:J:*"، ولكن ماذا يمكن أن نستنتج من هذه المعلومة الملغزة؟ وعلى كلٍ فإن فيليرموز يرد على هذه الرسالة عام *1822* قائلًا "لم يعد يعيش أحد من كل أتباع محفل *Reaux* الذين عرفتهم، كما استحال على مارتينيز أن يسمى أحدًا من بعده لرئاسته"، وبعد أن كفَّ كل أتباع محفل *Reaux-Croix* عن الوجود فليس هناك ما يمكن تداوله لإحياء محفل الكهنة المختارون .

---

[25] ولا نفع فى الحديث هنا عن أمريكا التى كانت فى ذلك الحين مجرد تابع لأوروبا من المنظور الماسونى.

[26] ويبدو أن الاصطلاحات التى يستخدمها فيلرموز تنتمى إلى منطقة أمريكا الجنوبية كما يبدو من أهميتها فى تاريخ سان دومبنجو وحياته ومحفله، ويبرهن ذلك مرة أخرى على تناظرها مع مجموعة البلاد التى انتشرت فيها الماسونية، والتى كانت فيها المنظمة الوحيدة الحية التى تستطيع القيام بالعمل الذى كُلِّفت به..

ولو لجأنا إلى تعبير فان راينبيرك 'الوجود المباشر' فإنه يرى أن 'الوجود غير المباشر' هو ما سمّاه "التحول الفيليمروزى المارتينيزى المزدوج"، ولكننا نجد فى ذلك غموضًا لا بد من إيضاحه، فليس تحول المحفل الاسكتلندى تحولًا لمحفل الكهنة المختارون ، لكنه اشتقاق من محفل التقوى الصارمة، وهو أمر مختلف تماما، ولو صح أن الوسائل السائدة قد قامت بدور فى تطوير شعائر محافل المراتب العليا، فإن فيليمروز كان قادرًا على طرح أفكار منظمة مارتينيز، كما أن من الصحيح أن غالبية أعضاء محفل الكهنة المختارون قد عنّفوه بشدة لاهتمامه بمحفل آخر، والذى كاد فى رأيهم أن يكون خيانة، كما أنهم لاموا سان مارتان على تغير طريقه إلى نوع آخر من الخيانة.

ولا بد أن تشغلنا حالة سان مارتان برهة أخرى نظرًا للكثير الذى قيل عنها فى زمننا، والواقع أن سان مارتان قد هجر شعائر الماسونية التى ارتبط بها بما فيها محفل الكهنة المختارون ، وقد كان ذلك لسلوكه فى طريق الأسرارية، والذى لا يتقابس مع المنظور التعميدى، كما أنه على وجه اليقين لم يُقِم لنفسه محفلا، والواقع أن اصطلاح 'المارتينيزية' الذى تواتر فى العالم الدنيوى ينطبق على سان مارتان فقط ومذهبه وأتباعه فحسب، وسواء أكانت هذه الخطابات تتعلق به مباشرة أم غير ذلك، زد على ذلك أن سان مارتان نفسه لم يكن بلا فكاهة، فقد صدّق على تلاميذ يقرؤون أعماله باعتبارها مارتينيزية، ويبدو أن كثيرًا من تلامذته تلقى منه 'تبريكًا' بعينه يتكون من حرفين وعدة نقاط، وهذا الميراث هو مرجع المارتينيزية الحديثة، ولكن حتى لو كان صحيحًا فكيف تأتى لهذا التواصل بلا شعائر أن يمثل تعميدًا؟ وقد كان الحرفان هما *S* و *I*، وأيًا كان تفسيره على كثرة ما تواتر منها فإنه قد أبهر بعض الناس، لكن ماذا كان أصله فى الحالة الراهنة؟ ولكنه يذكرنا بالرؤساء الخفيين و محفل التقوى الصارمة، ولا حاجة بنا إلى النظر فى محفل الكهنة المختارون ، والذين استخدموه فى توقيعاتهم، ويطرح فان راينبيرك فرضية معقولة مؤداها أنها علامة مميزة على عضوية 'المحكمة السيادية *Sovereign Tribunal*'، والتى تصدرها إدارة المحفل، والتى انتمى إليها سان مارتان و فيليرموز، ولذا لم تنطو على مرتبة بل على وظيفة فحسب، وفى هذه الأحوال يبدو تبنى سان مارتان لهذه الرموز غريبًا، فقد كان يمكن أن يتخذ رمز *R.C.* مثلًا ما لم تكن بذاتها تحمل معنى رمزيا، وقد اشتُقَّ منه استخدامات مخصوصة، كما أن هناك واقعة غريبة تبرهن على أن سان مارتان قد أضفى عليها أهمية بعينها، فقد استخدمها فى كتابه 'التمساح' فى صياغة اسم لجماعة خيالية هى "جمعية المستقلون *Society of Independents*"، والتى لم تكن جمعية ولا منظمة بل مجرد تجمع أسرارى

حول السيدة يوف *Jof*، أى الإيمان متجسدا[27]، كما جرت مسألة غريبة نحو نهاية قصة اليهودى إليازار حين سُمح له بحضور مجلس جمعية المستقلون، ولا شك أننا يجب أن ننظر إليها كخيال، وليس كأمر يتعلق بشخص مارتينيز، ولكن بانتقال سان جيرمان من مذهب الكهنة المختارون إلى الأسرارية التى انسحب منها طوال الشطر الأعظم من حياته، وقد كان تواصله مع أقرب تلاميذه حرفا *S.I.* علامة على اعتراف بهم، فهل كان يرغب فى قول إن عليهم أن يعتبروا أنفسهم أعضاءً فى جمعية المستقلين؟

وتوضح هذه الملاحظات الأخيرة أننا لا نشارك فان راينبيرك نظرته المتفائلة فى العجب فيما لو كان محفل الكهنة المختارون ينتمى قصراً إلى الماضى؟ والجواب بالنفى فى حين نعترف بغياب أية أخوَّة مباشرة، وهو الاعتبار الوحيد لنطاق التعميد بكامله، ولا نشك فى استمرار وجود المحفل الاسكتلندى المعدَّل على عكس ما يُعتقد، أما عن المارتينية الحديثة فنؤكد له أن علاقتها بسان مارتان واهية للغاية، ولا علاقة لها بالمارتينية ولا الكهنة المختارون .

---

[27] وقد سعى فيليرموز من جهته إلى إطلاق الحروف الأولى ذاتها على ما أسماه 'جمعية المعمدين *Society of Initiates*' على الجماعة التى أسسها لمزاولة التنويم.

16 عن ’الصليب الوردى‘ فى ليون

لقد تكاثرت الدراسات عن مارتينيز دى باسكواليس وتلامذته على نحو غريب، فبعد أن عرضنا على هذه الصفحات كتّاب بول فوليو *Paul Vulliaud* بعنوان *Les Rose-Croix lyonnais au XVIII siecle*[1] ، إلا أننا نجد مرة أخرى أن العنوان يفتقد ما يبرره، فباستثناء المقدمة لا يتعامل الكتّاب مع الصليب الوردى *.Rose-Cross*، فهل كان مُلهَمًا بالاصطلاح الشهير *Reau-Croix* الذى لم يحاول فواليو حتى تفسيره؟ وهذا محتمل، لكن استخدام الاصطلاح لا يعنى قرابة تاريخية بين ما يسمى *Rose-Cross* وبين ’المختارون *Elect Cohens*‘، وعلى كل فلم يكن هناك سبب روحى ولا شكلى لذكر أسماء منظمات مثل *Strict Observance* و *Rectified Scottish Rite* التى تنتمى إلى الصليب الوردى تحت العنوان ذاته، وسوف نستطرد بذكر أن الشعائر الماسونية تحتوى على ’محفل الصليب الوردى‘ ولم تستعر شيئًا منها سوى رمز ’أتباع الصليب الوردى *Rosicrucians*‘، أما وضعها تحت بطاقة *Rose-Cross* دون تفسير فسيكون غموضًا سئ الطالع، وقل مثل ذلك عن العنوان الذى اختاره فاليو لكتّابه، فهو يرى اصطلاحات أخرى على المنوال ذاته على شاكلة ’مستنير *'Illumined'*‘ الذى يقول عنه إنه بلا معنى محدد، وأنه عشوائى بعض الشيء أو إنه حل محل اصطلاح آخر، وهو ما يقع بالقارئ فى وحل ولديه ما يكفيه من صعوبة فى محاولة شق طريقه فى شتى الشعائر والطرق التى انتشرت فى الزمن المذكور، ولا نرغب فى الاعتقاد بأن فاليو قد فشل فى إدراك ذلك، وفضّلَ عليه رؤية عدم انضباط الاصطلاحات الفنية كنتيجة محتومة للسلوك الدنيوى الذى يسعد بادعائه، ولم يقصِّر فى إصابتنا ببعض الدهشة، وعن هذه النقطة فإننا لم نر كثيرًا من الناس يفخرون بأنهم ’دنيويون‘ سوى من فى الجامعات والدوائر الرسمية، والذى لم يلقوا عنده

[1] 1 *'Bibliotheque des Initiations modernes'. E. Nourry, editor.*

تقديرًا أكثر مما وجدناه للذين يستخدمون الاصطلاحات على نحو خاطئ.

وقد اعتقد فوليو نتيجة هذا السلوك أنه قد اتبع أسلوبًا تهكميًا يبعث على الضيق طوال كتابه، وقد خاطر بالتحيز الذى لابد للمؤرخ أن يجتنبه بأى ثمن، فيبدو الباب بعنوان *Joseph de Maistre Franc-Mason* قد اتخذ المنحى لهذا الانطباع ذاته، فهل يستعصى على غير الماسونى أن يطرح مسائلا من هذا النوع دون استخدام لغة المماراة والطعن التى يحسن تركها للنشرات المعارضة للماسونية؟ ولم يصل علمنا إلى غير لو فورستيه *Le Forestier* كاستثناء وحيد، ونشعر بالأسف أننا لم نجد فى فوليو استثناءًا آخر، حيث إن دراساته لم تضف عليه بعض السكينة.

وبالطبع لم يُنقِص كل هذا من قيمة كثير من الوثائق التى ظن فوليو إنها لم تُنشر بعد[2]، كما لا نملك الا الدهشة من باب بعنوان 'النائمون' دون ذكر عمل موجود بالموضوع ذاته كتبه إميل ديرمنجهيم *Emile Dermenghem* بالعنوان ذاته، لكن اقتباساته من 'مذكرات تعميدية *initiatic notebooks*' نقلها لوى كلود دى سان مارتان *Louis-Claude de Saint-Martin* لم يُنشَر بعد، وتثير طبيعة هذه المذكرات الغريبة كثيرًا من الأسئلة التى لم يجب عليها، وقد اطَّلعنا على هذه الوثائق الغريبة بمشاهدها المقززة غير المفهومة حتى خطر لنا أن كاتبها يمشى أثناء نومه *somnambulist*، مما يعنى أنها نتاج من 'النائمون' الذى ينفى عنهم أية أهمية 'تعميدية'، ومن المؤكد أن كل هذا لا علاقة له 'بالمختارين *Elect Cohens*' الذين لم يعد لهم وجود مؤسسى فى ذلك الحين، ولنُضِف إلى ذلك أنه لم يرد ما يشير إلى ' الشعائر الاسكتلندية المعدلة *Rectified Scottish Rite*' رغم أن 'محفل الإحسان *Lodge of Charity*' قد تكرر ذكره، والحقيقة عندنا أن ويليرموز *Willermoz* وغيره من أعضاء هذا المحفل الذين اهتموا بالتنويم المغناطيسى قد كونوا 'حلقة دراسية' كما تسمى حاليا، وقد أطلقوا عليها العنوان الطموح 'جمعية المعمَّدون *Society of Initiates*'، وهذا اللقب الذى يبرز فى الوثائق لا يمكن تفسيره، كما أن استخدام كلمة 'جمعية' يشهد على أن الجماعة المذكورة من الماسونيين لا يتَّسمون بأية ماسونية، ولازال يحدث حتى اليوم أن يشكل الماسونيون لسبب أو آخر 'جمعية أخوَّة *fraternal group*' لا تشتمل لقاءاتهم على أية صبغة شعائرية، وأن 'جمعية المعمَّدون *Society of Initiates*' لم تكن أكثر من ذلك، كما

---

[2] وهكذا كانت التعليمات الخمسة للكهنة المختارون التى تُطرح تفصيلا فى الباب *21* قد نُشرت سلفا عام *1914*

2. Thus, the five 'Instructions' to the Elect Cohens reproduced in chapter 21 had already been published in 1914 in France Antimarorique; let us consider each according to its merits.

يبدو لنا على الأقل أنه التفسير الوحيد المعقول لغموض هذه المسألة.

ونعتقد أن المنظور التعميدى الذى جاء فى الوثائق التى تتعلق بالمختارون *Elect Cohens* له أهمية أخرى رغم الفجوات التى وجِدت دائمًا فيما تعلق بتعاليم مارتينيز التى أشرنا إليها فى الباب السابق، وقد كان فاليو مصيبًا فى القول بخطأ الذين يعتبرون مارتينيز قباليًا وأنه كان يستلهم اليهودية لا يعنى فى الواقع معرفة بما تعنى كلمة 'قبالة'، والتى تستخدم بلا سبب ولا علة، ولكن من ناحية أخرى هناك عجْز مارتينيز فى الهجاء وأسلوبه الحافل بالأخطاء الذى لم يتوانَ فاليو عن الإشارة إليه، ولا يبرهن على معرفته لمرتبة بعينها، فلا ينبغى الخلط بين المعرفة التعميدية وبين التعاليم الدنيوية، فالسالك فى أى طريق متسامٍ قد يكون أمّيًا، وهو الحال الغالب فى الشرق، كما يبدو أن فاليو قد وجد مسرَّة فى تقديم مارتينيز بشخصية ملغزة معقدة فى أسوأ تعبير ممكن، وقد كان فورستيه أكثر حيادًا بالتأكيد إلا أن هناك بعض النقاط التى تستدعى التعليق.

وتشير حالات الغموض إلى صعوبة متابعة دراسة الأمور التى تبدو أحيانًا مقصودة الخلط، ونشكر فاليو على إسهامه فى هذا الشأن رغم استنكافه عن صياغة أى استنتاجات، لكن عمله يطرح وثائقًا تثير الاهتمام[3]، وحيث إن هذا العمل يتطلب بعض الإسهاب فلنأمل فى أن يترك فاليو عادة تخييب ظن قرائه الذين سيجدون فى عمله كثيرًا من الأمور العجيبة التى تسترعى الانتباه، وربما كانت نقطة بداية التأملات فى دوره كمؤرخ أمرًا لا يرغب الكاتب التعبير عنه.

---

[3] ولنلاحظ فى سياقنا خطئا تاريخيا واضحا عندما يكتب فوليو مع البعض "إن آلبريك توماس قد ناقض بابوس فى تأسيس محفل مصرائيم"، فقد كان المحفل قائما فى إيطاليا منذ عام *1805*، وظهر فى فرنسا عام *1814* مع الإخوة بيدارايد *Bedarride .brothers*

17 كتاب جديد عن المختارين

لقد تخصص لو فورستيه *R. LE FORESTIER* فى الدراسات التاريخية للمنظمات السرية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر من الماسونية وغيرها، وقد نشر مؤخرًا كتابًا مهمًا بعنوان ’الغيبيون من الماسونية الحرة وطائفة المختارون *La Franc-Maronnerie occultiste au XVIII siecle et l'Ordlre des Elect Cohen*[1]‘، ويثير هذا العنوان بعض التحفظات عن استخدام كلمة ’الغيبيون *occultiste*‘ التى لم تستخدم قبل ليفى *Eliphas Levi* تبدو هنا خارج الزمن، وربما كان من الأحوط استخدام مصطلح آخر أكثر توافقا، وليس ذلك مجرد مسألة كلمات، فإن ما يسمى الغيبية من منتجات القرن التاسع عشر.

وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء، يتناول الأول "مذاهب المختارون وشعائرها"، ويتناول الثانى ’المختارون والتراث الغيبى‘ وربما كانت كلمة ’جَوَّانى‘ أكثر توفيقا، ويعالج الجزء الثالث ’مؤسسات المحفل وتاريخه‘.

وقد كانت المادة التايخية جيدة الطرح وتقوم على دراسة جادة للوثائق التى كانت فى متناوله، ونوصى به كمرجع ممتاز، ولكننا نأسف فحسب على بعض الفجوات فيما تعلق بسيرة مارتينيز دى باسكوالى التى ظلت فيها بعض الأمور الغامضة، ولكن دورية *Voile d'Isis* سوف تنشر قريبًا ما يزيل بعض الغموض ببعض التوضيحات.

والجزء الأول عرض رائع لمحتويات ’رسالة تكامل الموجودات *Traite de la Reintegration des Etres,*، وهو عمل لم يتم مكتوب بأسلوب متعجل ويغمُضَ فى بعض المواقع، ولم يكن من السهل تلخيصه على نحو مفهوم، لكن فورستييه بستحق التهنئة عليه، إلا

---

[1] *1. Dorbon Aine, editor.*

أن هناك غموضًا بعينه ينتاب مسألة طبيعة 'الإجراءات' فى محفل المختارون *Elect Cohens*، وهل هى 'دينية *theurgic*' أم 'سحرية *magical*'؟ ويبدو أن الكاتب لم يعلم أن هذين الموضوعين ليسا من المرتبة ذاتها، ويجوز أن هذا الاضطراب واقع فى دائرة المختارين ذاتهم، ويبدو أن تعميدهم دائمًا ما يبدو ناقصًا فى جوانب عدة، ولكن كان يحسن أن نلفت النظر إليها، ويبدو أن الموضوع الذى يستحق التناول هو 'طقوس السحر' و'ادعاء الدين' بحيث يظل الباب مفتوحًا لمحافل الأوهام، وأهمية عزو 'الظواهر' على ماسماه مارتينيز 'دروبًا *passes*' ولم يكن أكثر من ذلك برهان على حضور الوهم لا غيابه، وما يدعو للأسى أن مؤسس محفل 'المختارون' قد صدَّق نفسه فى ادعاء المعرفة المتعالية، فى حين أن المعرفة الوحيدة كانت من مقام ثانوى رغم حقيقيتها الظاهرة، ولهذا السبب لا بد من قول إنه قد خلط المنظورين 'التعميدى' و'الأسرارى'، فالمذاهب التى قال بها دائمًا ما اتخذت الدين شكليًا فى حين أن 'إجراءاته' كانت نائية عن خضائص الدين، وللأسف كان مارتينيز يقبل هذا الخلط نظرًا لأنه لا يملك فكرة واضحة عن الاختلاف بين المنظورين، كما يحسُن ملاحظة أن فكرة مارتينيز عن إعادة التكامل *Reintegration* لا يعدو إمكانات الكائن الإنسانى الفرد، وقد أسس الكاتب لهذه النقطة بوضوح، ولكن كان ينبغى أن يكون السبب هو استنتاج ما يتمخض عن ذلك من حدود التعاليم التى يقدمها رئيس الطائفة للتلاميذ و'التحقق' الذى يقودهم إليه.

والجزء الثانى من الكتاب أقل الثلاثة إحكامًا، وربما لم يكن فورستييه قادرًا على الدوام على التخلص من ميول 'عقلانية' بعينها ربما تخلفت عن تعليمه الجامعى، فالتشابهات التى ذكرها بين المذاهب التراثية المتنوعة ليست بحاجة إلى عزوها إلى مؤثرات مختلفة كالاستعارة أو التأثير المباشر، ولما كانت الحقائق ذاتها تقبل التعبير الطبيعى فلابد أن تتواتر التشابهات، وينطبق ذلك على علم العدد الذى لا يمكن أن يكون اختراعًا إنسانيًا ولا مفهومًا تعسفيا، وقل مثل ذلك عن علم النجم وقوانينه الكونية، والتى لا تعتمد علينا بأى شكل كان، ولا نرى لماذا استعار علم النجم من الكلدانية كما لو كانت تحتكر هذه المعرفة، وينطبق الأمر ذاته على علم الملائكة *angelology*، والذى يرتبط بالطوالع، ولا يمكن قبول كل التحيزات الحديثة فى 'النقد الحديث' كما لو كان مأخوذًا من العبرية زمن السبى البابلى، ولنضف إلى ذلك أن فورستييه لا يحتكم على فكرة صحيحة عن القبالة التى تعنى 'التراث' بمعناها العام فحسب، ولكنه يعزوها إلى تراكم للتعاليم المدونة، والتى تدفع بأن "القبالة قد ولدت فى فرنسا وشمال أسبانيا منذ القرن الثالث عشر"، وهنا تتبدى الروح 'النقدية' التى تجهل غاية تداول كل التراث الشفاهى، ونذكر فى النهاية

نقطة أخيرة، وهى أن كلمة *Pardes* كما شرحنا فى موضع آخر هى الكلمة السنسكريتية باراديشا *Paradesha* أى ’الأرض الأسمى‘، وليست كلمة فارسية تعنى ’حديقة الحيوان‘، وهو ما لا يستقيم رغم الصلة بكاروبيم حزقيال، ولا تعنى مجرد ’تخرصات أسرارية، بل تعنى التحقق بحال بعينها لاستعادة الحال الفردوسية، والتى تتشابه مع إعادة التكامل *Reintegration* عند مارتينيز[2].

وبناءًا على هذه التحفظات فمن المؤكد أن مارتينيز يعظ تلامذته بتعاليم مستلهمة من اليهودية، وهو ما لا يعنى أنه من أصل يهودى، وهى نقطة تحتاج إلى توضيح، كما لا تعنى أنه مسيحى مخلص، وقد أصاب فورستييه فى حديثه عن الصلة ’بالجوانية المسيحية‘، ولكننا لا نرى أن المفاهيم من هذا النوع ليس لها حق الوصف بالمسيحية الأصلية، وأن نحد أنفسنا فى إطار الأفكار الحديثة وقصرها وضيقها وبرانيتها يعنى إنكار المسيحية بمعناها العميق، وكذلك التهوين من شأن كل ما وجد قبل العصر الوسيط، والذى نجد منه انعكاسات شاحبة فى منظمات على شاكلة المختارون[3]، ونحن على وعى بأن ذلك من دواعى حيرة المعاصرين من واقع انشغالهم باختزال كل شىء إلى ’التأريخية‘، والتى هى مشغَلة كذلك بين المدافعين عن المسيحية والمناهضين لها على السواء، لكن المناهضين هم الذين بدأوا الدفع بهذه المقولة فى هذا المضمار، ولنقل بوضوح لو أن المسيح لا يربو عن ظاهرة تاريخية فإن ذلك أمر قليل الشأن، لكن المسيح كمبدأ له أهمية أخرى، كما أن أحدهما لا يستبعد الآخر، ذلك أننا صرحنا من قبل أن الوقائع التاريخية ليست إلا رمزًا يعبر عن المبادئ بطريقته وفى مقامه، ونكتفى من هذه النقطة حاليًا، ولكنها قد اتضحت بما فيه الكفاية.

ونأتى إلى الجزء الثالث من الكتاب الذى تناول تاريخ محفل المختارون *Elect Cohens*، والذى استمر وجوده برهة قصيرة، وطرح ما يمكن أن يسمى الشعائر والمراتب، والتى يبدو أنها

---

[2] *On this subject we have pointed out a rather amusing error in one ofWillermoz's letters to the baron of Turkheim, published by Emile Dermenghem at the end of Sommeils:Willermoz protests the assertion that Saint-Martin's book Des Erreurset de la Verite'came from the Partlzes';what he has taken for the name of this people, who in fact had nothing to do with it, is obviously the word Pan/es, which was doubtless quite unknown to him. As the baron of Turkheim had spoken on this subject 'of Parthes,a classical work of the Kabbalists,' we think it must in fact be the work entitled Pardes Rimonim.*

[3] *Instead of 'esoteric Christianity' it would be better to say 'Christian esoterism; that is, esoterism taking its basis in Christianity, in order to indicate that what is in question here does not pertain to the religious domain; and the same naturally applies to 'Islamic esoterism'.*

لم تكتمل ولم تتضح تمامًا كشأنها فى طرق ’الماسونية العاملة‘ الشهيرة، وربما كان لا ينبغى لنا ذكر أن كل المراتب العليا فى الماسونية من أصل اسكتلندى بلا استثناء كما فعل فورستييه، أو نرى السمات الماسونية تضْفَى على مارتينيز والمختارون كقناع، لكن الطرح المفصَّل لهذه الأمور سينبو بنا عن مقصدنا[4]، إلا أننا نرغب فى لفت الانتباه إلى اسم *Reau-Croix* الذى أطلقه مارتينيز على المرتبة الأعلى من ’منظومته‘ كما قيل حينها، والتى أراد فورستييه بها بيان تقليده لمحفل *Rose Cross*، أما نحن فنرى أمرًا آخر، فقد كانت روح مارتينيز تحاول أن تصبح هى الصليب الوردى الأصلى بحيث يستحيل المحفل الماسونى الآخر إلى مذهب زائف، ولكن من أين أتى ذلك الاسم الغريب *Reau-Croix*، وماذا يمكن أن يعنى على الحقيقة؟ ويقول مارتينيز إن الاسم الحقيقى لآدم كان *Rouxin* فى اللغة الدارجة و *Reau* بالعبرية، ويعنى "الرجل ذا الحكمة العميقة والفضيلة السابغة والقوة الشديدة"، وهو تفسير يبدو للوهلة الأولى خيالى بعيد المنال، والحق إن آدم حرفيًا تعنى أحمر بلون الطينة التى جُبِل منها وتسمى أداماه فى العبرية، كما أنها تعنى الدم الأحمر، كما أن *edom* اسم أضفى على عيساو بمعنى أحمر كذلك، ويرمز الأحمر إلى القوة والقدرة، وهو ما يبرر جزئيًا ما ذهب إليه مارتينيز، أما عن مصطلح *Reau* فلا علاقة له بالعبرية، ونعتقد أنه تمثيل صوتى لكلمة رواح بمعنى ’يرى‘، وكانت تطلق على الأنبياء الرائين، ويضاهى معناها الصحيح المصطلح السنسكريتى ’ريشى *rishi*‘، وهذه الرمزية الصوتية ليس استثناءًا كما أشرنا فى عدة مناسبات[5]، ولن يكون فى مارتينيز ما يثير الدهشة حين يستخدمها للإيحاء بالحال الفردوسى، ومن ثم يوحى أنه يمثل الحال ذاته، ثم يضيف الصليب رمزًا ’للمخلِّص *Restorer*‘ إلى الكلمة الأسبق لتصبحا *Reau-Croix*، ويشير إلى ذلك فى "حصانة" الاصطلاح فى "رسالة إعادة تكامل الانسان"، أى خليفة آدم الذى تحدث عنه القديس بولس، والذى يُرمز إليه "بالصليب الوردى"[6]، أى ’الإنسان المكتمل‘ أو ’آدم الثانى‘ عند القديس بولس، وليس الأمر تقليدًا لمصطلح ’الصليب الوردى‘ فى حين يكون من

---

[4] *With regard to the various systems of high grades, we were somewhat surprised to see the organization of the 'Conseil des Empereurs d'Orient et d'Occident' attributed to the aristocracy 'of birth and money', as the founder seems in fact to have been quite simply 'Master Pirlet, tailor of clothes; according to documents of the time; as badly informed as Thory may have been on certain points, he certainly did not invent this piece of information (ActaLatomorum,vol. 1, p79).*

[5] *Le Forestier points out another example in the writings of Martines himself, that is, the assimilation he establishes through a kind of anagram between 'Noachites' and 'Chinese'.*

[6] *Moreover, the cross is in itself the symbol of 'Universal Man', and one can say that it represents the very form of man restored to his original center, from which he has been separated by the 'fall', or, according to Martines' vocabulary, by the 'betrayal of trust'.*

الأسهل التعديل كما فعل الكثير، ولكن التأويلات أو التعديلات التى ادَّعاها مارتينيز عن فاعلية 'تعميده' على مذهب *Reau-Croix* تجد مبررًا لها.

ولكى نختتم هذا العرض الموجز نشير إلى نقطة واحدة أخيرة، فقد كان فورستييه مصيبًا فى ملاحظة التعبيرات التى أطلقها مارتينيز على منوال "الصورة المجيدة" التى ترادف "الاستنارة"، وهو تنويه إلى شكيناه[7]، ولكن ذلك هو الشيء نفسه فى اصطلاح 'الصورة المجيدة' فى كلى البرانية والجوانية فى المسيحية منذ قال القديس بولس "إن ما غُرِس فى عالم الفساد سوف يحيا فى عالم المجد"، كما يرادف تعبير "نور المجد" الذى يعنى فى اللاهوت الأرثوذكسى "الرؤى الرضوانية"، ويبرهن ذلك على عدم التعارض بين البرانية والجوانية فى انطباع الثانية على الأولى، فالجوانية تضفى على الحقائق حجابًا فى البرانية وغفرانًا بمعانيها الأسمى والأعمق.

---

[7] *The word 'glory' applied to the triangle bearing the Tetragrammaton and surrounded by rays, which figures in churches as well as Lodges, is in fact one of the designations of the Sliekinah, as we have explained in The King of the World.*

18 مشروع جوزيف دى مايستر لتوحيد الشعوب

إننا مدينون بالشكر للأستاذ ديرمنجهيم *Emile Dermenghem* لكتابه عن أسرارية جوزيف دى مايستر *Joseph de Maistre*، وكذلك لإتاحة كتاب لمايستر لم ينشر بعد، وهو مذكرة مرسلة إلى فيرديناند دوق برونسفيك *Duke Ferdinand of Brunswick* حامل وسام فيكتوريا والأستاذ الأعظم لمحفل اسكتلندا المعدل بمناسبة انعقاد محفل فيلهلمسباد *Wilhelmsbad* للماسونيين الأحرار فى سبتمبرعام *1780*، وقد كان الدوق يأمل فى إقرار النظام والحكمة فى الفوضى الماسونية، وقد وزع على كل المحافل الخاضعة لنفوذه الاستبيان التالى،

> (*1*) هل أصل المحفل مجتمع قديم؟ ولو كان كذلك فما هو هذا المجتمع؟ (*2*) هل هناك حقًا رؤساء غير معروفين؟ ولو كان كذلك فمن هم؟ (*3*) ما هى الغاية الحقيقية للمحفل؟ (*4*) هل هذه الغاية هى استعادة طريق فرسان المعبد؟ (*5*) كيف يمكن أن تكون الاحتفالات والشعائر على أكمل وجه؟ (*6*) هل لا بد للمحفل أن ينشغل بالعلوم الأسرارية؟

وقد أنشأ مايستر مذكرة تجيب على هذا الاستبيان من ’محفل الإخلاص التام‘ فى تشامبرى الذى ينتمى إليه، وبصفته الأستاذ الأعظم وعضواً من المراتب العليا بعنوان *A Project of Joseph De Maistre 123 order*، حتى إن ديرمنجهيم يقول "إن هذه المذكرة أول عمل مهم يخطه قلمه".

ولم يقبل دى مايستر أن يكون فرسان المعبد أصلاً للماسونية، ولم يكن واعياً بأهمية السؤال الحقيقية، ويذهب إلى قول "ماذا يهم الكون من تحطيم فرسان المعبد؟"، ولكنه أمر بالغ الأهمية، فهو علامة على النقطة التى انفصل فيها الغرب عن تراثه التعميدى، وكان هذا الفتق هو السبب الأول فى الانحراف الفكرى الذى أصاب العالم الحديث، ويرجع هذا

الانحراف إلى القرن الرابع عشر قبل النهضة، وقد كان مجرد عامل واحد من المرحلة الرئيسية، ولم يكن دى مايستر يعرف عن العصور الوسطى إلا فكرة غامضة، ولم يعلم شيئًا عن وسائل التعميد فى المذهب ولا عن تراتب ممثلى المؤسسات الروحية، ولكنه عبر بوضوح عن معرفته بوجودهما، وهو أمر مهم فى ذاته، فلابد للمرء من معرفة كيف كانت الأمور فى أواخر القرن الثامن عشر فى خضم تكاثر المنظمات الماسونية بما فيها الطرق التى لم تقتصر على الشكليات البرانية، ولكنها ادعت أنها توفِّر لأعضائها تعميدًا حقيقيًا كاملاً، ولكن جميعها كانت تسعى إلى التواصل مع امر غامض لم يعلموا شيئًا عن طبيعته الحقة، وإلى اكتشاف تراث لاتزال أثاره تتجلى فى كل أين، ولكن مبادئه قد فقدت، ولم يعد هناك من يحتكم على 'سماته الحقيقية' كما طرحها محفل فيلهلمسباند فى زمننا، والتى كانت محاولة لإعادة المنظومة فى فوضى من الشعائر والمراتب، ويقول دى مايستر،

"إن المحفل لم يستطع البدء كما نراه اليوم، فكل شىء ينم عن أن الماسونية الحرة منفصلة عن سلسلة قديمة محترمة أو ربما كانت فرعًا فاسدًا منها".

وهذه هى الحقيقة الحاسمة، فكيف نعرف كنه هذه السلسلة؟ ويقتبس شيئًا من متنٍ انجليزى يتناول مسألة جماعات أخوَّة البنائين، ويضيف إليه "ومن العجيب أن بداية هذا النوع من المنظمات تزامنت مع تدمير فرسان المعبد"، وكان من الحرى أن تؤدى به هذه الملحوظة إلى أفق أوسع، وللأسف لم تهده إلى تأملات أبعد، كما أن الحقيقة الوحيدة التى دفعت به إلى الكتابة تتفق مع ما جرى من قبل، ولنضف أن هذا الموضوع ليس الجانب الوحيد من المسألة البالغة التعقيد لأصول الماسونية.

وقد كانت محاولة ربط الماسونية بالأسرارية القديمة تمثل جانبًا آخر من المسألة ذاتها،

"ويعتقد الإخوة الضالعين فى العلم فى نظامنا أن هناك أسبابًا قوية للاعتقاد بأن الماسونية الحقة ليست إلّا 'علم الإنسان'، أى المعرفة التى تتناول أصله ومصيره، وقليل من يضيف إلى ذلك أن هذا العلم لا يختلف جوهريًا عن التعميد اليونانى أو المصرى القديم".

ويحتج دى مايستر على استحالة معرفة الأسرار القديمة وما كانت تلقنه من الأفكار، ولكنه يبدو غير أبهٍ لهذه الأراء عن تلك الأمور، وربما كان ما يبعث على الدهشة غير هذه الآراء أنه تبنى منظورًا حيال فرسان المعبد، وحيث إنه لم يتردد فى توكيد "إن بقايا هذا التراث

الأصلى لم تكف عن الوجود فى كل الشعوب" فكيف لم يفكر فى أن الغاية القصوى للأسرار كانت الحفاظ على هذا التراث؟ لكنه بمعنى ما قد سلَّم بأن التعميد الذى ورثته الماسونية يرجع إلى أصول الأمور وبداية العالم، فالدين الحق يمتد إلى ثمانية عشر قرنًا، وقد ولد يوم ميلاد الأيام، وهنا أيضًا يروغ منه ما يعنى تداول التعميد، ويكاد المرء يشعر بأنه قَبِل الجهل به، لكنه كان فى عامه التاسع والعشرين فحسب عندما كتب تلك المذكرة.

ويجيب دى مايستر على سؤال آخر يبرهن بدوره على أنه رغم مرتبته العليا لم يكن تعميده كاملا، فكم كان عدد الماسونيين من المراتب العليا فى الماضى والحاضر فى موقفه ذاته أو حتى من يعرفون أقل منه! وما نقصد الإشارة إليه هو رده على سؤال "الرؤساء غير المعروفين"،

"هل لنا أساتذة؟ لا ليس لنا أساتذة، والبرهان على ذلك هيِّن ولكنه حاسم، وهو أننا لا نعرفهم،.فكيف لنا أن تعتنق إيمانًا ضمنيًا بأساتذة مخفيين لا نعرفهم، ولو ظهروا للعيان فربما لا يحوزوا رضانا وننسحب من ولايتهم؟".

والواضح أنه لا يعى بأن ما يهم هو صيغة العمل عند 'الرؤساء المجهولين' أما عن واقع أن هؤلاء الرؤساء غير معروفين لقادة الماسونية فذلك برهان على أنعدام الاتصال الفعال بالبنية التعميدية الأصلية، وقضى رفض الاعتراف بالرؤساء غير المعروفين على آخر فرصة قد تبقى لوصلها.

وقد كان أكثر فقرات المذكرة إثارة للاهتمام ردة على السؤالين الأخيرين فى مسألة الاحتفالات والشعائر، ورغم أن الصور عند دى مايستر 'أمر عظيم الأهمية' إلا أنه لا يتحدث عن جوهرية الرمز فى الشعائر وأهميتها التعميدية، وهذا حذف مؤسف، ولكنه يقول بحقيقة نفسية عظيمة،

"يجتمع ثلاثون أو أربعون رجلاً فى أرديتهم الموحدة وشموعهم، ويتحدثون بالإذن فحسب، وينحشرون صامتون على جدران الغرفة المسدلة بستائر سوداء أو خضراء، والذين سيجادلون بحكمة فى أية مسألة تُطرح عليهم، ولكن لو نزعنا الستائر والأردية وأطفأنا الشموع فسوف يتقافز كل منهم على الآخر، ولن يتفقوا ولن يتكلموا عن الصحف والنساء، وأشدهم تعقلا من يذهب إلى بيته دون أن يخطر له أنه تصرف مثلهم تماما،... ولنحذر أساسًا من كبت اليمين كما اقترح البعض، وربما كان لديهم أسباب معقولة ولكنها غير مفهومة، واللاهوتيون الذين أرادوا البرهنة على أن اليمين غير قانونى قد جانبهم الصواب، والحق إن السلطة المدنية

فحسب يمكن أن تقبل اليمين فيما تعلق بالأعمال الاجتماعية، لكن المرء لا يلاحى فى حق كائن ذكى يشهد باليمين على دخيلته وإرادته الحرة، والحاكم لديه السلطة على الأعمال، فذراعى ملك له وإرادتى ملك لى!".

ويأتى بعد ذلك نوع من المخططات للمراتب المختلفة، ولابد لكل منها غاية بعينها، وقبل أن نعكف على ذلك لابد من فض بعض الاضطراب، فحيث إن تقسيم دى مايستر يشتمل على ثلاثة مراتب فقط فإن ديرمنجهيم فهم أن ذلك يعنى اقتراحًا باختزال البنية الماسونية إلى ثلاث مراتب رمزية، لكن هذا التفسير لا يتصالح مع دستور شعائر المحفل الاسكتلندى المعدل، والذى يشتمل على المراتب العليا فحسب، ولم يلحظ ديرمنجهيم أن دى مايستر قد كتب "مراتب أو طبقات"، والواقع أنها مسألة ثلاث طبقات، وكل منها ينقسم إلى عدة مراتب، وهنا نعرض للكيفية التى تأسست بها، فالطبقة الأولى تتكون من المراتب الرمزية الثلاثة، وتناظر الطبقة الثانية المراتب الرهبانية، والذى كان القديس آندروز الاسكتلندى أعظمهم وربما كان الوحيد فى المحفل المعدل، وأخيرًا نأتى إلى طبقة الثالثة تشتمل على الطبقة العليا من الطلبة والإقطاعيين وكبار الأساتذة أو فرسان المدينة المقدسة، وما لابد من فهمه فى الحديث عن أعمال الطبقة الثالثة ما قال دى مايستر "أى مجال شاسع ينفتح أمام حماس الأعضاء فى طبقة *G.P:t* وهى أمور تتعلق بعظماء الأساتذة وليس الأساتذة البسطاء من المحفل الأزرق، وليست على الإطلاق مسألة كبت للطبقات الأعلى لكنها حافز لهم لكى يكونوا أنفسهم حقا".

والواجب الذى أسند إلى الطبقة الأولى هو الإحسان "والذى لابد أن يكون الغرض الظاهر للمحفل بأجمعه"، لكن ذلك لا يكفى، ولابد أن نضيف إليه واجبات أخرى أقرب إلى أن تكون مهامٍ فكرية،

> "ولن يتشكل قلب الماسونى فى المرتبة الأولى فحسب بل إن عقله كذلك سوف يستنير بدراسة الأخلاق والسياسة، وهى أخلاقية الدولة، وسوف تُناقَش فى المحفل المسائل التى ينطوى عليها هذين العلمين، وأحيانًا ما يُطلَب من الأعضاء التعبير عن آرائهم كتابةً،... لكن الغاية الكُبرى للإخوة أن يعرفوا بلادهم، وما يتوفر فيها وما ينقص منها، وأسباب الأزمات ووسائل التجديد، وعلى الطبقة الثانية فى النظام المقترح أن الماسونية لابد أن تتغيا توجيه الحكومات ولقاءات طوائف المسيحيين".

وفيما تعلق بالنقطة الأولى،

"ولابد أن يهتم المرء باستبعاد العوائق من كل نوع مما تعمل فيه الانفعالات بين الحقيقة و بين أُذن السلطة،... وحدود الدولة لن تستطيع كبت نشاط الطبقة الثانية، وأحيانًا ما قد يأتى الإخوان من أمم مختلفة بخير عظيم فى تنسيق هذا الحماس".

أما عن الغاية الثانية،

"ألا يجدر بنا اقتراح تقدم المسيحية كما نهدف إلى تقدم محفلنا؟ ويلزم هذا المشروع أن يتكون من جزئين، فمن الضرورى أن يعمل كل جزء على جمع الآخرين معا،... ولا بد لنا من تأسيس لجان متناظرة من قساوسة الطوائف المختلفة التى لابد من ضمها وتعميدها، وسوف نعمل بتؤدة ولكن بيقين، ولن نقوم بأى انتصار لا يناسب العمل الأعظم،... فكل شىء يعين على الإسهام فى تقدم الدين والتخلص من مخاطر الرأى، أى رفع عرش الحقيقة على أنقاض الخرافة والبيرهونية".

ونأتى أخيرًا إلى الطبقة الثالثة التى ستكون غايتها ما أسماه دى مايستر 'المسيحية المتعالية *transcendent Christianity*' والتى تعنى عنده "وحى الوحى"، الذى ينطوى على 'العلوم السرية' التى ذكرناها سلفا، وهكذا "نجد حلولاً فى المعارف التى نحوزها لكثير من المصاعب المزعجة"، ويقول،

"وسوف يعكف الإخوة الذين يصلون إلى المراتب العليا على التأمل العميق والبحث الواقعى والمعرفة الميتافيزيقية،... فكل ما فى العهدين القديم والجديد أسرار، والمتفوقون فى القانونين هم المعمدون حقًا، وسوف يبحثون فى هذه المراجع الجليلة عن كيفية فهم الاستعارات والكنايات المقدسة، فمن يشك فى أن هذا البحث إعداد لانتصارنا على الكُتاب المحدثين الذين يرون فى الكتب المقدسة المعانى الحرفية فحسب؟ فقد انكشف ضلالهم بواقع تعبير 'أسرار الدين' الذى نستخدمه يوميًا دون التعمق فى معناه، فكلمة 'أسرار' تعنى من حيث المبدأ ما خفى وراء الرمز عند من يفقهون".

فهل يمكن التوكيد بطريقة أوضح على وجود الجوانية عمومًا والمسيحية خصوصا؟ وتأييدًا لذلك يلجأ دى مايستر إلى اقتباس عدد من عبارات كتاب 'العالم البدائى *Monde Primitif*' الذى وضعه كونت دى جيبلين *Count de Gebelin*، لكن كل من يبحث فى ذلك النطاق الشاسع سوف يجد أمرًا أو آخر ينشغل به بقدر إمكانه،

"وسوف يستغرق البعض بشجاعة فى استيعاب الدراسات التى يمكن أن تضاعف مؤهلاتنا وتفسر ما نحتكم عليه، وسوف تدعو عبقرية الآخرين إلى التأملات الميتافيزيقية ليبحثوا عن براهين لمذهبنا بطبيعة الأمور، وأخيرًا سيقول لنا الآخرون ما تعلموا من الروح التى تهب من حيث تهوى".

وليس الإلهام المباشر الذى عبر عنه دى مايستر فى هذه العبارة الأخيرة هو أهم ما فى الأمور.

ولم يبدأ تنفيذ هذا المشروع مطلقًا، ولا نعلم ما إذا كان دوق برونسفيك قد علم بوجوده أصلاً، ولكنه لم يكن خرافيًا كما قد يظن البعض، ونعتقد أنه مناسب تمامًا لإثارة تأملات مهمة فى يومنا هذا كما كان يوم استيعابه، ولذا أوردنا منه مقتبسات طويلة، وإجمالاً يمكن التعبير عن الفكرة العامة التى تبرز فيه دون إنكارها أو كبت اختلافاتها ولا خصائصها القومية، بل علينا التعمق فيها بقدر الإمكان رغم ادعاءات العالميين *internationalists* اليوم، فهى مسألة استرجاع ما يفوق الطبيعة وليس توحيد العالم بالمسيحية القديمة، وهى وحدة تمزقت على يد الأحزاب الكُثر التى "فتقت الرداء"، ثم نعلو بها إلى الكلية *universality* بإدراك أن الكاثوليكية بمعناها الحق كما عبر عنها فرونسكى *Wronski* سوف تكون فعالة عندما تنجح فى إدماج كل الأديان التى احتوت عليها الكتب المقدسة لكل الشعوب فحسب، ومن الضرورى ملاحظة أن جوزيف دى مايستر لابد أن يُعدَّ فى النطاق الفكرى الذى التزمنا به على الدوام، فنحن نعتقد أنه لن يوجد تفاهم بين الشعوب التى تنتمى إلى حضارات متنوعة إلا بحضارة تقوم على المبادئ بمعنى الكلمة، وبدون هذا الأساس المذهبى لن يمكن بناء أى أمر ملموس، وكل المخططات السياسية والاقتصادية سوف تصاب بالعِقَم والعجز فى هذا الصدد أكثر من الاعتبارات الانفعالية، فى حين أنه لو تحقق الاتفاق على المبادئ فإن التفاهم سوف يمتد إلى كل المجالات.

ولا نشك فى أن الماسونية فى نهاية القرن الثامن عشر لم تكن تحتكم على الوسائل اللازمة لإنجاز 'العمل الأعظم' الذى لابد قد أفلت بعضها من انتباه دى مايستر ذاته، فهل يعنى ذلك قول إن المخطط لن تتولاه إحدى المنظمات التعميدية الحقة التى لديها 'خيط أريادنا' الذى يهديها فى متاهة الصور التى تحجب التراث الخفى، وحتى نستعيد 'العالم المفقود' ونترك نور الظلال ونظام الفوضى، ولا نرغب فى التحيز لمستقبل بعينه بأى طريق كان، لكن هناك علامات تسمح لنا رغم كل المظاهر المحبِطة للزمن الراهن بالاعتقاد بعدم استحالتها، وسوف

نختم هذا الباب بعبارة تنبؤية من أقوال جوزيف دى مايستر فى اللقاء الثاتى من أمسيات بترسبوج، "ولا مناص لنا من الاستعداد لحدث ربانى نسعى إليه بسرعة متزايدة لابد أن يُذهل المراقبين، فقد أعلنت الطوالع المنذرة أن الوقت قد حان".

19 التقوى الصارمة والرؤساء المجهولون

لقد جرَّنا البحث فى محفل الشعائر الاسكتلندية المعدَّلة إلى التصدى لمهمة تكملته بدراسة جماعة 'التقوى الصارمة *Strict Observance*'، وهو موضوع غامض وعميق أدى إلى تناقضات شتى، وحيث كنا فى انتظار نشر هذه الدراسة فسوف نعكف على تتبع وثائق أخرى ظهرت عن هذه المسألة لنربطها بما نعلم.

ويكتب جالياتو *Eques a Capite Galeato* بصفته أحد الوكلاء بأرشيف فيلاليث *Archives of Philalethe*[1]، ويصف كُتَّاب كاليوسترو بأنهم يرددون أفكاره، ولكن الواقعة المهمة هى رؤية التقوى على هذا المنوال[2]،

إن هؤلاء الكتّاب مشكلة للمراقب اللاممتحيز، ويقول البعض إنهم من الجيزويت! الذين يرغبون فى إعلاء شأنهم سرًا بتكوين جماعة كهنوتية على مذهب التقوى الصارمة[3].

---

[1] وقد كان السكرتير العام لمؤتمر باريس عام *1785*، ثم كُلِّف وحده أولا ثم لحقه بارون جلايتشين لتأسيس علاقة مع كاليوسترو حتى يعبر عن نواياه، لكنه سافر على عجل بعد طلبوا منه كتابة خطاب إلى المحفل المصرى الأم، وتم اختيار الماسونى *Beyerle* برتبة *Eques a Faschi* فى محفل التقوى الصارمة، وقد سجل المقال الذى تناول أمر كالياسترو ومؤتمر باريس فى كتاب ثورى *Acta Latomorum*، *vol. II, pp102-127*.

[2] أو هى التقوى العالية *High-Observance* كما سماها ثورى فى المرجع السابق *vol. II, p103* .

[3] وقد نشر الماسونى راجون *Ragon* وكثير من الكتّاب الماسونيين حتى ليموزين هذه الأسطورة، كما عزوا قيام محفل التقوى الصارمة إلى الجيزويت، وتحدث دى رايبكور *de Ribeaucourt* كذلك عن 'الرؤساء غير المعروفين' فى ذاكرة الجيزويت، وقالوا إن الحروف الأولى *S.I.* أو *S.J.* تعبر

ويقول غيرهم إنهم كونفيدرالية جديدة تقوم على الكبرياء والنذالة، وترغب فى السيطرة بصور وأفكار علمية مغتصبة من المخطوطات والكتب النادرة فى محفل الصليب الوردى فى القرن السابع عشر[4].

ويقول غيرهم إنهم كهنة الطائفة القديمة لفرسان المعبد وليس الفرسان البسطاء، وأن لهم مذهب ومجاهدات وعلوم غيبية، ويكلفون كلا منهم بما يطيقه من قائمة العلوم بحسب موهبته[5].

والحق إن غموض الكُتّاب وردود فعلهم وتركيبهم وجرأة إجراءاتهم كانوا يشجعون الناس على قول ما يرغبون عنهم، ويضيف بينيامين فابر "يبدو أن هدفهم كان فرض أنفسهم على محفل التقوى الصارمة[6] حتى يسيطروا على محافلها، والتى انتشرت فى أوروبا والعالم الجديد،

....

عن *Jesu Societas*، كما أن تلاعبا لفظيا آخر قد جرى قصدا على كلمة *Clerici* بمعنى 'كهنة' فى حين أن معناها الصحيح *scholars* بمعنى 'دارسين' لمعرفة مخصوصة، كما زعم البعض أن الجيزويت هم أصل محفل المشرق الفرنسى *Grand-Orient de France*، ويبدو أن هذا الأمر قد صار هاجسا واقعيا.

[4] *Some time around 1610 the Rose-Cross Brotherhood in question published the Fama Fraternitatis, sought in vain by Descartes throughout Germany, and followed by various other manifestos. Several modern societies with initiatic claims have been founded solely on the study of the doctrines and theories contained in these writings; their adepts (?) thus believe they can mystically link themselves to the authors. The tendencies of the original group were quite clearlyprotestantand antipapist, to such a degree that Kazauer interpreted the three letters F.R.C. (Fratres Rosae-Crucis)as signifying Fratres Religionis Calvinisticae, 'for they adorn their works with texts dear to the Reformation' (cited by Sedir, Histoire des Rose-Croix, p65). This explanation, if not more literally correct, is perhaps at least more fair than that identifying the Unknown Superiors with the Jesuits,or than the opinion of F:. Ragon, who attributes to the Jesuits the invention of the Masonic grade that carries precisely the name Rosy-Cross.*

[5] *We underline this passage, for it is particularly important in regard to the adaptation of initiatic teaching to the capacities, intellectual or otherwise, of those admitted into it. - Certain contemporary occultists, always driven by the sameobsession, maintain that the true successors to the Templarsin this era were the Jesuits,who for their part had renewed their plan of vengeance against the Royalty, the most active agents of this enterprise having been Fenelon (!) and Ramsay (cf. Papus, Willermosisme, Martinisme et Franc-Maconnerie,pp10-11). Under the influence of the same ideas, some have been led, contrary to plausibility, to see the Jesuits as the inspirers and secret leaders of the Illumined Ones of Bavaria; there are some who have moreover not hesitated to present Baron de Hundt as 'thecreator of High German Masonry or German Jlluminism'(ibid., p67)-a singularmanner of writing history!*

[6] *Just as the latter had itself, like all other systems of highgrades, been superimposed upon the entire outward order of Symbolic Masonry.*

وأن يترأس رهبانها كل محافل التقوى الصارمة[7] وفى عام *1716* اتسع الشقاق الذى بدأ بقوى غيبية، والذى ظهر فى أول أمره فى فيينا فى محفل التقوى الصارمة، وظهر فى هذه الفترة وما تلاها لسبب أو آخر أن بارون هونديت إيكواس أب إينس *Eques ab Ense* فقد الثقة كما فقد منصبه الذى كان سبب نفوذه، أى الاتصال بالرؤساء المجهولين، وحينما انعقد مؤتمر برونسفيك عام *1775* كان بارون هونديت ممثل الأستاذ الأعظم روبرا *Eques a Penna Rubra*،... وكان لا يربو عن ظل لظل، وربما كانت الفضيحة التى أصابت زعيم محفل التقوى الصارمة قد وصلت كذلك إلى الأستاذ الأعظم الذى كان وسيطًا بين هوندت وبين الرؤساء الحقيقيين المجهولين[8].

.:.

وكان ستاريك *F:. Starck* أحد قادة الشقاق، وكان واعظًا فى بلاط بروسيا وأستاذًا فى اللاهوت البروتستنتى. والعلوم الماسونية، والذى كان أساتذته جوجوموس و شرويفر وكان الأول يكتب اسمه *Gugomos, Gouygomos, Kukumus, Cucumur, etc.*,، أما الهجاء المضبوط فلم يكن مؤكدا، كما يظهر فى قائمة الأعضاء باسمه الماسونى إيكوس أ كوينو تريومفانتى *Eques*[9] *a Cygno Triomphante*، برتبة 'ضابط الخدمة البروسية' كما جاء فى خطاب أمير كورولاث *F:. Prince de Carolath* إلى ماركيز دى لانج *F:. Marquis de Savalette de Langes*[10]

وقد جاء كوكوموس *Coucoumous [sic]or Kukumus* من أسرة منحدرة من سواب، وعمل بنجاح فى معظم الإدارات الألمانية فى الجيش وأحيانًا فى الخدمة المدنية، وكان موضع

---

[7] *The Clerks of the Late Observance offered to communicate the true statutes and instructions of the Order of the Tempars to the Lodges of the Strict Observance' (Acta Latomorum,vol. 1, p90). - Their Unknown Superiors were Baron de Raven (Theodosius, Equesa Margarita) at Ranefeld in Mecklembourg, the preacher Starck (Archidemides, Equesab Aquila Fuiva), doctor of theology, at Darmstadt and at Koenigsberg, and the private counselor Duffel at Lille (ibid., vol. ,, p91, and vol. n, pp 313,369, and 383)*

[8] *The mysterious Grand-Master in question here must not be confused with the official Superior General of the Lodges of the Strict Observance, Frederic de Brunswick-Oels, Eques a Leone Aurea, who was elected to this position in 1772 at the Convention of Kohio near Pforten in the Basse-Lusace. It is furthermore not a question of the Grand-Master of the Templars, who was officially recognized by no less than the Strict Obserwmce, and then by the Reforme de Wilhelmsbad: from 1743 to 1788 the latter was the pretender Charles-Edward Stuart, Eques a Sole Aureo, whose successor from 1788 to 1792 was Duke Ferdinand de Brunswick, Eques a Victoria, then, from this last date on, Prince Charles de Hesse, Eques a Leone Resugente.*

[9] *Thory, op. cit., vol. II, pp136 and 328.*

[10] *Cited in the article by Benjamin Fabre.*

إعجاب لمواهبه وموضع احتقار لوضاعته وسوء سلوكه، وكان قهرمانًا لدوق فيرتمبرج 'كذا'.

ويقول كلافيل *F. Clavel*[11] ،

وقد ظهر هذا الجوجوموس فى ألمانيا العليا، وقيل إنه أرسل من قبرص[12] مبعوثًا من طرف الرؤساء المجهولين للقديس سييج *Saint Siege*(?)، وأسبغ على نفسه ألقاب الكاهن الأكبر والفارس والأمير، ووعد بتدريس صناعة الذهب وإحياء الموتى وتعيين أماكن كنوز فرسان المعبد المدفونة، وقد انكشف بعد هنيهة، وحاول الهرب ولكنه قُبض عليه، واضطروه إلى التراجع عما ادعى كتابة، والاعتراف بأنه ليس إلا محتالا بسيطًا[13].

وما سنراه لا يسمح لنا بقبول هذه الاستنتاجات تمامًا، فربما كان جوجوموس محتالا وقد يكون قد تصرف كمحتال فى ظروف بعينها، ولكنه كان شيئًا آخر كذلك فى شطر من أعماله على الأقل، ونرى من ناحيتنا أن ذلك كله قد نتج عن خطاب أمير كوررولاث المذكور الذى جاء فيه،

فقد ادعى معرفة العلوم الغيبية زمنًا طويلاً، ولكن ذلك كان فى إيطاليا التى شكلته فى هذا الاتجاه، ونحن على يقين من أنه عاد من هناك بمعارف نادرة للغاية، ولم يتوان عن ممارستها بعد أن عاد إلى وطنه، ومارس تحضير الأرواح زمنا، ويمكن أن نؤكد أنه كان يتحكم فى نوع من البرق.

ونحن على يقين من أنه كان يتحكم فى نوع بعينه من البرق، وعن شهود عيان علمنا أن بعض أحبار اليهود فى شمال أفريقيا[14] لديهم قدرة على إثارة بروق بفعل حروف أو أشكال

---

[11] *Histoire pittoresque de la Franc-Maconerie, p187.*

[12] *It would perhaps be a mistake to take Cyprus literally here, for High Masonry of the eighteenth century had its own geography, of which we shall some day speak further.*

[13] *Clavel has taken this passage almost word for word from Thory's Acta Latomorum.*

[14] ويهود شمال أفريقيا 'سفرديم' بمعنى اليهود من أصل أسبانى وبرتغالى، ويدَّعون أن تراثهم فى القبالة أكثر نقاءا من يهود ألمانيا 'اشكنازى'.

قبالية، وصنع عواصف مصغرة بما فيها الرعد والبرق والسحاب ... إلى آخرها فى غرفة يقومون فيها بأعمالهم[15]، وربما كان ذلك أو ما شابهه هو ما فعله جوجوموس، ويدفع بنا منظور يهودى بعينه إلى تذكر راهب غامض باسم فالمون *Valmont* كان يعود من أفريقيا إلى إيطاليا أو فرنسا، وقد عمَّد بارون فايشتر *Baron de Waechter*[16].

وقد يكون مثيرًا أن نعرف معلومات دقيقة عن ’الحروف‘ التى استخدمها جوجوموس فى ’أعماله‘، كما أن الفلاليين *Philalethes* وكثير من الريجمستات *Regimesthat* المنافسين حاولوا بكثير من الحماس وقليل من النجاح أن "يخرجوا من الظلام نورا" أو أن "يجعلوا من الفوضى نظامًا"، ولكن من منهم فى ذلك الزمن[17] يمكن أن يفخر بادعاء امتلاك الحروف الحقيقية، أو بالحرى من الذى يستطيع أن يُصور بها ما تراه عيون الرؤساء المجهولين كقوة مشروعة؟ وقد كان تدمير أو اختفاء المكتبات يحدث بطرق لا تثير الشك، ألم يكن المحفل العام لانجلترا الذى كان يرأسه القس آندرسون الرئيس الأسبق لمحفل عامل أول من ضرب مثلا على ذلك الإجراء أو الأمر بين عامى *1717* و *1721*؟[18].

ولكن لنكمل اقتباسنا،

وقد لفتت هذه المدهشات أنظار العالم الماسونى، فلم يكن جوجوموس يعرض معرفته على الدنيويين.
وقد كانت تلك السرِّية عند جوجوموس من أول مبادئ الحذر، ولكن فى إطار الدوائر الماسونية كان عليه أن يحذر لمصلحته وكذلك ’لمهمته‘، وربما كان العرض ’لمعرفته‘ الذى قام به أحد أسباب فضيحته كما سنرى فيما يلى،
وقد كان مفعمًا بالثقة فى نفسه وجرؤ على الاجتماع بالمؤتمر العام حيث انتوى استعراض معرفته النادرة، ولكن يااللعجب! فقد هجرته قواه ولم يستطع أن يفعل

---

[15] ولنتذكر هنا وجود ’صانعوا المطر‘ فى شعوب عدة، وخاصة بين سكان أفريقيا السود، ويمكن تعدادهم بين أكثر الأعضاء نفوذا فى جمعيات سرية متنوعة.

[16] *16. 'Baron de Waechter, Danish ambassador to Ratisbonne, ardent zealot of the System of the Strict Observance, in which he was known under the characteristic name Equesa Ceraso' (Thory, op. cit., t. 11, p 392). - Benjamin Fabre has devoted other articles to this figure.*

[17] *17.* ويرجع خطاب أمير كوروﻻث إلى عام *1781* الذى سبق إقامة ديرا فيلهيلمزباند.

[18] *18.* ويمكننا فى هذه المناسبة إضافة أن هذا الإجراء لازال متبعا فى كثير من الماسونيات الرشيدة.

الأمور التى كان يفخر بها، زد على ذلك أنه مُنع من حضور المحفل بسبب سوء سلوكه، ومن ثم طفق يجول هائما، ولكننا على يقين من أنه استعاد شطراً من معرفته، ولا يُعرف له الآن مقرًا.

وهكذا هجره الرؤساء المخفيين الذى كان عندهم آلة فحسب، وفقد كل قواه فى الوقت الذى كان فى أشد احتياج لها، ويجوز إنه كان لديه بعض الألاعيب حتى يبرر دعاويه، وهى دعاوٍ لم تعد تساندها قوى حقيقية، ولم يكن لها إلا مستودع مؤقت، كما أن طبيعة هذه الدعاوى لا يمكن إثباتها بأى وثيقة مكتوبة، وحتى المراتب العليا فى الماسونية لم تكن تستطيع حل شفرتها[19]، وفى هذه الظروف التعسة التى كانت الأسئلة تنهشه لم يكن أمامه إلا الاعتراف بالدجل، ومن ثم طُرِد من المحفل، أى من المراتب العليا المعروفة للمنظومة الداخلية للماسونية الرمزية، والتى لازالت برانية بالقياس إلى غيرها من الذين كان جوجوموس مرتبطًا بهم، إلا أنه كان مقبولا هامشياً وليس معمدًا على الحقيقة.

ولم ليكن سوء طالعه أقل إدهاشًا لولا أن تاريخ الماسونية العليا فى هذه الفترة قد شهد عددًا من الحالات المشابهة على منوال بارون دى هوندت و ستارك و شرويفر ... إلى آخره، ناهيك عن كاليوسترو، كما أننا نعلم حتى فى أيامنا عن مصير مشابه لعملاء أو مرسلين لرؤساء حقيقيين غير معروفين أخطأوا أو فشلوا فى مهمتهم وانسحبت منهم قواهم على الفور[20]، وقد تكون تلك الفضائح مؤقتة، وربما كانت هذه حالة جوجوموس، لكن خطاب سافاليت دى لانج *Savalette de Langes* كان مخطئًا أو سئ التعبير عندما كتب "إنه كان يمكن أن يستعيد

---

[19] ولم يستطع بارون هوندت نفسه أن يفسر الأشكال التى وردت فى شهادته الشفرية، وقد يأس أعضاء المحفل الأعظم لفرنسا من قراءة عمودين من الرموز بأعلى 'اسم تأسيس المحفل الأول'، ولنتذكر ما قاله *Equesa Capite Galeato* عن هذا الموضوع، "إن هذين العمودين يسمحا لمراتب عليا بالتعرف على بعضهم بعضا عند الدخول إلى أحد محافلنا حيث إنهم لا يحملون شهادات بمراكزهم".

[20] وقد يكون ذلك رائعا عند بعض المناهضين للماسونية من المؤرخين المؤمنين 'بمنهاج الوضعية' الذين يرون أن وجود 'الرؤساء المخفيين' ليس إلا "دعوى ماسونية زائفة"، ولكن لدينا أسباب أخرى لعدم الموافقة بدورنا على هذا الحكم الفصيح، وربما لم ننتبه إلى أن كل ما طرحنا منضبط تماما، وعلى الذين يتمسكون بقناعاتهم السلبية أن يلجأوا للوثائق المكتوبة للبرهنة عليها.

شطراً من معرفته"، فلو كانت القوى يمكن أن تُعطى وتؤخَذ بإرادة الرؤساء المخفيين فإن الحالة تختلف فيما تعلق بالمعرفة، فإن تلك المعرفة تحصل وتظل فعالة طوال التعميد مهما كان نقصه.

وقد تردد أمير كارولاث الذى كان قاسياً على جوجوموس فى إدانته بالاحتيال، ولم يصل إلى حكم عليه، ويبدو أنه كان يشك فى جودة 'المعرفة' لا فى حقيقتها،

وقد استطاع ويتشتر *Waechter* فى الكونجرس الماسونى إدانة جوجوموس[21]، ويبدو أن جوجوموس لم يكن فيه النور الحقيقى لاستمراره على علاقة قامت على روح دنسة، مما أسهم فى انحرافه وانحراف غيره، وصنع لنفسه قيوداً جديدة بدلا من التخلص من قيوده القديمة، ويبدو أن جوجوموس قد أغرته بعض القوى السفلية التى ارتبطت به بلا فكاك بمجرد ممارستها، وربما كان ذلك سبباً فى تجريده، فلا تتفق هذه الأمور مع منظور رؤسائه المخفيين[22].

ونجد فى خطاب آخر من سافاليت دى لانج *Savalette de Langes* عن موضوع جوجوموس أو كوكوموس أن بارون دى جليتشين *Baron of Gleichen* أعلن أنه 'محتال'، رغم أنه سارع بإضافة "ولكنى لا أعلم شيئًا عن مذهبه الذى كنت متأكدًا من أن به أمرٌ خبيث"، وبصرف النظر عن قواه فقد كان جوجوموس يحتكم على الأقل بقايا مذهب، وربما وجد فيه مالا يهمه، إلا أنه كان ينطوى على 'معرفة حقَّة' كما لابد قد اكتسبها على نفقته، فمن تلقى هذه المعرفة؟ وهذا السؤال أشد أهمية من مسألة جوجوموس ذاته، وتثير الشك فى القيم الأخلاقية، وهو ما يربو إلى سؤال "من هم أساتذته المجهولين؟"، ولا نملك بالطبع قبول إجابة من دى جليتشين الذى كان يتملكه هاجس رأيناه فى كثير من الأمور، لكنه يصرح "بأن

---

[21] ويضيف ثورى بعد حديثه عن جوجوموس "أن بارون ويتشتر *Waechter (Equesa Ceraso)* أرسل ممثلا لإيطاليا فى المحفل الأعظم الاسكتلندى السابق للماسونيين، وكان السبب الخفى لرحلته توحيد الماسونيين الإيطاليين بالمحافل الفرانكوفونية، وكان الدافع الواضح هو اكتشاف سر المحفل، والذى يُقال إنه كان معلوما فى تلك البلاد، ومن ثم أنشأ هناك عدة فروع"..

[22] ولنقتبس هنا عبارة من خطاب أمير كارولاث الذى سيفصح عن مزيد من النفوذ اليهودى، "لقد ادعى كوكوموس فى مؤتمر فيزبادين قدرته على تقديم قربان تلتهمه نيران السماء على الفور بحميَّة صلواته"، ونجد فى هذه الأفكار الغريبة فى دراسة مذهب الكهنة المختارون ومحفل كاليوسترو المصرى.

معظم الناس يعتقدون أنه دسيسة من الجيزويت! والذين حاولوا مرارًا الانضمام إلى الماسونية"، وكان بين اليهود من غير الجيزويت من حاول المحاولة ذاتها بعد استبعادهم منها، زد على ذلك أنهم لازالوا أعضاءًا فى عدة محافل فى السويد وألمانيا، وقد كانت ألمانيا هى البلد الذى شهد مولد معظم الأنظمة التى اتخذت مذهب التقوى الصارمة كنموذج أولى، وليس ذلك لقول إنهم من الأصل ذاته واقعيًا، وهو ما نعتقد أنه أمر غير محتمل، ولكن من السهل فهم أن احتلال المراتب العليا بمبعوثين بلا تفويض رسمى يعن إمكان توجيه الماسونية فى الخفاء، ويكفى ذلك لتفسير مجافل المحاولات لتحقيق هذا الهدف[23].

∴

ولنفتح هنا قوسًا، فإن بعض الناس أحيانًا يُلامون على رؤية النفوذ اليهودى فى كل أين، ورغم عدم حتمية رؤيه هذا النفوذ على نحو قصرى فإن هناك من يسقطوا فى التزيد العكسى بحيث لا يريدون رؤيته مطلقًا، وهذا ما يحدث على الخصوص فى شأن فولك الغامض الذى يعتقد البعض أنه زعيم اليهود[24]، كما أن هناك من يرغب فى مضاهاته بإيرنست فولك *Ernest Falcke* أو هو *Epimenides, Equsesa Rostro*، الأستاذ الأعظم فى محفل هانوفر، لكن ذلك لا يفسر الشائعات عنه فى ذلك الحين، فمن كان ذلك الشخص الملغز وماذا كان دوره؟ وذلك شأنه كشأن كثير غيره لابد أن يتضح، ويبدو أن أمره أشد عوصًا من أمر جوجوموس.

---

[23] وحتى نفرغ من جوجومس نقول إن القاضى طالب بمحاكمته هو وتلاميذه جميعا، "وهذه القضايا تطلبت صوما تاما وأثارت مشاكلا دقيقة"، ولا بد أن نتذكر هذه الإجراءات التعميدية حتى نتمكن من المشاكلة بينها على نحو أفضل، وسوف نعود إليها لاحقًا، فيبدو أن كوكوموس قدم إلى بارون دى هوندت شهادة غريبة، لكن ذلك لا يبرهن شيء معه ولا ضده من حيث حقيقة 'مهمته'، كما رفض الماسونيين الفرنسيين من الطبقات العليا الاعتراف 'بالرؤساء المخفيين' دون إنكار لحقيقة وجودهم، وأيا كان ما يقوله المؤرخون الوضعيون.

[24] *See page 84 of the work by Benjamin Fabre.*

أما عن فولك ستشيك Falk-Scheck فقد روى لنا كتاب ' مذكرات تاريخية عن المارتينيزية Notice historique sur le Martinesisme ' والمارتينيزية التى سنتناولها لاحقا، ويقول،

"تفخر السيدة دى لاكروا طاردة العفاريت التى عادة ما تكون مسكونة بأنها حطمت تعويذة من جوهرة لابيس لازولى أصابت دوق شارتر فيليب إيجاليت الذى أصبح دوق أورليانز فيما بعد والأستاذ الأعظم للماسونية الفرنسية، وقد دسها عليه الرابى الأعظم لليهود فى انجلترا فولك ستشيك كان من شأنها أن تقوده إلى العرش، وكاد صدرها يتحطم من صلواتها.

وسواء أكان لهذه الرواية ما يبررها أو لم يكن فإنها تلقى ضوءًا فريدًا على النفوذ الذى أدى إلى الإعداد للثورة.

∴

وقد خصص بنيامين فابر خاتمة مقاله[25] للماسونى شكروفر Schroepfer الذى أمضى حياة حافلة بالأحداث والتى انتهت بانتحاره[26]، وقد أعلنت لنا فى ضوء غريب فى رسالة إلى سافاليت دى لانج وصف فيها بويار أحد شطحاته التى شاهدها بنفسه كما يلى،

"فى سياق اجتماع عام للماسونية اشتمل على كل الشخصيات ما بين لايبزيج إلى فرانكفورت وكلهم رجال أدب وعلم ... إلى آخرة، وبعد العشاء فى محفل عادى طلب منا شكروفر أن نتخلص من أى معادن نحملها، وأعد لنفسه مائدة منفصلة وضع عليها بطاقة عليها أشكال وحروف لا نعلم عنها شيئا، وطلب منا أن نرتل صلاة طويلة شديدة الأثر، وتحلقنا فى دائرة، وفى الساعة الواحدة صباحًا سمعنا صليل سلاسل ودقات شديدة فى غرفة مغلقة جعلتنا ننبطح على الأرض، ثم بدأ

---

[25] *La Bastille,September 13, 1913issue.*

[26] وقد قال ثورى "إن شرويدر ظهر كصاحب مطعم فى اكتوبر *1768* فى لايبزيج حيث أقام مركزه للسحر وتحضير الأرواح، ومن ثم تعقبوه واتهموه بالاحتيال، وبعد ستة سنوات أطلق النار على رأسه فى *8* اكتوبر عام *1774* فى ضاحية روزنتال بالقرب لايبزيج فى عامه الخامس والثلاثين".

فى تلاوة صلاة مع مساعده بلغة لم أفهمها، وخرج من الغرفة التى كانت مغلقة بالأقفال على أثرها شبح أسود سماه ’روح الشر‘، وخاطبه باللغة ذاتها، فاستدار الشبح وانصرف طائعا، وفى الساعة الثانية جاء آخر سماه ’روح الخير‘ ثم انصرف بدوره، وعدنا إلى منازلنا ورؤسنا تدور بالأشباح..."

وقال جاليتو إن مشاهداً آخر قال له "ليست هذه الأحداث إلا أوهاماً فيزيقية حفزها تصديق المشاهدين"، إلا أن دكتور كويرنر اعترف "بأنه فشل فى التصالح مع المنظور المتناقض للرجل"، بينما يؤكد ماسّينيه *Massenet*،

لقد كان هذا الرجل ذاته هو الذى عرض أمام مارشال ساكسونى[27] و الأمير تشارلز أوف كورتلاند[28] وحضور ستة شهود أيدوا الوقائع ذاتها رغم أنهم كانوا لا يميلون إلى تصديقه من قبل.

فماذا يمكن استنتاجه من كل ذلك؟ وعلى وجه التأكيد أن تكوين رأى عن هذه ’الظاهرة الروحية‘ التى أطلقها شكروفر يصعب علينا أكثر من معاصريه، كما قال عنه تلامذته مثل بارون دى بيو يه و شامبرلين، ولو اعتمدنا على سافاليت دى لانج فى النقطة ذاتها عن ’النور الحق‘ بعد أن شهدنا كثيراً من الدكاترة والثيوزوفيين والهرامسة والقباليين والروحانيين فإن هذه نتيجة عامية![29] وكل ما يمكن قوله لو أن شكروفر قد امتلك حقًّا قوى حقيقية بعينها فهى من مقام أحط حتى من جوجوموس، وإيجازاً فإن الأشخاص من هذا النوع لم يتم تعميدهم بالكامل، ويختفون بطريقة أو أخرى بعد القيام بدورهم العابر تخدم للرؤساء المجهولين[30]، وكما

---

[27] ولابد أن يكون ذلك قد حدث بين عامى *1768* و *1774*، والعام الذى مات فيه مارشال ساكسونى *1750* الذى كان ماسونيا، وحصل على عدة أصوات فى انتخاب الأستاذ الأكبر برعاية كونت كليرمونت عام *1743*.

[28] *'Charles, Duke de Courlande, member of the Strict Observance under the title Equesa Coronis'.*

[29] *29.* ويمكن الحكم على الأسئلة التى طرحها بروبوننda *Proponenda* على مؤتمر باريس الذى عقده الفيلاليثيون عام *1785*، وقد عالج كثير من الغيبيين فى زمننا هذه الأسئلة ذاتها على نحو خيالى، وهو ما يبرهن على أنهم دائما فى النقطة ذاتها.

[30] *30.* ويبدو فى الواقع أن ذلك ينطبق بالتساوى على كولمر *Kolmer* المذكور سلفا وعلى شرويدر *Schroeder* أستاذ الصليب الوردى فى فيتسلار، والذى يختلط اسمه أحيانا باسم *Schroepfer*،

قال فابر مصيباً "إن القباليين والسحرة والأفاقين واللصوص كانوا سادة ستارك"، ويضيف "وفى هذه المدرسة فإن التلميذ الذكى يعلم كيف يستفيد كثيرًا كما سنرى".

∴

وقد كانت المقالة[31] التى تبعتها عن ستارك *Archidemides, Eques ab Aquila Fulva*، والذى وجدنا له ذكرًا فى مؤتمر برونسفيك فى مايو عام *1775* وهو يجادل بارون دى هوندت مؤسس محفل التقوى الصارمة والذى أسهم ستارك فى تنحيته عن رئاسته للمحفل ولكنه لم ينجح فى البرهنة على دعواه، وكما سنرى عندما نعود إلى هذه النقطة، ولكن نشير أولا إلى عام *1779*[32] حينما قام ستارك بمحاولة فاشلة أخرى تحدث عنها ثورى *Thory* بما يلى، "لقد جمع دكتور ستارك ’كذا‘ الإخوة والكتاب من محفل التقوى الصارمة فى ميتّاو وسعى إلى التوفيق بينهم، لكنه فشل فى هذا المشروع"[33].

وهاهنا كيف روى جلياتورى *Capite Galeatore* نهاية كُتَّاب محفل التقوى المعاصر،

تعرَّض الكُتّاب فى أحد الاجتماعات الإقليمية لمذهب التقوى الصارمة فى ألمانيا لأسئلة لم يعرفوا لها جوابًا أو لم يرغبوا فى الإجابة عليها، وكان منهما اثنين هما ستارك وبارون رافينًا من أواخر الكَتبة *Clerici* *Clerksor* قيل أنهما تبادلا الاستقالات وأنكرا أى إعلان لمحفلهما السرى.

ويعتقد البعض أن استقالتهما لم تكن إلا مسرحية، وأنهما لم يجدا فى التقوى الصارمة متحدثين على هواهما، وادعيا الزهد فى المحفل حتى لا يقفو لهم أحد أثرا،

....

والذى قدمه ثورى بهذه الألقاب "شرويدر الذى يسمى كاليوسترو ألمانيا، الذى طرح عام *1779* نظاما جديدا للسحر والثيوزوفية والخيمياء فى محافل شتراسبورج".

[31] *La Bastille, September 1913 issue.*

[32] وقد كان ذلك هو العام الذى ظهر فيه شرويدر *Schroeder* أو نظامه على الأقل، وربما كان ذلك من قبيل الصدفة، لكن قد يكون هناك أيضا علاقة بين كل هذه الشخصيات حتى لو لم يكونوا على علم بها.

[33] *Op. cit., vol. 1, p 141.*

وأنهما يمكن نسيانهما، وليكن فى ذلك ما يكون، فقد كان ستارك ماسونى فقيه وكاهن الكتاب المقدس من بين الكُتَّاب، وترك للعامة عددًا عظيمًا من الأعمال التى يمكن الحكم عليها بدرجة من المذهب وغايات المحفل السرى، وكانت بعض كتبه التى علمت شيئًا عنها *L' Apologie des F:. -M:. ;Ephestion, le But de l'Ordre des F:. M·. ;*[34] *Sur les Anciens et les Nouveaux Mysteres. The first two are translations.*[35]

ونضيف إلى ذلك أن نشرة ظهرت بعنوان *La Pierre d'achoppement et le Rocher de scandale'*، حيث هاجم فيها علنًا نظام فرسان المعبد بأنه مضلل وضد الحكومة[36]، ويحتمل أن الكُتَّاب قد كانوا مسئولون سرا، وعلى كل لم يختف ستارك عن المشهد الماسونى، فسوف يظهر مرة أخرى فى باريس عام *1785*[37]، ورغم سوء حظه فقد كان يحتكم على قدر كبير من النفوذ، فهل نندهش عندما تُسكُّ ميدالية على شرف الماسونى الفقيه بارون هوندت بعد وفاته[38]، والذى كان متهمًا بالاحتيال والدجل؟

أما عن المعلومات السرية للكتبة اللذين ادعوا حيازتها فسوف نقتبس عن ماير[39] من خطاب منه إلى سافاليت دى لانج عام *1780*،

> إنك تعلم بوجود كتبة فى محفل لن أذكر اسمه[40]، ويدعون أنهم فحسب مؤتمنون على العلوم والأسرار، ولا يناسب ذلك الماسونى الحديث الذى بلغ حب استطلاعه مداه، وبعد أن أضفى عليهم لقب الفرسان يريدون السيف والذهب، لكن السهولة التى يمكن بها لقائهم تشهد فى غير صالحهم.

وهكذا كان الماسونيون الذين حازوا الرتب العليا التى تسربت فى منظومة يُفترض أنها

---

[34] *Ober den Zweck des Freymaurer Ordens, 1781.*

[35] *Thory further cites the following works: Saint-Nicaise, ou Lettres remarquables sur la Fmnc-Maronnerie,Leipsic, 1785-1786 (ibid., p373); Sur le Catholicisme cache des Jisuites, et leur machinations pour faire des proselytes, Frankfurt-on-the-Main, 1787-1789 (ibid., p376)*

[36] *Der Stein des Anttosses, etc.*

[37] *See the list given by Thory.*

[38] *Thory adds that this medallion 'offers a quite life-like portrait of this famous Mason.'*

[39] *This F. Meyer was present at the Convention of Paris of 1785, and Thory designates him thus: 'de Meyer, Russian Major, at Strasbourg'. The same author identifies him, perhaps incorrectly, with the writer who translated from English to German a work entitled La Francc-Masonerie n'est quele chemin de l'Enfer.*

[40] ومن الواضح أنه يعنى فرسان المعبد..

جوانية لم تجد فيها سر الماسونية كذلك، ولا هم أصبحوا معمدين على وجه صحيح.

وتذكرنا هذه الملحوظة بكلمات راجون،

> ليس هناك مرتبة معلومة تعلم الحقيقة أو تحجبها، إلا أنهم يجعلون الحجاب أكثر شفافية فحسب،... والرتب التي تُمارس حتى اليوم تنتج ماسونيين غير مُعمَّدين[41]

ألا يمكن اكتشاف الرؤساء المخفيين من وراء كل هذه النظم وليس من أحد منها بعينه؟ لكن البراهين على وجودهم ليست إلا أقوالًا جزافية، فإن صعوبة اكتشافهم راجعة إلى عدم الرغبة في رؤيتهم، وهذا هو كل ما أردنا قوله، وسنكف الآن عن محاولة استنباط نتائج أخرى.

---

[41] *Rituel du Grade de Maitre, p34. - Ragon continues, quoting the well known words of F. I.I. Casanova on the secret of masonry, which only serve to confirm this declaration.*

20 عن الرؤساء المجهولين والهيولى

عندما كنا نكتب مقالنا 'التقوى الصارمة والرؤساء المجهولون' الذى أشرنا فيه إلى الهاجس الفريد الذى تملَّك ماسونيين بعينهم وكتّاب غيبيين إبان القرن الثامن عشر بحيث يرون أعمال الجيزويت فى كل أين، بما فيها الماسونية العليا والاستنارية *Illuminism*، وبالطبع لم يخطر لنا أن بين مناهضى الماسونية هاجس مماثل يستوجب الانتباه، لكن هذا ما اتضح فى مقال ظهر فى مجلة *Revue Internationale des Societes Secretesin*، فى باب بعنوان *Antimaconnique de l'Index Documentaire*،[1] بتوقيع مارتيجو *A. Martigue*، وقد قرأنا فيها هذه الفقرة المدهشة،

> لا ينبغى أن ننسى عندما ندرس الاستنارية أن فايشاوبت *Weishaupt* كان تلميذًا ومعلمًا للجيزويت، وأنه كان بالطبع يستلهم كيفية تحويلها نحو الشر بالوسائل التى اتبعها آباء إنجولد شتادت *Ingolstadt* للخير بلا جدوى،...إلا عندما استخدموها لتشكيل فايشاوبت وتلامذته الأوائل!

ورغم العناية التى صيغت بها فإن تلميحاتها تتخذ سمات خطيرة عندما تأتى من قلم مناهض للماسونية، فهل يستطيع مارتيجو تبريرها؟ وهل يمكنه تفسير السبب الذى جعل آباء القرن الثامن عشر مسئولون ولو بشكل غير مباشر عن المذاهب الثورية للأب فايشاوبت ورهبانه؟ وحتى يثبت لنا ذلك فسيبدو لنا أن آباء القرن الثامن عشر مسئولون عن النظريات الفوضوية التى ظهرت فى زمننا على يد تلميذهم السابق الأب سيباستيان فور *Brother Sebastian Faure*، ويمكن أن نستطرد طويلاً فى هذا الاتجاه، ولكن لن يكون ذلك جادًا ولا جديرًا بكاتب يدعى 'استخدام مناهج منضبطة'.

وفيما يلى ما كتب مارتيجو قبيل كتابة المقتبس السابق عن دراسة عنوانها *'Les Pieges de la Secte: le Genie des Conspirations'*، نشرتها دورية *Cahiers Romains of the Agence*

[1] *Oct. 20, 1913 issue, pp 3, 725-3, 737,*

Internationale Roma،

يبدو أن الكاتب يعرف أعمال الأب ديشامب *Father Deschamps* و بارويل *Barruel* و كلوديو جانيه *Claudio Janet* ، و كريتونو جولى *Creatineau-Joly* وهذا قدر هائل ولكنه لا يكفى، ولو كانت هذه الأعمال الجليلة التى سينتفع بها الدارسون المناهضون للماسونية قد كتبها أساتذة محترمين يمتدح كل الناس جهودهم فإننا لن نقصِّر فى ملاحظة أنها من زمن لم تكن فيه العلوم ولا النقد التاريخى قد بلغت الذروة التى وصلت إليها اليوم، فمناهجنا تكتمل يومًا عن يوم، ولذا كان من الخطر إهمال الدراسات الحديثة، ومن دواعى الأسف أن يُنظر إليها بتحيز.

ولابد أن يكون المرء متأكدًا من نفسه تمامًا عندما يدين أربعة من عظماء المعلمين المناهضين للماسونية بنقص 'الانضباط العلمى'، ولا شك أن مونتيجو شديد الثقة بما يسمى 'تقدم العلم والنقد التاريخى' وما يدعى 'علم الأديان'، ويصعب علينا اعتبار حديثه مقولة مقنعة، ولم نتوقع أن نرى مونتيجو يصرِّح بأمر بالغ 'التطورية' على هذا النحو، ونعجب ما إذا كانت المناهج التى يعارضها 'عادات مغلوطة عند البعض'، وما إذا كان يناهز تقريب 'المنهج الوضعى' الذى تناولناه من قبل، وأخيرًا لو كان يعرف 'أوراق فايشاوبت ذاته' كما يريدنا أن نفهم، فإننا نأمل أن يطرح علينا اكتشافاته التى لابد قد وجدها، وخاصة فى علاقة فايشاوبت بآباء إنجولشتاد، ولا شىء يمكن أن يبرهن على قيمة مناهجه أكثر من ذلك.

وفضلاً عن ذلك ألا يحسن أن نقتصر على دور اليهود فى بداية الاستنارية البافارية *Bavarian Illuminism* وكذلك فيما وراء 'نظم' الماسونية العليا *High Masonry*؟ ولنقتبس الفقرة التالية من دراسة عن دورية *Cahiers Romains*،

لا شك فى أن المخططات العبقرية لفايشاوبت قد كانت بإيحاء من اليهود الذين ورثوا كراهية المعبد القديم، حتى إن برنار لازار الشهير لم يتوان عن قول "لابد أن اليهود كانو يحيطون بفايشاوبت".

ونحن نذكر ذلك لأننا تحدثنا من قبل عن النفوذ اليهودى، ولكن هناك كثير من الأمور المهمة التى سترد فى هذا العمل سيعتبرها محرر *Revue Internationale des Societes Secretes*

جديرة بتحيزاته التى تقارب التعصب، فبَعد نقده على ’غياب التنوع فى وثائقه‘ فى حين أشار إلى ’قيمتها الحقيقية‘ قال "إن هناك فجوة تدعو إلى الأسف لو رغب المرء فى دراسة الاستنارية، ألا وهى الجهل بالأسرارية والغيبية"، وسوف نتناول هذه النقطة لاحقا، لكننا نود الآن الإشارة إلى أن الأسرارية التى نشأت من اللاهوت أمر وأن الغيبية أمر آخر تماما، وغالباً ما كان الغيبيون عمومًا يجهلون الأسرارية التى لا شأن لها بالأسرارية الزائفة.

ولسوء الطالع هناك أمر يجعلنا نخشى أن يكون نقد مارتيجو مجرد انفجار مزاج عكر نتيجة المقال الذى نشر فى *Cahiers Romains*، والذى احتوى على نقد مشروع فى رأينا للملخص كتاب بنيامين فابر *Un Initie des Societes Secretes superieurs: Franciswс, Eques a Capite Galeato*، الذى كتبه جوستاف بورد *Gustave Bord* فى العدد نفسه من دورية *Revue Internationale des Societes Secretes*.[2]

> ولنتذكر أن بعض المغامرين الماسونيين حاولوا فرض أنفسهم على ’المغفلين‘ فى المحافل باعتبارهم ممثلين مفوَّضين من ’الرؤساء المخفيين‘ فى مركز الطائفة بأكملها، ويلاحظ بورد أن هؤلاء المغامرين يتفاخرون فحسب، وهو ما استنتج منه عدم وجود رؤساء مخفيين، وهذا استنتاج خطير، ولو كان المغامرون المذكورون قد أساؤا التعبير عن أنفسهم كمبعوثين من الرؤساء المخفيين فليس فى ذلك ما يبرهن على عدم وجودهم، بل بالحرى يشهد بالاعتقاد العام بوجودهم، فسوف يكون غريباً أن هؤلاء المحتالين قد اخترعوا التفويض من أوله إلى آخره، وأن حساباتهم فى النجاح قد ابتنت على هذا الاعتقاد بما يقطع بأنه لا يشهد على عدم وجود الرؤساء المخفيين.

لكن ذلك ينطوى على البرهان لكل من لم يعمى بالمقولة النقيضة بأى ثمن، فإن بورد ذاته الذى كان معارضًا لمناهضة الماسونية ينكر البرهان ويتجاهله تمامًا فى تعبيره عن "موقع الخصم ومحله وتكتيكاته وقوته"، فهناك مناهضون للماسونية غاية فى الغرابة.

ولنضف إلى ذلك أن ما أشرنا إليه من ’المنهج الوضعى‘ لبعض المؤرخين كان يخطر لنا هذا الملخص بقلم جوستاف بورد، والذى ليس أقل تحيزًا من تقديرات مارتيجو، وها هو مارتيجو بدوره يتهم بنيامين فابر و كوبان ألبانتشيللى "بالرغبة فى طرح مقولة بناءًا على مقولة أسبق عن وجود المديرين المخفيين للطائفة"، أليس بورد ذاته ملومًا لدفعه بموضوعة سابقة عن الرؤساء المخفيين؟

[2] *September 5,1913 issue, pp 3, 71 and following.*

ولنعد إلى ما قاله مارتيجو عن هذه المسألة.

"أما عن النظرية التى تناقض بورد عن الرؤساء المخفيين فلا بد أن يتضح أن مدير *Cahiers Romains* يعنى أنهم رجال من لحم وعظم، ونعتقد أنه مخطئ وأن بورد كان مصيباً".

وبعد أن عدَّد بعض رؤساء الماسونية العليا فى القرن الثامن عشر قال،

"لو أنهم قدموا أنفسهم كمفوضين عن رجال أحياء لكان أحرى بنا اعتبارهم محتالين كما ينبغى فى زمننا، وعلى سبيل المثال فإن مدام بلافاتسكى و آنى بيزيه وغيرهن من زعيمات وزعماء الثيوزوفية عنما يتحدثون عن أن ماهآتما يقيم فى دير بالتبت"

ولا بد لنا من الاعتراض بشدة على أن ما يسمى ماهآتما ليس إلا اختراعا شائها عن نموذج الرؤساء المخفيين، فيندر أن يوجد أفاقون لا يعتمدون على تقليد واقع ما، كما أن الخلط الخبيث بين الحقيقى والزائف يجعلهم أشد خطورة حيث يصعب كشفهم، ومن جانب آخر كما ذكرنا ليس هناك ما يمنعنا من اعتبارهم محتالين، ففى أحوال بعينها استطاع رجال أن يكونوا وسطاء لقوى غيبية، وقد طرحنا أسباب ذلك، ولا نرى معنى فى الدفاع عن هؤلاء الأشخاص حتى لو فرضنا أن الرؤساء المجهولين ليسوا 'لحمًا وعظامًا'، فماذا كانوا عند مارتيجو؟ وسوف يبين لنا باقى الاقتباس الذى لن يكون أقل إدهاشًا فى المقال.

"ولكن ليس ذلك هو المسألة، فهو تفسير برانى تمامًا للمدنيويين لا للمريدين غير المعمَّدين"، وقد كنا حتى الآن نعتقد أن المريدين مرتبة أعلى من التعميد، ولكن لنستمر،

"إن المعنى الجوانى كان يختلف على الدوام، فالرؤساء المخفيين والمعمَّدين حقًا موجودون بلا جدال، ولكنهم يعيشون فى الهيولى، ومن هناك يوجهون بالدين والغيبية والروحانية رؤوس الطوائف فيما يقولون".

فهل هى مفاهيم خيالية على منوال المعارف الغيبية أو بالحرى غيبية بعينها لابد أن تؤدى إلى البراهين التاريخية التى لا تُدحض اليوم رغم أنف 'الانضباط' العلمى والمناهج التاريخية والنقدية؟.

وعلى مارتيجو إما أن يعترف بوجود الهيولى وسكانها من الرؤساء المخفيين أو يكون لنا الحق فى استنتاج "أن هناك مناهضون للماسونية غير جوستاف بورد فى غاية الغرابة" ، وإما ألا

نعترف بها كما نعتقد بحسب القصر الأخير الذى يفضى إلى أنه لا يملك الاعتراف بأنهم 'معمدون حقا'، ونحن نعتقد على العكس أنهم معمدين ناقصين إلى حد بعيد، وحتى حالة الأرواحيين *spiritists* على سبيل المثال لا يمكن أن تعتبر تعميدًا، كما لا ينبغى أن ننسى أن الأرواحية بدأت فى هايدزفيل عام *1847*، وأنها لم تُعرف فى فرنسا قبل الأب ريفيل *Rivail* الشهير باسم آلان كاردي *Allan Kardec*[3]، وقد قيل إنه أقام مذهبه على اتصال بأرواح سامية أشرفت على جمعها وتصحيحها ومراجعتها[4]، ولا جدال فى أن ذلك سيكون تدخلاً مدهشًا للرؤساء المجهولين حسب تعريف مارتيجو لو كنا لا نعلم أن 'الأرواح السامية' التى شاركت فى العمل ليست جميعًا بلا جسد، رغم أن إيوجين نوس و فيكتورين ساردو قد رحلا إلى 'نطاق آخر من التطور' بلغة الأرواحيين، ولازال كاميل فلاماريون يحتفل بمهرجان الصيف كل انقلاب صيفى.

وهكذا لم يكن مطروحًا فى الماسونية العليا فى القرن الثامن عشر أمر يسمى الأرواحية ولا الغيبية حتى لو وجدت 'علوم غيبية' فى ذلك الزمن، فلم يحدث أن نشأ مذهب باسم 'الغيبية'، ويبدو أن إليفاس ليفى كان أول من استخدم الاصطلاح، والذى احتكرته بعد موته عام *1875* مدرسة بعينها، ويحسن من المنظور التعميدى ألا يقال عنها شيئا، وقد كانت هذه الغيبية بعينها هى التى تحدثت عن 'عالم الهيولى' يفسرون به الأمور، وخاصة عند من يجهلون معناه، وكان إليفاس ليفى مرة أخرى هو الذى أشاع اصطلاح '*Astral* ' رغم أنه يرجع إلى باراكليسوس، ويبدو أنها لم تُعرف فى الماسونية العليا للقرن الثامن عشر، والذين لم يفهموها على كل حال شأن الغيبيين من زماننا، ولكن مارتيجو الذى لا نشك فى معرفته الغيبية على يقين من أن هذه المعرفة لا تؤدى إلا إلى 'تفسير برانى صرف'، وليس لسويدنبرج فحسب بل لكل الأرواحيين الذين يكادون أن يكونوا 'وسطاء أرواحيين'، ولنقتبس عنه هذه الفقرة،

> والرؤساء المجهولين هم الملائكة الذين أملوا على سوينبرج أعماله، وهم الحكمة عند جيشتيل و بوهم، وهم 'الشيء' عند مارتينيز باسكواليس، وهم الفيلسوف المجهول عند سان مارتان، وهم التجليات فى مدرسة الشمال، وهم جورو الثيوزوفيين، وهم الروح المتجسدة فى الوسيط الذى يرفع المائدة أو يملى خيالاً جامحًا على اللوح.. إلى آخره.

---

[3] *For extensive documentation on spiritism and Allan Kardec, see The Spiritist Falacy. ED.*

[4] *Dr Gibier, Le Spiritisme, pp136-137.*

ونحن لا نعتقد أن هذه الأمور كلها الشيء نفسه، وربما لم تكن إلا البحث عن الرؤساء المجهولين حيث لا يوجد سبب للبحث، وقد ذكرنا ما هى الأرواح فى الثيوزوفية وعند الثيوزوفيين، ونعلم ما نفعل بدعاواهم، ويجدر النظر إلى أن المجموعة الأخيرة قد أعلنت حلول ماهاجورو أى المعلم الأعظم، وهو ما يبرهن على أنهم لا يتوقعون استقبال تعاليم من 'عالم الهيولى *astral plane*'، كما أنهم لا يأبهون للتفكر فى 'الحكمة *Sophia*' التى تتحدث عن المبادئ وقد تمثلت مفهومياً عند بوهم *Boehme* و جيتشيل *Gichtel*، أما عن سويدنبيرج فقد وصف رمزياً بعض 'الهياكل الروحية' التى يمكن أن يحتلها سالكون أحياءً، وتشاكل ما نجد فى الجوانية الإسلامية.

أما عن مارتينيز دى باسكوالى فمن الصعب معرفة ما يعنى 'بالشيء'، ولكن يبدو أنه استخدمها اسماً لأى شيء بخلاف 'عملياته'، أو إلى ما يسمى عادة 'فن' أو 'صنعة'،

والغيبيون المحدثون هم الذين حاولوا رؤية الأرواح كخيالات بسيطة تتسق مع أفكارهم، لكن الأب فرانز فون بادر *Franz von Baader* يحذرنا بأن "من الخطأ الاعتقاد بأن علم الطبيعة عنده يقتصر على الأشباح والأرواح"[5]، وفى كل ذلك فإن أساس الماسونية العليا فى القرن الثامن عشر كان أقرب إلى المعنى الحقيقى للجوانيات من كل المعارف التى تتعاطاها الغيبية الحديثة التى لا تكفى للنفاذ فيها.

ولكن ما كان فريداً فى مارتينيز هو الحديث عن 'الفيلسوف المجهول عند سانت مارتين'، فى حين نعلم تمام العلم أن سانت مارتان والفيلسوف المجهول كانا شخصاً واحداً، وليس الثانى إلا اسماً زائفاً للأول، كما أننا أَلِفْنا الأساطير المرتبطة بهذا الموضوع فى دوائر بعينها، لكن هناك أمر يحل هذه المسألة على نحو يبعث على الإعجاب،

وقد عُزى اصطلاح 'الرؤساء المجهولين *Superiors Incognitior*' إلى كاتب خيالى عن الثيوسوفى سان مارتان، وربما كان من جرَّاء أنه كان يوقع كتبه باسم 'فيلسوف مجهول'، وقد كان اسماً لأحد المراتب فى طريقة 'الفلاليون *Philalethes*' التى لم يكن ينتمى إليها، والواقع أن الكاتب الخيالى عزى كتاب 'الخطل والحقيقة *Des Erreurs*

[5] *Les enseignements secrets de Martines de Pasqualy, p18.*

et de la Verite للفيلسوف المجهول إلى وسيط مجهول، وأنه يسمى نفسه *S.I.* أى الرئيس المجهول، فحينما يأخذ المرء من المجهول يحسن ألا يأخذ كثيرا[6].

ونرى فى ذلك مدى خطورة قبول بعض الغيبيات بلا تمحيص، ويصبح الحذر ضروريًا على وجه خاص، وحسبما يقول مارتيجو "لا تبالغ فى شيء".

وسوف نرتكب خطئًا جسيمًا لو أخذنا الغيبيين بجدية حين يقدمون أنفسهم كسلالة ووريثة للماسونية القديمة، إلا أننا نجد صدى من ذلك التوكيد الخيالى عند مارتيجو،

وقد أثارت مسألة الرؤساء المخفيين مشاكلاً ندرسها فى الغيبية، وهى المشاكل التى حاولت الماسونية الحرة حلها فى القرن الثامن عشر.

ناهيك عن أن التفسير الحرفى لهذه العبارة قد يجعل القراء السطحيين الذين لا وقت لديهم للتعمق يظنون أن محرر *Revue Internationale des Societes Secretes* رجل 'غيبى'.

ويضيف قائلاً "إننا نستطيع أن نرى المشكلة بوضوح عندما نحتكم تمامًا على العلوم الغيبية والأسرارية"، وهذا ما أراد إثباته فى مواجهة كاتب الوكالة العالمية فى روما، ولكنه فى الواقع لم يبرهن إلا ضد نفسه على أن هذه المعرفة ينبغى أن تنتشر إلى حدود أبعد مما افترض، ولذلك ندر أن ينفذ المناهضون للماسونية إلى هذه الأسرار، والتى لن يعرفها مطلقًا من تحوصَلَ فى أرض الوضعية، ونرى أن ذلك قابل للتبرير أكثر من كل ما تقدم، ولكن ألا يناقض ذلك ما قاله مارتيجو عن 'المناهج'؟ ثم إنه إن لم يتمسك بالمفهوم 'الوضعى' للتاريخ فلماذا يدافع عن جوستاف بورد حتى لو كان أقل الناس استحقاقًا للدفاع؟

وإن لم يتجشم المرء عناء دراسة لغة الذين يعيشون فيما يفوق الطبيعة والموضوعات التى يتحدثون عنها فى خطاباتهم وأدبياتهم فسوف يستحيل فهمهم، وهم على شاكلة السويدنبرجيين والثيوزوفيين والمارتينيزيين من القرن الثامن عشر، وسيكون الفهم أقل من ذلك للذى لا يؤمن بوجود ما يفوق الطبيعة والبيئة التى يعيشون ويتنفسون فيها يوميا.

وهذا صحيح، ولكن بصرف النظر عن أن ذلك ينطبق على بورد واستنتاجاته فليس من سبب يدعو إلى التأرجح بين تطرف وآخر، ويعلق أهمية أكثر مما يستحق على "الخيال الجامح" فى تحضير الأرواح للمعمدين الزائفين إلى الدرجة التى يختزلون بها كل شيء إلى ما يفوق الطبيعة

---

[6] *Notice historique sur le Martinesisme et le Martinisme ,pp35-36, in a note.*

فى وجودٍ هيولانيٍ ضيق.

وفى تعليق آخر يتحدث مارتيجو عن أتباع سويدنبيرج والثيوزوفيين أو المارتينيزيين كما لو كانوا الشيء نفسه، فهل يذهب إلى عزو أصالة أخوة بعيدة كل البعد عن أى 'وقائع علمية' أو أى 'أسس وضعية'؟

وعن هذا الموضوع نشعر بضرورة قول إن بابوس يدعى أن مارتينيز دى باسكوالى قد تلقى تعميدًا من سويدنبيرج أثناء رحلته إلى لندن، وأن المنظومة التى دعى إليها لا تربو عن سويدينبيرجية معدلة، فإن الكاتب يضلل نفسه وقراءه بموضوعة شخصية للغاية، ولا يكفى أن يكون قد قرأ فى كتاب راجون أن مارتينيز قد أخذ مذهب 'المختارون *Elect Cohens*' عن سويدبنيرج السويدى، وكان أجدر ببابوس أن يستنكف عن اقتباس تقييم أمر لا أساس له ناهيك عن تضخيمه، وكان بإمكانه تمحيص مصادر وثائقه والتأكد من وجود صلة بين مذهب سويدينبرج وشعائرة وما يناظرها عند 'المختارين'، أما رحلة لندن المزعومة فقد حدثت فى دماغ بابوس فحسب.[7]

ومن دواعى الأسف أن يستسلم مؤرخ لخياله فى مسألة مثل الهيولى، كما أن من سوء الحظ أنه يمكن قول الأمر ذاته عن كثير من الكتاب الذين يحاولون عقد علاقة غير محتملة على أساس نظرية شخصية!

ولكن لنعد إلى مارتيجو الذى يقول لنا،

> ويستحيل تمامًا بدون العلوم الغيبية فهم ماسونية القرن الثامن عشر وحتى الماسونية الراهنة، وهو ما سوف يثير دهشة غير المعمَّدين.

وها هنا مثلان يساعدان على فهم مقصده، ولكن لننظر إلى ما أتى بعد ذلك،

> وهذا الجهل بالغيبية الذى يشترك فيه الدنيويون والماسونيون على السواء بمن فيهم من مراتب عليا هو مصدر الأخطاء على شاكلة الموضوع المطروح، والذى يُطلق المناهضين للماسونية فى البحث عن الرؤساء المخفيين الذين ليسوا إلا تجليات فوق طبيعية لكائنات تعيش فى عالمٍ هيوليٍ كما كتب أحد المعمَّدين.

[7] *Notice historique sur le Martinesisme et le Martinisme,p17,in a note.*

وكما ذكرنا سلفًا أننا لا نعتقد أن الذين يعتنقون هذه النظرية 'معمدون حقيقيون'، لكن لو كان مارتيجو هو الذى يؤكدها ويعتقد بها فإننا لانرى لماذ سارع بإضافة "إن ذلك لا يمس شيئًا من حقيقة وجود 'الرؤساء غير المعروفين' أكثر مما يمس 'العالم الهيولى' دون أن يلاحظوا أنهم يعيدون إثارة المسألة من أولها مرة أخرى، فى حين 'يدَّعون فحسب الإشارة إلى ماهية أفكار الماسونية العليا فى القرن الثامن عشر'، فهل هو على يقين من تفسير أفكارهم بإخلاص وليس لمجرد إثارة تعقيد جديد لمشاكل حاول هؤلاء الماسونيون تقصِّيها بحجة أن هذا فحسب ما يجعلهم 'معمَّدين حقًا'، وهو ما يعنى أنهم لم يكونوا كذلك حيث إنهم لم يجدوا لها حلا؟ لكن ذلك راجع إلى أن 'المعمَّدين حقًا' أشد ندرة مما نعتقد إلا أنهم موجودون أو أنهم موجودون فى 'الهيولى'، ولماذا لا يكونوا فى حياتهم الأرضية بالمعنى الكامل هم 'الرؤساء المخفيون'؟

وبناءً على ذلك فإن كتابة 'الرؤساء المخفيون' عند الاستناريون *Illuminati* والمارتينيزيون وأعضاء التقوى الصارمة وكل الماسونيون فى القرن الثامن عشر يتحدثون عن أن لهم وجود هيولى علوى تشارك فيه كل المحافل وكل المعمَّدين 'كذا'.

وأن نجعل من 'الرؤساء المخفيين' كائنات هيولية ونعزو إليهم دور 'المساعدين غير المنظورين' كما يقول الثيوزوفيون، أليس ذلك رغبة فى وصلهم 'بالمرشدين الأرواحيين' الذين يرشدون الوسطاء وجماعات الأرواحيين "مالم يرغب المرء فى الحديث عن أن الفارس كابيتو جاليانو ونظرائه من 'مقام أعلى' يمكن أن 'يتحققوا' على يد مراتب بعينها من المعمَّدين 'اللامنظورين الهيوليين'، وأيًا كان ما يقوله مارتيجو فإن الغيبية المعاصرة بما فيها الأرواحية والثيوزوفية وكذلك حركات 'الأرواحيين الجدد' لا تملك إلا التفسير البرانى الصرف، ولكن لو كان من الصعب معرفة فكر الماسونية العليا فى القرن الثامن عشر وبالتالى 'تفسير أدبياتها بما فهموه منها' فهل يُشترط أن تحقق بكاملها حتى يصبحوا مخطئون تمامًا فى دراساتهم التى على جانب كبير من الصعوبة حتى لو كان المرء على الطريق الصحيح؟ وهل من بين المناهضين للماسونية من يستطيع الدفع بأنه على الطريق الصحيح وتخطئة من عداهم؟ والمسائل التى

يدرسونها أكثر تعقيدًا من ذلك حتى لو اتخذنا 'التدخل الهيولى' حيث لا ينبغى له أن يكون، ولذا كان ما يدعو إلى الأسى دائمًا هو النظر إليهم بتحيز حتى باسم 'العلم' و'النقد'، وما عبر عنه محرر *Cahiers Romains* مصيباً "إن كونها بلا مرجعية لا يحُبُّ أهميتها بما هى عليه"، ويدعى جوستاف بورد إنه غير متحيّز، ولكن هل يحتكم على المقام اللازم لمعرفة مثل مارتيجو "المؤرخ الناضج الذى يعرف كيف يجد ما يريد فى كل أين، ويسمح له نقدة السليم بالحكم على قيمة الوثائق؟"، ونقول مرة أخرى إن هناك طرق عدة للاستواء على الطريق الصحيح، ويكفى أن يكون المرء عليه بطريقة أو أخرى حتى لا ينخدع تمامًا 'وحتى لو لم يكن من الضرورى إلقاء الضوء على الطريق السليم فى الضوء الشاحب 'للغيبية' الذى لا يكاد يتضح فيه شىء!

ويصل مارتيجو إلى استنتاجاته كما يلى،

> ولا زلنا ننتظر، ونعترف راضين بأن محرر *Cahiers Romains* لو فهم القوى الغيبية بالمعنى الذى طرحناه فقد كان مصيباً فى قول "إننا نلاحظ أنه لم يُطرح حتى الآن نقضٌ مقنع للطائفة"، ولكن لو ذهب إلى عكس ذلك وقال إن الماسونيين المعمَّدين فى القرن الثامن عشر أناس من لحم ودم فإننا نضطَّر إلى رفض المقولة ونقول "إننا نعلم بعدم وجود أطروحة تبرهن على صحة دعوى تلك اللجنة المجهولة"، وعلى الذين يؤكدونها أن يتقدموا ببراهين دامغة، ولا زال الموضوع مفتوحا.

21 بعض الوثائق غير المنشورة للمختارين

لقد أشرنا من قبل إلى أن مارتينيز دى باسكواليس قد أسس محفل ’الكهنة المختارون ‘ *Elect Cohens*، وقد جاء ما يلى فى مقدمة ’رسالة توحيد الكائنات *Traite de La Reintegration des Etres*‘ التى كتبها ’فارس الصليب الوردى‘ الذى اقتبسنا عنه كثيرا،

إن هذا الرجل الذى تميز بالنزاهة والإخلاص الذى لا جدال فيه قد سعى إلى توحيد محافل بعينها لاستعادة مبادئ الماسونية الجوهرية، والتى ابتعدوا عنها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر نتيجة أحداث لابد من الحديث عنها.

وقد كانت مهمته صعبة حيث أجبرته على السفر بين عامى *1760*و *1772* بين المدن الكبرى لفرنسا، وقد اختار من قاعات طوائف الماسونية العاملة من توسّم فيهم القدرة على تكوين نواة المحفل الذى كان مركزًا لعملياته، وأسبغ عليه اسم ’المحكمة العليا *Sovereign Tribunal*‘ وتأسس فى باريس عام *1767*، وأرسى القواعد الدستورية لتشكيل المحافل التابعة فى الأقاليم، ولم يتردد فى تجنيد أجانب قدَّر أنهم يستحقون الكهانة التى دعاهم إليها[1].

وهكذا أقام مارتينيز ما أسماه م. ماتّار *M.Mattar* مصيباً ’المارتينيزية‘[2]، باسم ’محفل الكهنة المختارون *Elect Cohens*‘ الذى لم يكن إلا منظومة ماسونية أرثوذكسية كفرع من الماسونية العامة، وقد طعّمه فى الساق القديم وأسسه على تعاليم تراثية تداولتها الأجيال بصرامة طبقًا لقوة إدراك أعضائها بجهود شخصية، وقد ارتبطت النظرية بالعمل على نحو لا ينفصم.

---

[1] *1. In the mind of its founder, it was a question of a truly sacerdotal ministry, for the Hebrew word Cohen means priest; his efforts therefore represent to a certain degree an attempt to restore the Judaic priesthood within interior Masonry.*

[2] *2. As for us, we cannot find this term apt, it would be so only if the system of the Elect Cohens merely translated the personal ideas of Martines, which it does not, according to the rest of the very same passage quoted; but the author had particular reasons for showing proof of his good will in regard to Matter.*

∴ ونقتبس هنا هذه المقطوعة حتى نقرر الطبيعة الحقة لمحفل 'الكهنة المختارون' ولنلتفت الآن إلى بعض التفاصيل التى تتعلق بالدور الذى قام به لوى كلود دى سانت مارتان *Louis-Claude de Saint-Martin*، والتى يفيد تذكرها فى خضم الاضطرابات.

وقد نشأ انفصال فى المحفل الذى جاهد طويلًا فى تأسيسه بين شطرين من الذين بقوا على إخلاصهم لأستاذهم وبين الذين اتبعوا مثال سانت مارتان بعد سنوات قلائل من سفر مارتينيز إلى جزر الأنتيل عام *1772*، والذين تركوا المجاهدات إلى الطريق الناقص للأسرارية[3]، ولم يكن هذا التغير فى توجهات سانت مارتان ليدهشنا حيث لم نتبين لنا درجة ابتعاده إبان السنوات الخمس التى أمضاها فى محفل بوردو عن المجاهدات الظاهرية للأستاذ...

وقد قامت تعاليم رودلف دى سالزمان بدور كبير فى نشر الأسرارية فى فرنسا ولولا سانت مارتان وتعاليمه لم تكن لتستطع إدراك المذهب المبجل فى التدين لمحفل بوردو، أى مارتينيز.

ونتناول بعض النقاط فى حياة سانت مارتان لكى نبين فحسب كيف كان بعض المؤرخين مخطئًا فى تفسير الدين فى محفل بوردو بثيوزوفية آمبواز *Amboise* وغيره، وطرحوا بلا تدقيق أنه مؤسس محفل المارتينيزية، لكن سانت مارتان لم يؤسس أى محفل كان، ولم يكن ينتوِ ذلك مطلقًا، ويعنى اصطلاح 'المارتينيزيون' ببساطة المنظور الذى تبناه أتباع مارتينيز مع ميل إلى التحرر من المجاهدات الشعائرية والتعصب العقدى فى هذا المحفل باعتبارها بلا فائدة[4].

وهكذا أصبح كل ما ينتمى إلى محفل الكهنة المختارون من وضع سانت مارتان[5]، كما أصبح هُراءًا وضع اسم المارتينيزية على المحفل أو المذهب الذى يعتنقه، وقد أردنا فحسب توضيح هذا الأمر.

---

[3] This clearly characterizes the opposition, which we have already noted, between the path of'mystics' and that of'initiates'.

[4] We point to this passage in particular in response to those who claim, for example, that 'the introduction of Martinist Lodges in Russia dates from St. Martin [sic] himself.' We shall refer these people to the same author's Notice historique sur le Martinesisme et le Martinisme, pp175-192. There were never any 'Martinist Lodges; save in the imagination of contemporary occultists.

[5] Which is not to say, let us emphasize this, that it is a question of a personal work, since it was on the contrary 'based on an ensemble of very precise traditional teachings.

∴

ولم يُنشر من الوثائق عن محفل الكهنة المختارون سوى شذرات قليلة، وأهمها تلك التى ورد ذكرها فيما تقدم، وتشكل مجلدين من مكتبة الصليب الوردى اللذين نشرا برعاية محفل مصرائيم، وأولهما يشتمل على أعمال مارتينيز ذاته بعنوان *Traite de la Reintegration des Etres dans leurs premieres proprietes, vertuset puissance spirituelles et divines*، أما الثانى فيشتمل على التعاليم السرية لمارتينيز دى باسكواليس كما تسلمها فرانز فون بادر.

ثم إن هناك أعمال بابوس عن مارتينيز دى باسكواليس، والتى تشتمل على خطابات من مصادر مختلفة، وبعضها يثير الاهتمام رغم أنها لم تُطرح بوضوح، وقد ألحقت بهذا العمل صيغ التعميد للمراتب التالية،

1. تلميذ الكهنة المختارون ، *2*. رفيق الكهنة المختارون ، *3*. مساعد أستاذ الكهنة المختارون ، *4*. أستاذ الكهنة المختارون ، *5*. الأستاذ الأعظم للكهنة المختارون ويسمى المهندس الأعظم، *6*. الكاهن المختار لزوربابل الذى يسمى فارس المشرق [6].

ونعتقد أن هذه القائمة لم تحذف أمرًا مهمًا رغم قِصَرها، وأية كلمة أصلية تتعلق بمحفل الكهنة المختارون لها أهمية من واقع ندرتها.

∴

والوثائق التى ننتوى طرحها تشتمل على عدد من التعليمات التى كانت تُلقى فى محفل الكهنة المختارون فى ليون عام *1774*، وينتمى مُعَمَّدوها إلى محفل الأعمال الطيبة *Lodge La Bienfaisance* الذى كان يرأسه فيلير موز، لكن هذا المحفل لم يُقِم عمومًا شعائر الكهنة المختارون كما ظن البعض، ويكتب 'فارس الصليب الوردى' عن هذا الموضوع،

---

[6] وتنقص هذه المجموعة تعاليم المرتبتين السابعة والأخيرة، وهى العاشرة فى محفل الصليب الوردى بتعداد 'مراتب المدخل *grades of the porch*'، أى الثلاث مراتب الرمزية الأوَل التى لا غنى عنها لكل المراتب الأخرى.

وسوف نذكر بابوس الذى كان متحدثًا باسم محفل المختارون فى ليون منذ عام *1765*، تحت رئاسة فيليرموز الذى اشتمل على ستة أعضاء تابعين للمختارين بمن فيهم الرئيس عام *1770*.[7]

وقد تقدموا بطلب إلى مارتينيز لتأسيس منظومة معتادة، ولكن يبدو أن هذا الأمر لم يتم له النجاح.

ويحتمل أن هذا المحفل للمختارين فى ليون لم يكن له نظام كامل مطلقًا، وخاصة عندما مر سانت مارتان بالمدينة عام *1774* ، وكتب هناك 'الخطل والحقيقة *Des Erreurs et de la Verite*' الذى تحدث فيه ببساطة عن الدائرة التى كان يعلّمها فى منزل *Villermas* [*sic*]،[8] وهو تعبير لا ينبغى أن يُقال عن محفل 'صحيح كامل'، كما أن الحوار الذى تبع مؤتمر ليون عام *1778* فى محفل الأعمال الطيبة لابد قد تبنى منظور الشعائر الاسكتلندية المعدل، والذى رأى بابوس أنه مناسب لتعميد أتباع فيلرموز[9]، ولم يكن لهم علاقة بمحفل الكهنة المختارون ، ولا بد أن الشطر الأعظم من أرشيف ليون الذى تبعثر حاليًا يتعلق بالشعائر المعدلة، والتى أدى الجهل بها عند كتّاب بعينهم إلى اضطرابات فردية[10].

ولنعد إلى التعاليم، إننا لا نعتقد أن مارتينيز قد كتبها بنفسه، فقد سافر إلى بورت أو برانس فى 5 مايو *1772*، ومات هناك فى *20* سبتمبر *1774*، ومن المؤكد أنها مستلهمة من تعاليمه مباشرة، فنجد فى عدة مواضع منها تشاكلًا وثيقًا مع رسالة تكامل الكائنات *Traite de la Reintegration des Etres* التى كتبها فى بوردو عام *1770*.

والتعاليم الستة التى تحت يدنا[11] منقولة هنا بحذافيرها، مع احترام كل خصائص لغتها وأسلوبها وحتى إملائها فى الوثيقة الأصلية، وسوف نقتصر على إضافات موجزة للضرورة، واستبقينا التعليق إلى الخاتمة.

---

[7] *Notice Historique sur le Martienisme et le Martienisme, p33, n 2.*

[8] *Ibid., pp41-42.*

[9] *Ibid., pp175-176.*

[10] *Ibid., pp177-178, note*

[11] *Editor's note: The 6th Instruction was never published, owing to the discontinuation of La France antimasonic.*

تعليمات عن الخلق الكلى والمادى والزمنى
والعدد الذى ينتجه وعلاقته بالإنسان

التعليم الأول[12]

إن مشيئة الرب لتشكيل العالم العضوى من مادة منظورة تتجلى فيها قدرته وعدالته ومجده، وكان المخطط الذى رسمه خياله مثلث التكوين، وكما لو كان خطة أو تصميمًا فى ذهن رسام قبل أن يبدأ فى رسمه، ولأن هذه الخطة مثلثة فلابد أن العمل المشتق منها يحمل طابعها فيكون مثلثًا أو ثلاثيًا، وهذه هى الحال على الحقيقة[13].

وأقول إن خلق العالم من المادة قد جعله الخالق تجليًا لقدرته وعدالته ومجده، وأن قدرته قد تجلت بفعل الخلق الذى تم بمشيئته فحسب، أما عدالته فقد تجلت بعقاب أول الأرواح التى خالفته بطردها من حضرته، والخالق صمد فى ناموسه ولكنه لم يحرمهم من فضائلهم وقدراتهم الكامنة فيهم بموجب مبدأ الفيض الربانى، ولكنه غير من ناموس العمل الروحى، فشكل العالم المادى لكى يودعهم فيه ليكون موضع حرمانهم حتى يعملوا فيه، وجعل القدرة والإرادة فى الحدود التى فرضها من ذلك التجلى لقدرة الخالق وعدالته بلا تناقض بينهما حيث يتجلى مجده، وعلى الكون أن يخدم فى تجلى خيره اللانهائى ورحمته، وهو ما سنفسره فى هذا المكان.

وقد تم خلق العالم بالعدد، كما جعلنا موسى نفهم أن الأيام الستة التى تحدث عنها فى سفر التكوين ليست إلا حجابًا استخدمه ليقول ما يريد، إن الخالق روح صرف، وهو البسيط اللانهائى الذى لا يمكن أن يكون خاضعًا للزمن، كما أنه حيث إن الزمن قد بدأ منذ خلق العالم الذى نتحدث عنه فلم يسبقه شىء زمنى، ولذا لم ليكن موسى يتحدث عن الأيام الستة أو

---

[12] *This first instruction is the only one without a date in the manuscript; as will later be seen, it is from January 7,1774.*

[13] وتحتوى هذه التعاليم بالضرورة على ’مخطط مهندس الكون الأعظم‘ التى تحققت بالخلق، إلا أنه لا ترادف بين تعبيرى ’الخالق‘ و’مهندس الكون الأعظم‘.

أى تتابع زمنى، ولكنه كان يتكلم عن ستة أفكار ربانية شكلت الخلق، ونحن نتعلم فى المحفل كيف نعرفها بالإضافة إلى الملكات الربانية الثلاث، الفكر والإرادة والعمل، أو بتعبير آخر سوف نفسر الزمن الصحيح والنية والكلمة والعمل.

فالفكر واحد بسيط لا ينقسم مثل العقل الذى أنتجه، وهو مبدأ كل الأعمال الروحية الحرة، وبالتالى يحتل المكانة الأولى بين الملكات الثلاث المذكورة، ولذلك نعتبره 'واحد'، ولو أضفنا الإرادة التى بدونها لن ينتج شيئًا نظرًا لمرتبته الثانيه فإننا نعتبره 'اثنين'، ومن ثم نصله بالفكر الذى اشتق منه ونعتبره 'ثلاثة' تُكمل[14] أول ثالوث روحى، لكن الفكر والإرادة سيكونا لا شيء مالم يوضعا فى العمل، وهو المَلَكَة التى نسميها الفعل، وهكذا نعتبر العمل 'ثلاثة'، ونضيف إليه بقية الثلاثية من الفكر والإرادة التى سبقته فيكتمل العدد الأصلى الذى أنشأ الخلق الكونى.

وهذه القائمة من الثلاث ملكات الكامنة فى الخالق توحى إلينا بفكرة سر الثلاثى، فالفكر هو الخالق '*1*' والكلمة هى النية أو الابن '*2*'، والعمل الروحى '*3*'، وحيث إن الإرادة تتبع الفكر والعمل ينتج عن الفكر والإرادة فإن الكلمة تنبع من الفكر، والعمل ينتُج من الإرادة والكلمة، وهو الإضافة الأسرارية للأعداد الثلاثة، كما ينتج عنه رقم كل الخلق الزمنى، وسوف ترون فى هذا المثل ثلاث ملكات متميزة حقا، تنبثق كل منها من سابقتها، وتنتج نتائج مختلفة، ولكنها تجتمع فى كائن واحد فريد لا ينقسم.

وقد تعلمتم أن الإنسان مخلوق على صورة الرب، وحيث إن الرب روح صرف فليس الشبه فى التكوين الجسدانى بل فى الملكات الروحية فحسب، حيث إن الكائنات الأدنى أو الإنسان فيض للربانى، ولا بد أن يشارك فى جوهر الربوبية وملكاتها، ولكن لدينا فى حياتنا اليومية صورة باهتة لكنها محسوسة فى تناسل الكائنات الزمنية، لكن الإنسان الناتج عنها رغم أنه صورة لخالقه فهو يشارك فى طبيعته دون أن يكون ربًا خالقا، ودون تدمير صورة التشابه التى تصل بين المخلوق والخالق، والتى سوف تبقى أبدا، والاختلاف الشاسع بين المخلوق والخالق سيبقى على الدوام، وهكذا فإن الإنسان يشعر فى قرارة نفسه بالقدرة والملكات المتميزة للفكر والإرادة والعمل، فيجوز لنا حقًا قول إن الملكات الثلاث قد توحدت فى الإنسان فإنه

---

[14] وقد كُتِبت كلمة 'صور *forms*' فوق كلمة 'يُكَمِّل *completes*' فى المخطوط.

على الحقيقة صورة للخالق، فإن الملكات الثلاث كامنة فيه، أى الفكر والكلمة أو النية والعمل، والتى سنتناولها فيما بعد، والتى لا ينبغى خلطها بالفكر والإرادة والفعل.

وبعد أن فسرنا العدد الذى جُبل منه الخلق فسوف نتحدث عن العدد الثلاثى منتج الصور وعن العدد التاسوعى الذى نعزوه إلى المادة، فإن هذه المادة المنظورة هى التى تصل إلى حواسنا ولا ينبغى لها أن تختلط بالمبادئ الواضحة التى صنعتها، فهى الوحدة التى تضم هذه المبادئ لتصل إلى العمل الذى يشكل الجسد.

مذكرات عن الأمور التى عالجناها فى التعليم الأول

أمام الاجتماع العام[15] **المنعقد فى** *7* **يناير** *1774.*

عن الخلق المادى الزمنى الكلى عن العدد الثلاثى للفكر الربانى الذى احتجب وراء الأيام الستة لموسى.

الإضافة الأسرارية للملكات الربانية الثلاثة فى الفكر والمشيئة والعمل.

مخطط الخلق فى عقل الخالق على نحو ثلاثى.

خاتم المثلث على كل نواتج الخلق.

العدد الثلاثى للجوهر الروحى منتج الصور الذى يسميه الأسراريون الكبريت والملح والزئبق.

الجوهر المبدئى للعناصر وعناصر الجسد المبدئية.

إنتاج المحور الروحى للنار المركزية اللامخلوقة.

الجواهر الروحية وعلاقتها ببعضها بعضًا.

---

[15] وقد احتوت هذه الملحوظات على مختصر لباقى التعليم الأول، والتى يبدو أنها كُتبت أصلا، ولابد من فهم تعبير 'الاجتماع العام' بمعنى اجتماع لكل المراتب.

وفى حال عدم تمايزها فإنها بلا عمل تنتج فوضى.

يتكون غلاف الفوضى من أرواح المحور.

العجائز فى طفولتهم تكون أرواحهم منشغلة بمكان آخر.

الدائرة الأرضية المحسوسة فى الغرب، والعقلية فى الجنوب، والمحسوسة على صدر الأرض الأم، والمنظورة فى الشمال، والمعقولة أثناء التكامل، والمحسوسة من الأرض إلى القمر، والمنظورة من القمر إلى الشمس، والمعقولة من الشمس إلى المشترى.

الكائنات الروحية الأدنى تسوقها الكائنات الروحية الأسمى فى الدوائر الثلاثة، وتنتهى الإرادة الحرة فى عمل الحظ العاثر.

الثلاثيات الروحية الأدنى جسد بلا ذكاء.

المحور الأفقى هو الذى يسرى فى الخليقة.

محور النار اللامخلوق يقيم مركز الخليقة ويحيط به، وهو غير مخلوق لأن الأرواح الثلاثية فيضية لا مخلوقة.

محكوم على الإنسان أن يتعذب على يد الأرواح الشريرة.

يفسد الإنسان عمل الرب بالانتحار والوقوع فى التزيُّد، إن جسده معبد يُضعِف هجمات العدو، والحواس الخمس هى التى بوابات العدو وحرَّاسه.

وتكمن النفس الجسدانية فى الدماء كما تكمن فيه النفس الروحية أو الوسيلة المرافقة[16].

التعليم الثانى[17] من يوم الاثنين *20* يناير *1774*

[16] ونلفت النظر إلى أن دور الدم برهان على انتماء النظرية إلى أصل يهودى.

[17] ويثبت أن التاريخ المُشار إليه خطأ بالتأكيد عند مضاهاته بالتواريخ الأخرى، ومن السهل إدراك أن التارخ الصحيح هو *10* يناير، فقد كان هناك اجتماعين كل أسبوع فى يومى الأحد والجمعة..

∴

ويستقى الفيض الرباعى للإنسان من الجوهر الربانى الرباعى للفكر *1* والإرادة *2* والعمل *3* والعمليات *4*، وهى الإضافة الغامضة التى تكمل العدد العشرى *10* أو *EB*، أى المحيط الذى هو شعار القدرة المركزية والخلق الكلى ومركزه، والذى يمثل الوحدة التى لا تنقسم والتى اشتق منها كل شيء وإليها يعود.

∴

والفيض الرباعى والقدرة التى وهبت للإنسان يمثلها *4* علامات أو حروف تنطبق عليها باستيعاب أول المراتب للمحفل، وأولها القلب الذى يتذكر وجوده الروحى، والثانى هو جانبه الأيمن ورفيقه الطيب الذى يرشده، أى الهوية *ID* فى قمة الرأس، وهو القدرة الروحية الأسمى التى تحكم[18] الاثنين الآخرين، والرابع هو الخط المرسوم بين قمة الرأس والمعدة، ويرمز إلى الربانية التى تسود عليه وتوجهه ويستقى منها كل القوى.

وتشكل الثلاثة الأول مثلثًا يرمز إلى قوة الإنسان على الخليقة الكونية بمبدأ الفيض الرباعى، حيث يتلقى القوانين والمفاهيم والوصايا التى فقدها بعصيانه، والتى يمكن أن يستعيدها مرة أخرى فحسب بالتناظر مع العدد الرباعى، الذى يمر بمركز المثلث، وهذا المثلث بدوره يرمز إلى القوى الثلاثية التى يوهبها بعد التصالح مع الاتجاهات الأرضية الثلاثة، وهى الغرب والشمال والجنوب، وكذلك مع الأجزاء الثلاثة للخلق الكلى الأرضى والسماوى وما فوق السماوى، ولكن هذه القوى تصاب بالعقم ولا تفيد مالم يحصل على القوى الربانية الرباعية التى يمثلها الخط العمودى.

التناظر الرباعى للإنسان

الإنسان والكائنات الروحية الأدنى *1*

الرفيق الروحى الطيب *2*

---

[18] وقد كُتِبت كلمة ’يوجه‘ فوق كلمة ’يحكم‘ فى المخطوط.

الروح الأعظم وقواه الثنائية 3
الخالق 4-10

∴

وقد خُلِق الإنسان من الفيض ووضع فى مركز الدوائر الستة أو الأفكار الربانية حتى يصبح حاكمًا يوجه ويحفظ ويدافع عن الكون الكلى والخليقة، وقد امتلك قوى تتناسب مع هذه الأعمال، ولكن بعد سقوطه استبدله الخالق بمخلوق موهوب بالقوى الثنائية الأعظم، حيث كان واجبه تنفيذ كافة الأعمال الواجبة على الإنسان، وكذلك يوجه مباشرة أو عن طريق وكلائه الكائنات الأقل روحانية لمعونة الكائنات التى هى أقل منهم روحانية والحفاظ عليهم من فخاخ الأرواح الخبيثة التى تعرض لها الإنسان بعد سقوطه.

∴

والشكل المثلث للإنسان يتشكل من اليدين ممدودتين والقدمين، ترأسهما الرأس أو العمود السماوى الذى يمر بمركزه.

∴

والتقسيم اللاثى يتكون من عظام ...[19] وعظام الحوض حتى المعدة *1*، وجانبا الصدر *2*، والرأس *3*، وتشكل الأجزاء الثلاثة التى لو تفاصلت لدمرت الكائن، والأعضاء *4* التى تنتمى إلى الجزء الهضمى وتشكل مع الصدر الوعاء الداخلى، وتوحدهما بتكرار عدد *7* وهو عدد الخلق

[19] وقد تُرِك فراغ لكلمة فى المخطوط.

المباشر.

التعليم الثالث[20]

الجمعة 14 يناير 1774

فتح أبواب المعبد الأربعة وبوابات المدخل الثلاثة.

الدوائر الثلاثة الحسية والنظرية والعقلية وعلاقتهم الثلاثية.

سباعى الخلق ودوامه.

العدد الثنائى الذى يعارض القوتين.

العدد الرباعى وتقسيم الثنائى.

العدد الخماسى خيِّر ويعاكس أفكار الشر بالبصيرة.

والأدنى يصبح شرًا يوسوس لأتباعه.

التُساعى، 3 جواهر، ثلاثة عناصر ثلاثة مبادئ جسدانية.

التساعى بتضعيف الثلاثة أخلاط.

التساعى بعدد الصناعة والخلق والجواهر المخلوقة الثلاثة.

الأرواح العليا 10، والأعظم 8، والأدنى 7، الأرضى الأقل 3 أو الأرواح العليا 10، الأعظم 8، الأقل 4، أو أنهم جميعًا من صنع العدد الفرد وقيد توجيهه؟

يبدأ اتصال الروح الأعظم فى العام السابع.

[20] *Here again, we have only a sort of summary, the all too brief notes of which are not always perfectly comprehensible.*

الناس والدين يبدأون العقاب قبل السابعة.

إجراءات

حينما نتدخل الوسيلة فى الفوضى يحدث ما يتمخض عنه نزول عامل علوى هو الروح الأعلى، فليس هناك فعل بلا رد فعل.

تنفجر الفوضى بانسحاب العمل الربانى الأعظم، ونقدم هنا ملخصًا فقط، والملحوظات المختصرة قد لا تُفهَم تماما.

تمتد الفوضى فى الحدود التى حدَّتها روح المحور التى تضع حدود الخلق.

لو كان الخلق يعمل حاجزًا بين الإرادة الشريرة للأرواح المنحرفة فهى تمارس حقدها عليه وتسعى إلى تعطيله.

وثلاثى النيران الثلاثة على المحور هى الأرض والشمس.

يعمل تأثير هذه النيران الثلاثة على بعضها البعض، الزئبق السلبي والإيجابى، والكبريت النباتى الإيجابى، والملح الحساس[21].

[21] والملاحَظ أن لغة الخيمياء تُستخدم هنا من آن لآخر وليس باستمرار كما فى الشعائر الهرمسية الحقة، حيث تحتل الرمزية العددية المكان الأول مع تفسيرها القبالى.

التعليم الرابع

الإثنين 17 يناير 1774

إن كل الكائنات التى استقت من الخالق معابدا، ولا بد للمرء من التمييز بين الأبواب المختلفة للمعبد.

.:.

وأصغر ذرة من المادة أحد هذه المعابد حيث أن بها ما يقيمها من الوسائل التى تعمل على إحيائها.

.:.

والمعابد الروحية للكائنات تستقى من الخلق الزمنى دون أن تكون هى ذاتها خاضعة للزمن على منوال آدم فى أول نشأته.

.:.

والمعابد الروحية تقوم على سطح الأرض حتى البعث.

.:.

والأيام السبعة هى أيام آدم و إخنوخ و ملكى صادق و موسى و سليمان و زوربابل و المسيح، وكلها أنواع من الخلاص والبعث.

.:.

أما الأخرين مثل نوح و إبراهيم ... إلى آخرهم فلهم أيام من أنواع مختلفة.

.:.

وجسد الإنسان محفل أو معبد، وهو نسخة من المعبد العام أو الخاص، ومهمة الماسونية أن تُبنى معابد على أسسها، ونحن الماسونيون الروحيون.

.:.

أما الماسونية الزائفة فتستقى من المذاهب التى تسميها محافلا، أما نحن فنسميها معابدا، ويضفون على أنفسهم اسم 'الماسونيون' أما نحن فنسمى أنفسنا 'فلاسفة كهنة المختارون '.

ومهمة الماسونية أن تبنى معابد على أسسها، ونحن الماسونيون الروحيون.

.:.

ويحتل معبد سليمان الذى أقيمت على منواله كل الماسونية مقامًا أسمى للمبادئ الروحية السبعة لكل المعابد الزمنية بتنويهاته اللانهائية إلى الخلق الكلى.

.:.

والعلاقة التى تنشأ بين الأقسام الثلاثة كما يلى، فالمدخل هو حيث تجتمع عشيرة سبط ليفى حتى يعاونون على استقبال الأضاحى، والمعبد هو حيث يجتمع الكهنة الذين يساعدون الكاهن الأكبر فى أداء وظائفه، وقدس الأقداس هو حيث يدخل الكهنة الأكبر لمزاولة مهامهم فى ربط العلاقة بين الأرضى والسماوى وما فوق السماوى للخلق، كما يؤسسون العلاقة بين معدة

الإنسان ومقر نفسه بالدم وبين رأسه.

.:.

ويرمز رداء الكاهن الأكبر *G.P*. إلى وظيفته ومهامه المخصوصة، ودائمًا ما يخاطر بالموت لو كان دنسًا أو ليس على حال صالح يؤهله لدخول قدس الأقداس، ويحمل أجراسًا على طرف ردائه حتى ينتبه الناس إليه لو كفَّ عن الحركة لفترة طويلة، فيدخل وهو يجر وراءه أحبالًا تبقى نهاياتها فى المعبد، وتسمح للكهنة الذين لا يستطيعون دخول قدس الأقداس لسحب جثمانه فى حالة موته.

.:.

وتقوم كل المعابد الروحية على سبعة أعمدة، وترمز إلى العطايا السبع الروحية التى وُهِبت للإنسان أصلا، ولا يتطور منها إلا ملكة الفعل عن طريق وصله مباشرة بالفيوضات الربانية الأربعه.

.:.

وكان الشمعدان السباعى يناظر الأعمدة السبعة فى معبد سليمان، والذى يمثل الكواكب السبعة والأعمدة السبعة للخلق الكلى، ويحرك الكاهن الأكبر شمعدانه نحو الأجزاء المختلفة الذى يرغب فى العمل عليها.

.:.

وقد خُلِق الإنسان فى الساعة الثالثة، وهو عدد الجواهر الروحية التى تتضافر على تشكيل جسده، وسقط فى الساعة الخامسة، وهو عدد وصل الرباعى الربانى بتوحده الزائف بالشر، ثم تقمصها

فى الساعة السادسة، وهو عدد صنع العالم الكلى الذى كان يجب عليه أن يحكمه، ثم طُرِد فى الساعة التاسعة، وهو عدد المادة التى تلبس بها.

.:.

وكلمات القوة 'مور' و 'يا' و 'إن'، هى التى نفَّذَ فيها قدرته التى تمثلها القوانين والمفاهيم والوصايا، والتى يوجه بها الخالق خليقته، فتنفذ بها الأعمال الثلاثة الكامنة فيها على العموم والخصوص، أو على الأرضى والسماوى وما فوق السماوى، ولكن بعكس ما أوصى به الخالق، كما أنه شاء أن تنفُذ قدرته على قدرة الربانى، ومن ثم قدراته الثلاث، لكنها تستعاد بالمصالحة، لكن الملكات الثلاثة فيه تبقى عاطلة بلا حياة ما لم تُستَعاد ثانية بقوة الرباعى الربانى التى يسعى إليها الجميع.

.:.

وكلمات القوة أو الملكات الثلاث تتمثل فى 'الدائم' فى مرحلته الأولى بثلاثة حروف *AAA* على القلب والجانب الأيمن والرأس، ويمثل الخط العمودى من الجبهة إلى السُّرَّة أولها[22] كلمة 'موريا' التى ستقرأ عنها المزيد، والثانية هى 'يهوى' على أغلب الاحتمالات، رغم أننا لا نعلم هجاءها الصحيح، والثالثة لا بد أن تكون هى *inri* الربانى رباعى القوى ومركز الثلاثة الأخرين ومن دونه تصبح لا شيئًا.

وقد أنشئ معبد سليمان على جبل موريا[23] حيث ترتفع الأرض على كل المشاهد، ويناظر جنة عدن أو الفردوس الأرضى، والذى خُلِق فيه الإنسان الأول[24]، والذى نشأ

---

[22] وأول الكلمات الثلاث هى 'موريا' وقد تكون الثانية 'يهوى' إلا أننا لا نعلم هجاءها، ولابد أن تكون الثالثة *Inri*.

[23] *Moriah, which Martines, in his Traite de la Reintegration des Etres, writes Marijn: 'This word; he says (p216), 'is divided into two parts: the first, mar, signifies destruction of visible, bodily forms, and ija signifies vision of the Creator.'*

[24] *The symbolic significance here accorded to Mount Moriah strikingly recalls that of the Hindu Mer11.*

بدون أية أداة معدنية رمزًا لحقيقة أن الكون الكلى قد انبثق عن المشيئة الوحيدة وقدرة الخالق، وتشكل المادة مظهره السطحى، كما يرمز إلى حقيقة أن الجسد المادى للإنسان الأول قد تشكل بدون عون عضوى مثل جسد المسيح، وقد بنى فى ست سنوات ثم كُرِّس فى السنة السابعة لكى يرمز إلى الأيام الستة، والأفكار الربانية الستة التى فُوِّضَت لبناء الكون الكلى مع اليوم السابع، وهو راحة الرب بعد تمام عمله، وكان التمثيل الذى وصفه هو المهندس الأعظم *G.A*، والتجسد الزمنى الأعظم للعوامل التى تحفظه وترشده إلى اتجاه الروح الأعظم للمهندس الأعظم[25].

.:.

وعن أصول السبت وضرورة مراعاته والطريقة التى يتم بها ذلك فإن كل الأيام فى كل الساعات تستحق حماية مبدأ *7* الرئيسى[26]، ورئيسه الثامن، والذى يوجه السابع الذى يوجه بدوره صنع الخلق المقدس، وكذلك يتحطم المقدس بانسحاب السابع، ومن ثم يعيد الثامن التكامل مع كل ما تشكل.

التعليم الخامس

الجمعة 21 يناير 1774

---

[25] *A distinction is being made here between the 'Creator' and the 'Great Architect', but the way it is expressed is rather obscure; this point would therefore necessitate a deeper study.*

[26] *It is rather curious to note that the word 'agents' [agens] can, by anagram, be read as 'angels' [anges]. The seven seals of the Book of the Apocalypse, on which lies the Lamb or the 3th who alone possesses the key to it. In the Temple of Solomon, there were four hieroglyphs for each number25. A distinction is being made here between the 'Creator' and the 'Great Architect', but the way it is expressed is rather obscure; this point would therefore necessitate a deeper study.*

ويقوم عمودان على مدخل معبد سليمان ارتفاعهما *18* ذراعًا بالتساوى، وسُمى العمود الأيمن جاك *Jak*[27]، والتى تعنى "إنه الذى سوف يؤسس" وقد كان العمودان متساويا الطول نظرًا لأن الرجل والمرأة من أصل واحد وفيض واحد، ويتساويا ويعملا الأعمال ذاتها، وقد انقسما إلى ثلاثة أجزاء هى *10-4-4*، والتى تمثل *10* فيها تناظُر الأقل مع الربانى، وتناظُر المحيط مع المركز، أما الأربعة فتناظِر سطح الأرض بما فيه المنطقة الربانية، والأربعة الثانية تناظِر النطاق السماوى والنطاق الأرضى.

ويعلن جاك 'الذى سوف يؤسس' أن له حق القيادة المخصوص بالرجل فى الحال الأصلى، وتعنى كلمة بو *Bo* 'فوضى'، وتعبر عن النتائج التى تتمخض عن عصيان الرجل الأول، والذى كان تكرارًا للأرواح الأولى، والتى كان عليه أن يحتويها ويسخرها، فهو فحسب من يضفى عليها بصيرة طيبة، ويلهمهم بالتواصل معهم بالتوبة، ومن ثم يكفُّون عن الشر، ولكنهم يُحرمون من هذا المنبع الفريد لو أدى بهم إلى الضلال.

والإنسان رغم سقوطه لديه دائمًا واجبات عليه إنجازها، وهى المصير المقدر له، ولابد له من العمل على التصالح، وهو الوسيلة الوحيدة لحوز القوى الثلاثة على الغرب والشمال والجنوب، والتى تمثل القوى الأرضية والسماوية وما فوق السماوية، ويتسق مرة أخرى مع الرباعى الذى فيه حتى يطارد الأرواح الخبيثة بلا كلل، ويرفض الوقوع فى فخاخها، ويفسد مخططاتها الشريرة، ويستعيد سلطانه عليها، فلو أرادت الرحمة الربانية العمل على خير لهم فسوف يكون فحسب بتواصل الإنسان معها حتى تتحقق الفائدة المرجوَّة، وحيث إن الانسان قد خُلِق لهذه الغاية وحيث إن وصايا الرب صمدية فلابد من إنجازها، والإنسان الذى يخضع لها بإرادته يعطل مخططات الخالق، وحيث إنه جزء منها فإنه يهجر غايته الأصلية بإلحاق إرداته بزعيم الأرواح الخبيثة، ويصبح واحدًا من زمرته وأدنى منه حظا، فيتسلح بعقل شيطانى يغوى به الناس ليكونوا على شاكلته، ومن ثم يزداد خبثًا أكثر منهم، ولابد أن يتوقع مصيرًا أسوأ من مصيرهم حيث إنه يدعم ما كُلّف بتحطيمه.

---

[27] ويسمى العمود الأيسر 'بو' التى تعنى 'الفوضى'، وتعنى الأولى توحد الرجل بجسده الطبيعى وتعنى الثانية توحد المرأة بجسدها الطبيعى.

ويرمز عدد الفوضى فى العمود الثانى إلى مرتبة زوجية *binary* يحملها الحرفين الأولين من كلمة 'بواز *Boaz*' فى الأبجدية العبرية.

ولهذين العمودين تطبيق آخر، ألا وهو أن الجنوب مخصص لنفس الإنسان وما يدنو عنها، وأن الشمال للكائنات الطيبة التى تستطيع احتوائها كما تقول المتون المقدسة، والتى نفهم منها حين نتحدث عن الروح القدس أو عن شيطان الظهيرة[28] الذى عادة ما يأتى مع ريح الشمال[29]، ويرمز العمودان إلى هذه الأمور، وأحدهما من الحجر أو الطوب الأحمر أقيم فى القسم الشمالى لقابيل، ويعبر الأول عن قوة العمل الروحى وغموضه، وقد قاوم الخير الفيضان وعاش طويلًا بعده، أما العمود الثانى فيعبر عن ضعف أعمال المادة وفسادها، ولذا سُمى بعدد الفوضى وتناسباته، وقد دمرهما الفيضان تماما، وقد حُرِّم على أبناء الرب الزواج من بنى الإنسان[30]، ويجب ألا يُفهَم هذا التحريم ماديا، فإنسان هذه الأيام لا يملك إلا التناسل بحسب القوانين العضوية للطبيعة، والتى يخضع لها الإنسان والحيوان، والمفترض أنهم أحرار فى مضاجعة النساء من الجنسين ولكن ذلك محرَّم على أبناء الرب، أى الذين يراعون القوانين والمفاهيم والوصايا الربانية حتى لا ينسونها ولا يحتقرونها، وحتى لا يتركون أنفسهم للانحراف بتقليدها.

ولم يُعرف منذ آدم حتى فيضان نوح إلا أمتين هما أبناء شيث الذين سكنوا الشمال ويُسمون أبناء الرب حيث إنهم حافظوا على الناموس، وأبناء قابيل الذين يسمون أبناء الإنسان الذين أودعوا فى الجنوب، وتمثل الأمّتان وموطنهما الأرواح الشريرة فى الجنوب والأرواح الخيرة فى الشمال، ولم يبق من ذرية آدم إلا أمتين نظرًا لأن هابيل ابنه الثانى مات دون أن يترك ذرية، وقد وجد فحسب لكى يموت فدية عن أبيه آدم، ولكى يصبح رمزًا للتجدد الكلى، أما قابيل ونسله فيمثلون الأرواح الشريرة التى تجلت فى رؤسائهم، وأما شيث ونسله فيمثلون الإنسان الذى كان الفيض الثانى، لكنهم أصبحوا كبار المذهب الروحى، ويجب علينا مراعاة

---

[28] *Cf. Ps. 96:1. Note that the French 'midy' or 'midi' means both 'South' and 'midday'. En.*

[29] وعادة ما ينقلب تناظر هذه الرمزية فى الماسونية حيث تسمى الشمال منطقة الظلام والجنوب منطقة النور.

[30] ومن بداية هذه الفقرة رُسِمت علامة الصليب على هامش المخطوط أمام كل سطر.

أن كل الأنماط الروحية التى ظهرت حتى عصر نوح قد انتقلت لتعليم سلالة شيث وابنه إينوس.

و قد كان آدم ا لأب الزمنى لكل أحفاده يعتبر خالقا، و كان هابيل يعتبر مصلحًا *Regenerator*، وكان شيث يعتبر الروح الهادى والمرشد.

ورغم أن الجميع مُلزمون بقهر الأرواح الخبيثة فإن ذلك لا يعنى أنها ضرورة مطلقة لإنجاز ناموس الخالق وتحقيق الخير للإنسان الذى يتعين على الجميع إنجازه، ويكفى منهم عدد قليل حتى لو كان واحدًا فقط كما جاء فى عدة مواضع من المتون المقدسة لإنقاذ أعداد غفيرة، فيكفى عشرة أتقياء أو حتى واحدا، فقد أنقذ نوح سلالة الإنسان الصالح التقى فى عامه الستمئة، ويقوم مقام الإنسان الحالق، وطاف بسفينته على الماء يحمل بذور كل أجناس الحيوان، وتعبر أبعاد سفينته عن علاقة محسوسة بالخلق الكلى، وهو ما يذكرنا بالجواهر الروحية الثلاث الذى انبثقت عنها كل الصور الجسدية، فكان طولها *300* ذراعًا وعرضها *50* ذراعًا وارتفاع صاريها *30* ذراعا، ونكتشف هنا عدد الخلق ومنتجاته، والفوضى الناشئة عن قوتين متناقضتين، والتى تُقيت من ناحية وتحرر من ناحية أخرى.

وكان عدد خمسة هو وسيلة البناء.

فقد كان طول معبد سليمان *60* ذراعًا وعرضه *20* ذراعًا وارتفاعه *30* ذراعًا.

وكانت السفينة *20* ذراعًا طولًا وعرضًا وارتفاعًا[31].

وكان المعبد له بهو بطول *40* وعرض *20* ذراعًا[32].

وكان أمام المعبد مدخلًا بعرض وطول *20* ذراعًا.

وقد انطبقت العلاقة ذاتها فى أبعاد معبد سليمان من داخله، فينقسم إلى ثلاثة أقسام متمايزة، المدخل والمعبد والضريح الذى يحتوى على قدس الأقداس، والتى تعبر عن التناظر بين اللانهائية الربانية وبين الأرض، والتى يمثلها المدخل و.. السماوى و..[33]

---

31 وهذه الأبعاد مغلوطة بالتأكيد كما أنها تناقض المعطيات الواردة فى المخطوط.

32 أى بدون المدخل والدهليز.

ومنذ عهد آدم كان هناك ثلاثة أمم هى أمة حام وأمة سام وأمة يافث، وكان حام أكبرهم سنًا قد انحط إلى الجنوب ليمثل نمط قابيل والأرواح الفاسدة، وكان سام سلفًا للإسرائيليين عن طريق إبراهيم، والذى كان يمثل نمط شيث، وقد كان يافث أبًا للأمة الثالثة للمشركين *Gentiles*، والذين حُمِل النور إليهم نظرًا لاحتقار اليهود من سلالة سام لهم، جزاءً على تخليهم عن الناموس الربانى، ورحمة من الخالق كان المسيحيون اليوم من عرق يافث قد أصبحوا أكبر سنًا بين أعضاء محفل البركة *order of Grace* من أبناء سام، ولكن حيث إن أبناء سام كانوا المختارون للرب لكى يتجلى مجده وتظهر أعاجيبه ويُنجز ناموسه فسوف يستردون حقوقهم فى آخر الزمان بتصالح كامل، وسوف يصبحون مرة أخرى حكماء المشركين، والذين يستحقون الحرمان لسوء استخدامهم للنور والمعرفة والمعونة، وهو ما يبدو جليًا فى القرن الحالى.

وكل ما ورد ذكره عن المصريين فى المتون المقدسة أنهم أرواح شريرة من نسل حام بمن فيهم ملكهم، وأرض مصر هى شطر من الخليقة محكوم عليهم فيها بتحقيق أعمالهم الشريرة، وهو ما يعين على تفسير كثير من الفقرات.

لقد حُرِموا من النور الربانى وغامت أبصارهم بسُحُب مظلمة تُخفى عنهم عمود النار الذى يستنير به الصالحين، واتبعوا فى عماهم الطريق المفتوح أمامهم فأغرقهم اليم تحت مياهه فى الطريق الذى عبره الإسرائيليين آمنين، وألقى بأعدائهم فى متاهة الظلام، وقد كانت المعسكرات التى أقاموها فى الصحراء بعد الخروج شاهدًا على العناء الردئ للمنحطين فى النطاق المحسوس، أليس ذلك هو القانون الذى تلقوه على سفح جبل سيناء فى النطاق المنظور؟ وأخيرًا كان دخول الإسرائيليين إلى الأرض الموعودة إعلانًا عن دخول المنحطين إلى موضع التكامل الروحى، أو هو السلطة الكاملة للقوة على المستوى العقلانى[34].

....

[33] ولا شك أن كلمة *'supercelestial'* أى ما فوق السماوى قد تُركت فى المخطوط.

[34] *The manuscript here has 'etc.' three times, followed by the words: 'Notes to review.'*

22 كولونيا أم شتراسبورج؟

إن السؤال الذى طُرِح على صفحات شهرية حجاب إيزيس فى اكتوبر عام *1926* لابد أن ينقسم إلى جزئين أحدهما تاريخى والآخر رمزى، وقد كان التباعد الملحوظ يتعلق بالجزء الأول من المنظور فحسب، كما أن به تناقضًا واضحًا، فلو كانت كاتدرائية شتراسبورج هى المركز الرسمى لمحفل بعينه ألا يكون من الممكن أن تصبح كاتدرائية كولونيا مركزًا لمحفل آخر؟ وألن يكون هناك ميثاقين ماسونيين مختلفين يرجع أحدهما إلى تاريخ شتراسبوج والآخر إلى تاريخ كولونيا، وهو ما قد يؤدى إلى اضطراب؟ وهذا أمر لابد من تمحيصه لمعرفة ما إذا كان كلٌ من هذين الميثاقين يحمل تاريخًا واحدًا أم مختلفًا، والسؤال مهم من المنظور التاريخى، ورغم أننا نعتبر التاريخ الأحدث أقل أهمية من الأقدم إلا أنه لا يخلو من قيمة، فهو مرتبط بطريق بعينه بالمنظور الرمزى، والواقع أن اختيار المنظمة لمكان المركز ليس تعسفيًا وشأنه شأن السؤال المطروح.

وليكن فى ذلك ما يكون، ونحن نتفق مع آلبرت بيرنيه *Albert Bernet* عندما يقول بوجوب وجود 'نقطة حساسة' فى كل الكاتدرائيات التى بنيت على غرار قواعد فن البناء الحق، كما نتفق معه فى قول "لابد من التعامل معها من المنظور الرمزى قبل أى شىء آخر"، وهناك توازٍ عجيب فى هذا الموضوع نود أن نشير إليه، فقد أكد فرونسكى *Wronski* أن فى جسد كل امرئ نقطة حساسة لو مسّها شىء فسوف يتحلل على الفور ويتطاير وتتفكك جزيئاته، ويدّعى أنه قد وجد طريقة لحساب مركز تلاصقه مرة أخرى، أليس ذلك رمزيًا كما نعتقد ما يجب عمله حيال 'النقطة الحساسة' للكاتدرائيات؟

وما يستحق التساؤل بشكل عام يمكن أن يكون 'العقدة الحيوية' فى كل المواد كنقطة

وصل بين العناصر التى تكوِّنها، فالكاتدرائية المبنية حسب القواعد العضوية الحقة تشكل كلًا عضويًا ولها ’عقدة حيوية‘، والمسألة هنا تبدو فى الرمز القديم عن ’ عقدة العُقَد *Gordian knot* ‘ رغم أن الماسونيين المحدثين سوف يندهشون لو قيل لهم إن سيوفهم يمكن أن تقوم رمزيًا فى الشعائر بدور سيف الإسكندر...

زد على ذلك أننا نلاحظ أن الحل الفعال للمشكلة المطروحة يتعلق ’بقوة المفاتيح‘ أى ’الترابط والتحلل *potestas ligandi et solvendi*‘ بالمفهوم الهرمسى أو ما يربو إلى الأمر ذاته، أى ما يناظر المرحلة الثانية من تعبير الخيميائيين، كما لاحظنا فى مقال نُشِر فى دورية رينيابيت *Regnabit* وأشار إليه بول ريدونيل *Paul Redonnel*، ولا ينبغى نسيان أن يانوس الرومانى كان ربًا للتعميد فى الأسرار، كما كان راعيًا لمدرسة الصنائع *Collegia fabrorum*، وطوائف الحرفيين التى عاشت حتى العصور الوسطى وفى طوائف الحرف *Compagnonnage* فى العصر الحديث، ولكن ندر فى عصرنا من يعلم شيئًا عن الرمزية العميقة الكامنة فى ’محفل القديس يوحنا *Lodge of Saint John*‘.

23 عرض لطرائق الماسونية الحرة

يقول الكاتب فى مقدمته إن المقالات المجتمعة تحت هذا العنوان[1] تقصد فى انجلترا على الأقل بيان أن هناك مسائلًا تستحق الاهتمام أكثر من الموضوعات التاريخية والأثرية التى تكاد تشكل بؤرة الأدبيات الماسونية بأجمعها، ونعتقد أنه نجح فى ذلك، ويوجه الخطاب فى كتابه إلى المسائل المتنوعة التى تكاد تُطرح يوميًا حول ما يمكن تسميته 'هامش' الماسونية، ويبدأ بسؤال عن عدد المراتب فيها، وهو موضوع أثرناه فى عدد سابق من هذه المجلة[2].

ويقول كتاب الدستور "إن هناك ثلاث مراتب فحسب بما فيها مرتبة العقد الملكى المقدس *Holy Royal Arch*"[3]، والواقع أن هذه هى الإجابة الوحيدة التى تتسق مع منظور الأرثوذكسية الخالصة[4].

وينبنى على ذلك أن 'ماسونية العقد الملكى *Masonry Arch*' لا تختلف أصلًا عن

---

[1] *By The Rev. John T. Lawrence (P.A.G.C., Eng.) [This review was published in La Gnose, January 1912, under the initial 'P'] published by A. lewis, 13, Paternoster Row, London, E. C.; and the author's residence, St Peter's Vicarage, Accrington. -The same author (former editor of The Indian Masonic Review) has already published various other works on Masonic subjects: Masonic Jurisprudence and Symbolism, Sidelights on Freemasonry, etc.*

[2] *'La Gnose et la Franc-Mayonnerie; 1st year, no. 5 [See 'Gnosis and Freemasonry', chap. 7 in present text].*

[3] ولا ينبغى خلط مرتبة "ماسونية العقد الملكى المقدس" فى الماسونية الانجليزية والأمريكية بالمرتبة 13 من المحفل الاسكتلندى بلقب 'العقد الملكى'.

[4] *It should be noted that the three 'degrees' in question here are exactly the same as what are elsewhere called the 'initiatic grades', which are then distinguished from 'degrees of initiation' properly speaking, 'the multiplicity of which is necessarily indefinite' (cf . L'Initiation Masonique, by F:. Oswald Wirth).*

’ماسونية الحِرَف Craft Masonry‘، والتى أضيف إليها ’الماسونية الرئيسية‘ لمجرد تكامل مفهوم الأستاذية فى ’ماسونية الزوايا القائمة Square Masonry‘[5]، ودون أن تشكل مرتبة خاصة على أى وجه كان، وقد تمخضت عنها نتيجة أخرى للاقتصار على ثلاث مراتب فى المنظومات المتنوعة والشعائر والمحافل المعروفة باسم المراتب العليا، والتى لا يمكن اعتبارها ماسونية جوهريًا، وليس لها دور فعال فى الماسونية، والواقع أن هناك منظمات ’هامشية‘ فحسب وقد غُرست إبان الحقب الأخيرة فى الأخوَّة الأولى ’لقدماء الماسونيين الأحرار المقبولين‘[6]، وغالبًا ما لم يحدث تواصل مع الأخوَّة ولا مع بعضها بعضًا، ناهيك عن أنها تجند أعضائها من الذين يحتلون مراتب بعينها من الماسونية[7]، وقد كانت ’ماسونية العلامات Mark Masonry‘ التى يمكن اعتبارها بمعنى ما استمرارًا لمرتبة الرفيق فى طوائف الحرف القديمة[8]، والتى كانت بدورها أساسا لماسونية ’بحارة السفينة الملكية Royal Ark Mariners' على سبيل المثال[9] لهذه المنظومات، وقل مثل ذلك عن منظومات الفروسية التى تعترف فقط بعضوية ماسونيي العقد

---

[5] ويعنى مصطلح 'Square Masonry' الماسونية القائمة على رمزية قائمة الزوايا فى حين يعنى مصطلح 'Arch Masonry' الماسونية القائمة على رمزية المنحنيات، أما الأشكال الهندسية المستعارة من الماسونية العاملة القديمة فليس لها إلا قيمة رمزية عند الماسونية التأملية كما فعلوا بالهرمسية القديمة، ويعنى تعبير "الانتقال من المثلث إلى الدائرة" فى الماسونية الفرنسية القديمة كما يلاحظ فى شعائر محفل الكهنة المختارون .

On this subject, see further 'A Propos du Grand Architecte de l'Univers', 2nd year, no.8, p215, n1 [see 'The Great Architect of the Universe', chap. 2 in present text]; and on the solution to the Hermetic problem of' squaring the circle', see 'Remarques sur la production des Nombres', 1st year, no.8, p156 [pt.1, chap. 7 of Guenon's Miscellanea].

[6] و’المحفل الأعظم القديم المقبول للماسونية الحرة‘ فى أمريكا لازال اللقب المميز لكل المحافل التى ارتبطت بممارسة المراتب الرمزية الثلاث ولا تعترف بغيرها، رغم أن شعائر المحفل الاسكتلندى تدعى لنفسها "القِدَم والأولانية" أو حتى "البدائية والأصالة" رغم آنف البراهين التاريخية.

[7] ولا تكاد شعائرها تربو عن تلاعب بمصطلحات الماسونية الرمزية، راجع الباب الثامن من هذا الكتاب وكذلك *See 'Les Hauts Grades Ma~onniques', 1st year, no.7. 'The Masonic High Grades'.*

[8] وقد انقسمت مرتبة Mark Degree إلى Mark Man و Mark Master، والتى قامت على النص التوراتى "الحجر الذى رفضه البناؤون صار رأس الزاوية" المزامير *118: 22*، والذى اقتبسه لوقا فى سفره *20: 17*، ويقوم حجر الزاوية بدور يشاكل الزاوية القائمة فى ماسونية الحرف..

[9] وليست هذه المرتبة الإضافية مهمة بذاتها، إلا أنها مرتبطة بالفيضان التوراتى كما تعنى تسميتها.

الملكى *Royal Arch Masons* ، ونضيف إليها ’المحفل الموحد للمعبد فى مالطا‘، و’ محفل الصليب الأحمر فى روما و القسطنطينية *Order of the Red Cross of Rome and Constantinople*[10] ،

ونذكر فى سياقنا منظومات أخرى من المراتب العليا فى انجلترا باستثناء المحفل الاسكتلندى القديم مثل ’المحفل الملكى الاسكتلندى *Royal Order of Scotland* ‘ الذى ينطوى على مرتبتين فقط هما *H. R. D. M.* و *R. S. Y. C.S*[11] ، و’المحفل الملكى والأساتذة المختارون ‘ أو ’الماسونية الشفرية‘ و’ماسونية المراتب المندمجة *Allied Masonic Degrees*‘، ناهيك عن محفل ’المراقب السرى *Secret Monitor*‘[12] وأتباع ’الصليب الوردى‘[13] ...إلى آخرها.

ولن نتحدث هنا عن الأبواب التى تتعلق بجوانب الماسونية الانجليزية حيث إن ما يفوقها أهمية ما اعتبره الكاتب الذى كان قاسياً بعض الشيء حيال ’محفل المشرق الأعظم‘ الفرنسى[14] ، ويعالج مسائل رمزية وتأملية متنوعة، وتقوم مرتبة العلامة على المتن المقدس الذى يقول "الحجر الذى رفضه البناؤون صار رأس الزاوية"، المزامير *118:22*، كما جاء فى إنجيل لوقا *20:17*، ويقوم حجر الزاوية من بين الشعارات المميزة لهذه المرتبة بدور الزاوية القائمة فى ’ماسونية الحرف والتأمل‘ حيث تضفى انطباعات للإفصاح عن مسائل متنوعة تتعلق بتفسير المراتب الرمزية وقيمتها من ناحية المنظور التاريخى.

وللأسف يقصرنا ضيق المجال على ترجمة عناوين أهم تلك الأبواب، ’سليمان الملك‘،

---

[10] والصليب أو أحد أشكاله المتنوعة هو الشعار الرئيس لطوائف الفروسية، وهو ما يقطع بأنها ’مسيحية ثليثية‘.

[11] *Abbreviations of Heredom (or Harodim, the derivation of which is highly disputed) and Rose-Cross.*

[12] وتقوم شعائر محفل ’المراقب السرى‘ على تاريخ الصداقة بين داود وجوناثان فى صموئيل الأول *20:18*، والتى حلت محل شعائر محفل ’الخيط القرمزى‘ التى قامت على سفر يشوع *2: 18*.

[13] *The object of the Rosicrucian Order, which comprises nine degrees, is entirely literary and archaeological, and despite its title it has nothing in common with the 'Rose-Cross'. tl1e 1sth degree of the Scottish hierarchy.*

[14] *In this regard, see 'L'Orthodoxie Mayonnique, 1st year, no. 6 [chap. 6 in present text]; 'Apropos du Grand Architecte de l'Univers', 2nd year, nos. 7-8 [chap. 2 inpresent text]; and 'Conceptions scientifiques et Ideal masonnique', 2nd year no.10 [chap. 1 in present text). - But, at least for the time being, we do not wish to treat the question of the 'Landmarks' of Freemasonry..*

'الا توراة والا شعائر'[15]، 'القديس سان يوحنا'[16]، 'تتراجرا ماتون'[17]، 'أشلار الكامل'[18]، 'سلم يعقوب'[19]، 'الأرض المقدسة'، 'فرع الأكاسيا'، وننصح المهتمين بالدراسات الماسونية بهذه الأعمال المحيرة القيمة.

---

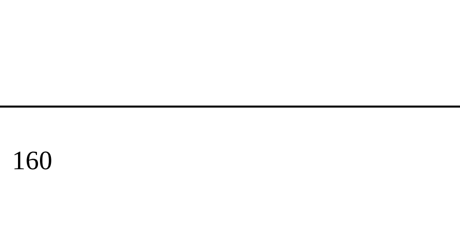
[15] ولنلق ملاحظة واحدة عن هذا الموضوع، فالتوراة اليهودية عندنا تشكل شطرا من 'مجلد الناموس المقدس' والذى يشكل فى مجمله المتون المقدسة لكل الشعوب.

[16] *The author's strictly 'evangelical' point of view differs markedly from that of F:. Ragon, who dealt with this question in La Messe et ses Mysteres, chap. 21 (see L'Archeometre, 1st year, no.n, pp244-245).*

[17] *At the beginning of this chapter there seems to be some confusion between the two divine names i1'i1~ (signifying 'I am') and i11i1', which are both four-letter words, and which are both derived from the root i1'i1, 'to be'.*

[18] وللأسف أن الكاتب قد اقتصر على التفسير الأخلاقى لهذا الرمز وغيره.

[19] *In regard to this symbol, see L'Archeometre, 2nd year, no.12, pp311-313. -The author remarks, with reason, that the Ladder (of seven rungs, formed respectively from the metals corresponding to the different planets) figures equally in the Mysteries of Mithra (sth grade); on these Mysteries and their connection to Masonry, see Discours sur l'Origine des Initiations, by F:. Jules Doinel (1st year, no. 6).*



24 عروض نقدية

الكتب

PAUL CHACORNAC,
Le Comte de Saint-Germain كونت سان جيرمان
(Paris: Chacornac Freres).

هذا الكتاب الجديد حصيلة سنوات من البحث الدؤب، وقد اندهشنا لكمية العمل على وثائق من كل نوع لتوكيد كل معلومة بتمحيص تام، ولا نملك التعبير عما يكفى من الامتنان لهذه النزاهة فى العمل، وحتى لو استحال استيفاء كل النقاط فهناك على الأقل عدد لا بأس به مما يبدو مستوفياً تماماً، وكان لابد من جلاء الخلط الذى شاب سيرة بعض الأشخاص لكى يمكن ذلك، وخاصة الجنرال كلود لوى دى سانت جيرمان، وقد كان الخلط الذى شابه من أكثر الأنواع شيوعاً رغم تشابه الاسم واللقب الذى تفسره، وهو ما كان مدهشاً بدوره فقد كانت مسألة إنسان قام بدور تاريخى لا ينُكر ولا يشوبه غموض ولا سر، كما تناول الأمير راكوتزى *Prince Rakoczi* الذى نسج حوله بعض الناس حكايا فى زمننا، ولم يكن تاريخه المعروف سوى سلسلة من الاستحالات، والأرجح أن ظروفاً بعينها أحاطت بإخفاء أصل كونت سان جيرمان، كما ذكر عددٌ من الشخصيات الواقعية أو المفترضة، ولابد أن بعضهم كان له شبَه وجودى ليحفز أوهام الخياليين بناءً على الأسماء العديدة التى اتخذها كونت سان جيرمان لنفسه فى فترات عدة وفى بلاد أخرى، وبعد تمهيد الأرض صار من السهل تتبع سيرته منذ بداية ظهوره فى لندن عام *1745* حتى وفاته الرسمية فى قصر أمير هيسّى عام *1784*، وحينما استطاع دحض إشاعات كازانوفا وغيره من 'المؤبّنين *memorialists*'، وهمهمات الأوهامى جوف *Gauve* وغيرها من القصص التى ألصقت به زوراً على منوال الدور الذى قام به فى الثورة الروسية عام *1762*، وهو ما يقطع بانعدام الشبه بالمغامر والأفاق الذى صوره بها بعض الناس، والواقع أننا لا نرى فيه إلا رجلاً موهوباً فى أمور شتى، ويحتكم على معارف غير معلومة من مصدر أو آخر عن كثير من الأمور، وإن كان له أصدقاء ومعجبين حيثما كان فقد كان له كذلك أعداء ألِدَّاء يفسدون مشروعاته سواء أكانت دبلوماسية فى هولندا أم فى

الصناعة أم فيما رغب مؤخرًا فى إقامته فى هولندا باسم سيرمون *Surmount*، إلا أن هناك 'أسطورة' إلى جانب هذه الحياة 'التاريخية' وتكأكاتها، وقد استمرت الأسطورة فى التداول حتى يومنا هذا، وخاصة ما تناول منها 'بقاء' كونت سان جيرمان وظهوره بعد تاريخ وفاته الذى أسميناه 'رسميا'، ولا جدال فى أن هناك مبالغات شتى فى كل ذلك والتى كان الثيوزوفيون فيها مسئولون عن تماهيه مع الأمير راكوتزى، والتى انتشرت مع موضوع 'المعلم *R*' وليست أقل منه شأنا، ولكم يبدو كذلك من الصعب دحض أمور أخرى حتى لو تشوهت أو أُخطئ تفسيرها، ويتساءل المرء ما إذا كانت بعضها ينطوى على قدر من الحقيقة، ولازال فى الأمر لغز، والحق إن هناك منظومة تاريخية صرف، فلم يتضح حتى الآن لغز مولد كونت سان جيرمان، ويرى الكاتب فى هذه النقطة حلًا يطرحه كفرضية، ولكنه على كلٍ يشاكل كثيرًا من التوازيات المتواترة، وتقول هذه الفرضية إن كونت سان جيرمان كان ابنًا طبيعيًا للملكة مارى آن من نيوبورج أرملة تشارلز الثانى ملك أسبانيا .مع كونت ميلجار أمير قشتالة وكان ثراءه سببًا لتلقيبه 'بنكير مدريد'، وهو ما قد يثير خلط بعض الناس الذين زعموا أنه ابن بنكير يهودى، ولو كان هذا الفرض صحيحًا لأدى إلى تفسير كثير من الأمور، خاصة وأن الموارد المالية الطائلة التى كانت تحت تصرف كونت سان جيرمان، والجواهر الثمينة والأعمال الأصلية لأساتذة التصوير التى اقتناها، وأكثر من ذلك فى ثقة الملوك والأعيان من لويس الخامس عشر حتى أمير هيسّى والذين لابد كانوا واعون بأصله المرتبط بهم، ولكنه ظل 'سرًا للدولة' بعيدًا عمن عداهم، أما عن 'الأساطير' الأخرى فإنها فُسِّرت بقدر الإمكان فى طرح المذهب التراثى فى باب الخاتمة، وحيث إن هذا الباب قد ظهر فى عدد ديسمبر *1945* فسوف نرضى بالتنويه عن الاهتمام الغامر الى قوبل به دون إسهاب، وأعتقد أن الذين استغرقوا فى أحلام اليقظة التى بلغت الآن حد التزيد فى دوائر بعينها لن يستطيعوا ذكر كونت سان جيرمان إلا بالإشارة إلى هذا الكتاب الذى نقدم إلى كاتبه تهانينا القلبية.

JOHN CHARPENTIER,
L'Ordre des Templiers, Paris: طائفة فرسان المعبد
'La Colombe'.

لقد نشر كاتب هذا الكتاب روايات أسند فيها إلى فرسان المعبد أو أسلافهم الحقيقيين أو المفترضين أدوارًا تشهد على أفكار قيمة فى هذه المسألة، وقد خشينا أول الأمر أن نجد فى هذا

الكتّاب مزيدًا من الانحراف ولكننا لحسن الحظ وجدناه دراسة تاريخية جادة، إلا أننا أسفنا لاستحالة معرفة رأى الكاتب فى ’جوانية‘ فرسان المعبد، وأنه لم يكن لديهم جوانية من قبل، وإذن فمن أين أتت الجوانية؟ ولا شك أنها جاءت من الشرق، ولم يكن تواصلهم مع الاسماعيلية ليورثهم أكثر من بنية المراتب التى اختلطت بالوظائف، ونوعًا من ’الاسلمية العالمية*universalism* *pacifist* ‘ كذا، والتى ربما كانت وراء ’إمبراطورية‘ دانتى، وينهل كاربينتيه فى طرحه لمسألة ’كفر‘ الفرسان من مقالات كتبها بروبست بيرادان -*Probst* *Biraben* و مايترو *Maitrot* من جماعة موتّى كابرون، وحيث إننا تفحصنا تفاصيل هذه المقالات فى عدد اكتوبر/نوفمبر عام *1945* فلن نعود هنا إليها، ولا يعتقد الكاتب بأن الفرسان هراطقة حقًا، ولكنه يقر بأنهم ’غنوصيين *gnostics*‘، وقد أصاب بملاحظة العلاقة تحت غطاء "إن المرء يجد تحت هذا العنوان أفكارًا غير معتادة لا تترابط ولا تتصالح"، كما "أن كل الخصائص التى نعلمها عنهم جاءت من مناوئيهم"، وأصبحت الأمور عند هذه النقطة أشد تعقيدا، فمن المعلوم أن فرسان المعبد متصلون عن بعد بالغنوصية الفالنتانية *Valentinian* *gnosticism*‘ من ناحية، ومن ناحية أخرى " نتحدث عن غنوصية فرسان المعبد إبان حياتهم"، وليست هذه هى الحال، كما أن الأمر لم يكن مسألة مذهبية، "فلم يظهر برهان مُقنع عليها"، فلم يتحدث فرسان المعبد باعتبارهم دُعاة *propagandists*(?) إلا فيما تعلق بالأفكار السياسية والاجتماعية القائمة على العسكرية، ولا بد أنه كان لديهم منظومة شفاهية لتداول التراث، ولكن على ماذا تقوم؟ وأخيرًا يبدو أنهم كانوا جوانيين من أصل فيثاغورى، ولكننا لا نعلم شيئًا عن الكيفية التى تعلموا بها، والواقع أن من الصعب أن يجد المرء طريقًا فى كل هذا! كما أننا لا نفهم ما إذا كان مذهب يوحنا *Johannism* ينتمى إلى القديس يوحنا الإنجيلى أم إلى القديس يوحنا المعمدان، أما عن الفيثاغورية ومن أين جاءت فإن مفتاح هذا اللغز يكمن فى علاقة الفرسان بطوائف البنائين، وقد ’عالج‘ الباب الأخير مسألة ’فرسان المعبد‘ على نحو موجز، ولنذكر فى سياقنا أن سقطة عجيبة فى الزمن قد أدت بالكاتب إلى أن يكتب اسم ’ماجنوس جرينز*Magnus* *Greens*‘بدلًا من ’نايموس جريكوس*Grecus* *Naymus*‘، ثم ’الفرسان الجدد*Neo-Templars* ‘ التى تُعزى إلى ’فابر بالابرا *Fabre Palaprat*‘، وقد اندهشنا للغاية عندما وجدنا اسمنا يُذكر بين الذين أيدوا الموضوعة التى جعلت لارمينوس *Larmenius* وريثًا شرعيًا لعرش الملايو! ولا نذكر أننا كتبنا كلمة واحدة فى أى موضع عن هذا الأمر، وعلى كلٍ فلم

نكن على يقين من أن لارمينوس هذا قد وجد أصلا، كما نشك فى كل ما ورد عن الفرسان الجدد بما فيها 'الأبجدية السرية'، ونأمل فى تصحيح هذا الخطأ وإعلانه حين تطرأ مناسبة.

G. DE CHATEAURHIN,
Bibliographie du Martinisme
سيرة المارتينيزية
(Lyon: Derain et Rade).

يبدو أن كاتب هذه السيرة على علاقة حميمة مع جيرار فان راينبيرك الذى طرحنا عمله عن مارتينيز دى باسكواليس، ويتفق مع الاستخدام الذى أسسه الغيبيون المعاصرون الذين يجهلون تاريخ الماسونية فى القرن الثامن عشر، والذى يحتوى تحت عنوان 'المارتينيزية *Martinism*' على عدة أمور تختلف عن علاقة محفل مارتينيز دى باسكوالى باسم 'الكهنة المختارون' مع فيليمروز والمحفل الاسكتلندى المعدل، وأخيرًا أسرارية سان مارتان أى المنظمة السرية التى أسسها بابوس، والتى كان يفضُل فصلها إلى فرعين يناظر كل منهما موضوعًا مختلفًا وليس 'موضوعات تتعلق بالمارتينزية التى تناولها عرضًا'، ويكون تقسيمًا بسيطًا لكل من القسمين، أما عن 'المراجع المذهبية' التى جاء ذكرها منفصلًا فهى أدبيات مارتينيز دى باسكوالى و سان مارتان، ولم يكد يضيف إليهم غيرهم، وكان من الأصوب أن يميز هذا العمل الجديد كتابات مارتينيز وبين التى تتسم بالماسونية وبين التى تناهض الماسونية وبين الكتابات 'المحايدة' والتاريخية، وكان من شأن ذلك معاونة القارئ على ترتيب الأمور بشكل أسهل، وعلى كلٍ فإن القوائم تبدو كاملة رغم غياب كتاب ستانيسلاس دى جوياتا 'محاورات عن التعميد *d'Initiation Discours*' التى تستحق مكانًا فى الدراسة، لكننا لا نرى مبررًا لتضمين الغموض الذى يسمى 'الشيطان حتى القرن التاسع عشر *The Devil to the 19th Century*'، ناهيك عن المنشور الذى كتبه بابوس ردًا عليه بعنوان 'الشيطان والغيبية*The Devil and Occultism* '، كما أنه أهمل اقتباس دوانيل *Jean Kostka's Jules Doinel* 'كشف الشيطان *Lucifer Unmasked*' الذى دافع عن المارتينزية بشكل مباشر.

W.R. CHETTEOUI,
Cagliostro et Catherine II

كاليوسترو و كاثرين الثانية.

Paris: Editions des Champs-Elysees..

كان من المسرحيات العديدة التى كتبتها كاثرين الثانية ثلاثة تتعلق بما أسمته 'الرائون *visionaries*'، ويشتمل هذا المصطلح بحسب ما تعنى على الماسونيين وأعضاء المنظمات التعميدية المتنوعة، كما اشتمل على 'رائين' مستقلين وأسراريين، وعلى الأخص كاليوسترو *Cagliostro* الذى اختصته بعداوتها، وقد تُرجِمت المسرحيات الثلاث فى هذا الكتاب لأول مرة فى الفرنسية، وأولها 'المخادع *The Deceiver*'، وتقدم فيه شخصية لا شك أنها كاريكاتير لكاليوسترو، والثانية 'المخدوع *The Deceived*'، وهى هجوم عنيف على الماسونية والمنظمات المشاكلة، أما الثالثة 'شامان سيبيريا *The Siberian Shaman*' فليس فيها تنويها عن سابقتيها أيًا كان ما يظن المترجم، لكنها تعود بوضوح إلى كاليوسترو، كما يحوى المجلد نشرة مختصرة بعنوان 'سر الجمعيات المناهضة للعبث لكاتب ليس منهم *The Secret of the Anti-Absurd Society revealed by someone who is not one of them*'، والتى تستعرض فيها طقوس الماسونية وفقهها، ولكنها فى الآن ذاته تتخذ منظورًا مناوءًا باسم المعقولية العامة *common sense*، ويشهد الأمر كله بعدم الفهم وضيق الأفق والعقلانية الضيقة التى نتوقعها من تلميذة الفلاسفة، ولا حاجة بنا إلى الالتفات إلى هذه المسرحيات بحثا عن معلومات صادقة عن الموضوع رغم أنها تحفة أدبية، لكن الكتاب بلا شك حب استطلاع تاريخى.

وقد سبق الترجمة مقدمة ضافية عن الماسونية فى روسيا إبان القرن الثامن عشر، ولسوء الحظ لم تكن معرفة شيتوى بتاريخ الماسونية مؤكدة، فقد أخطأ بعض الأخطاء التى عادة ما يقع فيها الدنيويون التى ناقضت دعاواه، وحتى لو جمع أعضائها بالماسونيين، فطائفة الصليب الوردى ليست ماسونية، أما عن خلط أمور مختلفة معًا تحت لافتة 'المارتينيزية' فذلك قطعًا ليس من عمله، رغم أنه ليس على دراية بكيفية فك خيوط المسألة، ألا يعتقد حقًا بألا وجود لمريدى القديس سان مارتان؟ وارتكب خطئًا مدهشًا لا تفسير له بقوله "إن مذهب 'التقوى الصارمة' مشتق من مذهب فرسان المعبد الذى تحطم منذ أربعين عامًا"! ولنضف أن لقاء محفل فيلهلمسباند *Wilhelmsbad Lodge* الماسونى لم يكن فيه أثر لمذهب 'التقوى الصارمة' الذى حل محله 'المحفل الاسكتلندى المعدل'، وللعجب أن هذا التمييز المهم لم يرد له ذكر،... ويتبع ذلك سيرة كاليوسترو التى استلهمت من مارك هافين *Marc Haven*، وتميل إلى تصوير

كالياسترو ’كأستاذ‘ حقيقى، ولدينا انطباع عن أن الكاتب ربما وضع تحت معطف كالياسترو بعض الشخصيات الأخرى مثل مارك هافين الذى كتب ’اللأستاذ المجهول *Unknown Master*‘، ولن نستطرد فى التفاصيل الأخرى مثل سيرة المعالجين الذين ليس لهم أهمية ’روحية‘ كما يُعزى أليهم، أو الاعتقاد ليس له مبرر فى أصالة بعض الأناجيل الزائفة التى نشرها الثيوزوفيون و"كنيستهم الكاثوليكية الليبرالية"، ولكن لا بد من معالجة نقطة تخصنا مباشرة، والتى جعلت منها الأحداث الأخيرة أمرًا مسليًا لنا وإن لم يكن كذلك لغيرنا.

فقد شعر شيتووى بالحاجة إلى قول "وسواءً أكان ذلك يسر الفكر السلبى لأمثال رينيه جينو أم غير ذلك فإن فرنسا تفخر بأن بها أعلى مدرسة تعميدية فى العالم الغربى، وقد قُدِّر لهذه المدرسة بمناهجها المُجرَّبة أن يكون لها أثر غامر فى العالم أجمع"، وحتى لا يبقى شك فى مغزى ما يقول فإن الفقرة قد تبعها فقرة طويلة اقتباسًا من مؤسس مايُدعى ’المدرسة الربانية‘، والتى حاق بها حظٌ عاثر’! يحسن ألا نخوض فيه، ورأينا بدلًا من ’الأثر الغامر‘ تركت ذكريات بالغة الفجاجة، ولابد من ملاحظة انعدام الدافع إلى توريطنا فى حين لم نذكر فى أية مناسبة عامة على الأقل شيئًا عن التعميد الزائف المذكور، لكننا نقر راضين بأن سلوكنا حياله ليس إلا ما كان يعزوه إلينا، ولابد من الاعتراف بأن الأحداث قد حملتنا بعيدًا على منوالٍ كاملُ المغزى.

فهل يصدقنا شيتوى لو قلنا له إن حديثنا عن كتابه كنا نتوقع نهايته منذ فترة مضت! زد على ذلك أن ما سمعناه من مصادر عديدة يحملنا على الظن أنه قد هجر الأوهام التى علقت بهذا الموضوع، كما نتمى لأجله أن يهجر غيرها عن بعض الأمور! وهكذا يفلت مجد العالم *Sic transit gloria mundi*....

DR. R. SWINBURNE CLYMER,
The Rosicrucian Fraternity in America, Vol. I
أخوة الصليب الوردى فى أمريكا، المجلد الأول.
(Quakertown, Pennsylvania: The Rosicrucian Foundation)

يحتوى هذا المجلد الجسيم على عدة أجزاء يبدو أنها نشرت منفصلة من قبل، ويتعلق بعضها بتاريخ منظمات 'الصليب الوردى' فى أمريكا أو ما يُفترَض أنه كذلك، ويتعلق بعضها بالمشاحنات النمطية بينها، والتى أشرنا إليها فى مقالة حديثة، كما أن المؤلف قد اقتصر على اتهام طريقة واحدة تنافس طريقته التى عُرِفت باسم *A.M.O.R.C*، فى الوقت الذى توفرت فيه دستة أخرى من المحافل 'اللاقانونية' على منوالها، والتى يدعى احتكار أسمائها، فهل كان ذلك نتيجة أن التنافس أشد تعقيدًا من واقع أن كلى المحفلين يتنافسا على لقب "الفيدرالية العالمية للمحافل والجمعيات التعميدية"، فهل يعنى ذلك أن هناك أكثر من واحدة؟ وأيًا كانت المسألة فمن الصعب فهم كيف تقبل الجمعيات التعميدية الانطواء فى تلك الفيدرالية ويقفون فض خلافاتهم أمام سلطة قضائية دنيوية؟ وكيف تثبت الشهادات الصادرة منها ما يزيد عن 'الأولوية' فى التعين الاجتماعى، وهو مالا علاقة له بأى برهان على أصالتها، ويبرهن ذلك على عقلية غريبة فائقة الحداثة،... وبعدُ، فإن ذلك لا يبرر دعوى الدكتور كلايمر *Dr Clymer* الذى يقول بأنه قدم توثيقًا معلمًا على أن غريمه قد 'سرق' فيما سماه 'التعاليم السرية' كلمة بكلمة من كتب معروفة لكتّاب مثل فرانز هارتمان *Franz Hartmann* و إيكارتسهاوزن *Eckartshausen*، وها هنا أمر يسلى عن الأخير، فيقول الكاتب إنه " قام ببحث مستفيض ولكنه لم يعثر على كاتب واحد سواء أكان سلطة أم غير ذلك يقتبس شيئًا من إيكارتسهاوزن باعتباره من مذهب الصليب الوردى"، ونحن نقدم له 'المصدر' الذى يروغ منه فى كتاب سيدير *Sedir 'Histoire des Rose-Croix*' بين سيَر كثير من الذين ادعوا الانتساب إلى الصليب الوردى، ونعثر على ملحوظة فى الكتاب الأخير المكرَّسة لإيكارتسهاوزن *First edition, pp 159-160; 2nd edition, p 359*، وهنا نجد مرة أخرى أن امبراطور *A.M.O.R.C*. لا يملك حتى ادعاء حق الاختراع! ثم إنه يعلم أمورًا بعينها يمكن أن يُشار إليها 'بالقرصنة' من نوع طفيف الاختلاف، فإصدار شهادة دبلوم باسم 'المدرسة العليا للمحافل' فى حين أن هذا اللقب مقصور على مدرسة محفل المشرق الأعظم الفرنسى *Grand College of Rites*، ولا نشك بعد أن عرفنا بالضبط الظروف التى أحاطت به ليكتشف ذاته، وملاحظة أن الدبلوما المذكورة مؤرخة

بتاريخ لاحق، ناهيك عن تفاصيل ذات مغزى فى هذا السياق وتتعلق بالخاتم الذى تعدَّل بمهارة... كما طرأت أمور خيالية مثل دبلوما من 'محفل الصليب الوردى المصرى' الذى لا وجود له، ورغم 'السلسلة الليبية' التى يرتديها تبدو تقليدًا لنموذج أسبق، ثم لماذا يكتب الدكتور كلايمر بفرنسية تقريبية أن من الأفضل أن يقول المرء *Rose-Cross*[1] من أن يقول *Rose-Croix*؟، والحق إن المرء لا يجب أن يتوقع معرفة لغوية من شخص يكتب اسم مؤسسته بلاتينية نعتقد أن من الإحسان عدم تكرارها!

ولنتجاوز ذلك إلى أمر أكثر أهمية، فالواقع الصريح يقطع بأن الامبراطور قد فبرك مؤسسته *A.M.O.R.C.* من أولها إلى آخرها، رغم القصة الخيالية عن شخص مفترض قد تلقاها وحيًا فى تولوز عام *1915*، ولم يوجد أثر لجماعته مطلقا، وقد تواصل فى وقت لاحق بمنظمات عدة يديرها آليستر كرولى *Aleister Crowley* الشهير، والذى تحول إلى أحد معاونيه بطريقة غامضة، وهو ما يبين أن التحول من 'التعميد الزائف' إلى 'مناهضة التعميد' أمر سهل للغاية،... وأَطلق على كرولى 'الساحر الأسود' بما لم يُعدَّ تشهيرا، حيث إنه كان كذلك 'رسميًا' فى حكم صدر عليه فى لندن منذ بضع سنوات، إلا أن التهمة من منظور محايد قد قامت على أساس أقوى مما اتهمه به الدكتور كلايمر الذى أفصح عن جهله بالرمزية، والتى عبرنا مرارًا عن أن الرمز يمكن أن يعنى عكسه، وما يهم فى هذه الحالة هو النيَّة من وراء استخدامه فحسب، ولكنه لا يُدرَك من حيث مظهره الخارجى الذى لا يتغير، ومن المهارات الأولية 'للساحر الأسود' أن يفعل كل ما يمكنه للاستفادة من هذا الغموض، و'القرصنة' التى تكثر فى كتابات كرولى مثل شعار الحمامة فى طائفة الجريل *Grail* الذى جاء مباشرة من بالادان *Peladan* ولا بد أن يؤخذ فى الاعتبار، ولكن ما يسم دكتور كرولى هو الهوس برمز المثلث المقلوب، ويبدو أنه لا يخطر بباله أن هذا الرمز شائع فى معظم الرمزيات الأرثوذكسية بمعنى مهم، وقد نعكف على تفسيره فيما بعد، وكيف تأتى له ألا يعلم أن هذا المثلث من علامات المراتب العليا فى الماسونية الاسكتلندية التى لا يشوبها 'سحر أسود'؟ ونقرُّ بأن هناك مشكلة لم نجد لها حلاً، وهى معرفة كيف لا يشير 'منديل حول الرقبة' إلى أسفل، لكننا لا نعتقد أن أحدًا قبل دكتور كلايمر قد فكر فى ربط فكرة المنديل بالمثلث المقلوب، ولا حاجة للمرء فى استقراء أكثر إلا فيما تعلق 'بالتزوير' من واقع أن زعماء المنظمات الماسونية الزائفة يرسمون صليبًا ثلاثيًا قبل توقيعهم حتى يقلدون أعضاء المجالس العليا للماسونية الأصلية، وليس لذلك شأن برمز

[1] *In English in the original text. ED,*

الشيطان! ويلجأ كرولى الذى صار امبراطوراً إلى استخدام صليب محمل بعلامات شتى، لكن الفحص الدقيق يبين أنها حروف عبرية ورموز خيميائية وفلكية، وكل شىء يبدو بلا أصالة ولا شخصية، وحيث إن رموز العناصر الأربعة موجودة فيها فكيف لا نرى المثلث المقلوب؟ كما أن هناك ما يسمى 'الديك الأسود' الذى يبدو مظهره شريراً لآول وهلة لكنه ليس إلا نسخة من الأشكال الغريبة التى يسميها الأثريون '*gryllus*'، ويعزى أصلها صواباً أم خطئاً إلى الغنوصيين من أتباع القديس بازيل، وقد ورد هذا الشكل فى مجموعة روسّى و مافاتى *Rossi and Maffai, Gemme antiche,vol. 1, no. 21*، وفى كتّاب ماتّيه *Matter's Histoire critique du Gnosticisme, plate 1f, figure 2b*، ويبرهن كل ذلك على أمر واحد هو وجوب أن يعرف ما يتحدث عنه، وأن من الخَرَق أن يتبع المرء خياله، ويكفى هذا القدر من 'العجائب'، أما الطرق الزائفة فى 'الإعلان' الذى شجبه د. كلايمر فإننا نتفق معه فى شجبها، ولكن هل يذكر مقالًا صغيراً منذ ربع قرن مضى بعنوان 'المصرى *The Egyptian*' يحتوى على إعلان لا يكاد يختلف أسلوبه عن ذلك؟

وسوف نستطرد بإيجاز عن الجانب 'التاريخى' للكتاب فى الوقت الراهن على الأقل، ولنذكر أولًا أن 'الميليشيا الصليبية الإنجيلية *Militia Crucifera Evangelica*' التى كانت أحد الأصول التى اعتمد عليها د. كلايمر كانت بدورها لوثرية وليست من الصليب الوردى ولا من طرق التعميد، كما أن قبول 'تعديل الدستور الأمريكى' أمر يحوطه الشك، فما بين أعوام *1598* و*1901* فسحة من الزمن من الصعب ملؤها،... وقد كان جورج ليبارد *Georges Lippard* كاتب مغمور له بعض الأعمال الروائية عن موضوعات اجتماعية وسياسية فحسب، وقد ذكر فى بعضها شخصيات قد تنتمى إلى الصليب الوردى، والذين لا يمكن القول عنهم إلا أنهم متآمرين وليسوا معمَّدين، إلا أنهم شكلوا القاعدة التاريخية التى قام عليها المحفل الأمريكى فى القرن الثامن عشر، ويأمل المرء فى شىء أفضل رغم صعوبته، فمن المؤكد أن الصلات التى بقيت لدى د. كلايمر ومنظومته مقصورة على منظمة راندولف *P. B. Randolph* وخلفائه، فهل يشكل ذلك ضماناً كافياً خاصة من منظور محفل الصليب الوردى كما يُفترض، ولن نجيب على هذا السؤال الآن، رغم أن القراء سوف يخمنون ما نقصد، ولنختم هذا العرض بذكر أن الباب الذى عالج الصلة بين راندولف وبعض معاصريه لا يخلو من نفع فسوف نعالج هذا الأمر فى مناسبة أخرى.

DR R. SWINBURNE CLYMER,
The Rosicrucian Fraternity in America,Vol. II,
أخوة الصليب الوردى فى أمريكا، المجلد الثانى.
Quakertown, PA: 'The Rosicrucian Foundation'.

لقد عرضنا سلفًا فى إبريل *1973* المجلد الأول من هذا العمل، ولكن الظروف حالت دون عرض المجلد الثانى الذى بلغ ألف صفحة، وقد مات الغريم الأول للكاتب وهو امبراطور *A.M.O.R.C*، لكن ذلك لا يقلل من أهمية هذا الكتّاب من منظور بعينه حيث إنه حالة نمطية لتهريج التعميد الزائف، والتى أضيف إليها شخصيات مشكوك فى أمانتهم كما ذكرنا عاليه وكما لاحظ غيرنا، ويضرُّ د. كلايمر بقضيته ضررًا بالغًا عندما يتحدث برطانة ولغة قبيحة، وأقل ما يمكن القول عنها انعدام الكرامة، لكن ذلك ليس من شأننا حيث لا ننتوى الاشتراك فى المعركة، وأيًا كان ما يدعى د. كلايمر فإن قضيته ’مفيدة‘ من بعض الجهات، فنحن نرى بين أشياء على سبيل المثال محاميًا يعقد اتفاقًا مع خصم موكله لترتيب الأمور لمصلحته دون علم موكله وعلى النقيض من مصلحته، ولسوء الحظ ليست هذه الأخلاقيات مقصورة على أمريكا! ولنكرر أن من الصعب فهم كيف تسوى المنظمات التعميدية خلافاتها أمام قضاء علمانى على هذا النحو، وحتى لو لم يكونوا تعميديون على الحقيقة فإن القضية لا تتغير، فالمنطق يحتم عليهم أن يتصرفوا على الأقل كما يدعون، وهناك أمر من اثنين، فلو كان القاضى علمانى فلن يكون كفئا للحكم، ولو كان ماسونيًا حيث إن المسائل الماسونية ذاتها قيد الحكم فسوف يجد نفسه فى حرج بين سرية الأمور التعميدية وعلنية واجباته العامة،... وفيما تعلق بالقضية المطروحة نقول إن د. كلايمر لديه عدة أفكار غريبة عن النظام الماسونى، يشتمل على منظمتيين كلاهما من مصدر واحد، فيمتدح أحدهما ويصب لعناته على الآخر، والسبب الوحيد أن أحدهما ’فيدراليته‘ والأخرى ’فيدرالية مناوئة‘، لكن هذه الدوافع المتوافقة لا تمنع توثيق الأخيرة، فإن *.F.U.D.O.S.I* تعنى *‘Federation Universalis Dirigens Ordines Societatesque Initiatis’* وأى لاتينى هذا؟ ولا مانع من أن يكون أكثر أجزاء الكتّاب نفعًا من منظور واحد، فألاعيب هذه الدوائر التى تسمى ’أخوية *fraternal* ‘ درس عميق! كما أن الكتّاب يحتوى على معارف من بقايا الحركات الغيبية الفرنسية القديمة التى تصر على البقاء، ونجد بالطبع ثيودور ريوس *Theodore Reuss* الذى أصبح *Frater Peregrinus* و آليستر كرولى ومعاونيهم ناهيك عن

مزيد من الشخصيات الغريبة حقيقية كانت أم وهمية، وجماعات ليست أقل منهم غرابة، ولا نملك تلخيص كل شيء هنا ولكنها فى مجملها تشكل مجموعة مهمة من الوثائق التى يجب أن يستشيرها كل من رغب فى تتبع التاريخ الخيالى للتعميد الحيث الزائف.

EMILE DERMENGHEM,
Joseph de Maistre mystique, لغز جوزيف دى مايستر
Paris: 'La Colombe'.

ظهرت مؤخرًا نسخة جديدة منقحة من هذا الكتاب، وأضيف إليها عدد من المذكرات التى تنطوى على عناوين أعمال تتعلق بالقضية المطروحة فى الطبعة الأولى، ونقدم للقراء الذين لا يعرفون هذا العمل تلخيصًا كاملًا بقدر الإمكان لسيرة جوزيف دى مايستر الماسونية فى زمنه وصلاته بالمنظمات التعميدية التى ترتبط بالماسونية، فضلًا عن كثير من الشخصيات التى تنتمى إلى تلك المنظمات، والتأثير الغامر لهذه المذاهب على أفكاره، وكلها أمور تثير الاهتمام وخاصة أفكاره الدينية والاجتماعية التى لم تُفهَم معظمها، وأحيانًا ما تُفسر على نحو مغلوط لا يناظر نواياه الحقيقية، ولن يحل المسألة إلا معرفة هذه المؤثرات، وينصب نقدنا على ما تعلق بالعنوان ذاته، فالواقع أننا لا نرى ما يمكن أن يكون أسراريًا فى كل ذلك حتى لو استنكف دى مايستر من العمل فى المنظومة التعميدية، ويبدو أنه لم يتحول إلى الأسرارية كما فعل كثير غيره، ولا يبدو منه تغيرًا فى التوجه، ولكن له سلوك بسيط فى التحفظ أصاب أم أخطأ، فهو مفروض عليه من واقع مهامه الديبلوماسية، لكننا نجرؤ على الأمل فى فض الاضطراب بين المجالين التعميدى والأسرارى فى بعض العقول.

PIERRE DE DIENVAL,
La Cle des Sanges مفتاح الأحلام*,*
Paris: Imprimerie Centrale de la Bourse.

"إن العالم الذى نعيش فيه أشد خداعًا من المسرح"، والحق إن هذا صحيح، ولكن هل هذا هو ما يدفع به الكاتب؟ فنظريته تقول إن هناك ’سرٍ مالى *financial secret*‘ يناظر عنده حجر ’الفلاسفة‘ الحقيقى، ويؤمن به مجموعتين من ’المعمَّدين‘، أحدهما انجليزية والأخرى يهودية،

ويتنافسا على السيطرة على العالم الغيبى، رغم أنهما يمكن أن يتحالفا على طرف ثالث، ومن المفترض أن هذا سر الماسونية، والذى لا يربو عن أداة صنعها الانجليز للسيطرة على كل البلاد، ومن الغريب فى النظرة الأولى أن نتذكر أننا عبرنا عن هذه المسألة فى عمل سابق عن حيرون من بلدة باراى لو مونيل *Hieron of Paray-le-Monial* و فرانسيس آندريه *Francis Andre* وهى مدام بيسونيت فافر *Mme Bessonnet-Favre*، ويمتد هذا التشابه إلى نقاط بعينها، بما فيها اعتبارات تاريخية أو ما يسمى بذلك، والدور الذى عُزِى لفرسان المعبد و جان دارك والكلتية *Celtism* التى يمثلها الجنس الفرنسى وغير ذلك، وهناك اختلاف جوهرى، فهذا الكتاب بعيد عن الروح الكاثوليكية وليس على أى دين كان بصراحة، ولم يكن دافعه إلا معاداة اليهود، وقد انكبَّ الكاتب بحماس على إنكار الوحى الربانى فى التوراة التى قال عنها "إنها ليست كتابًا دينيًا بمفهوم الكلمة الفرنسى!"، وكما لو كان يمكن أن يكون هناك مفهوم دينى فرنسى مخصوص، كما أن من الواضح أن رأيه عن الدين لا يربو عن أن يكون إنسانيًا وسياسيا، كما يعتقد ببرود أن الدور المنوط بالماسونية لا بد أن ينتقل إلى الكاثوليكية بعد تدجين البابا 'كذا'، وبالحكم على ما قال فإن ذلك قيد التحقق الجزئى، وينكر تكريس جوان دارك الذى "حرمها من حقها كبطلة قومية"، وأنها "مناورة من تدبير القادة الرسميين للكنيسة الكاثوليكية"، والذين فشلوا فى خدمة أساتذة الغيبية فى انجلترا، ولكن لنترك كل ذلك جانبًا بدلًا من ضياع الوقت فى الأوهام التاريخية التى يشتمل عليها الكتاب، ونركز جوهريًا على أن الكاتب لا يحتكم على أدنى فكرة عن ماهية التعميد، ولو كان 'كبار المعمدين' الذين تصور أنهم يشكلون لجنة عليا على غرار المؤسسات المالية لا شأن لهم إلا بما يكلفهم به، وسيكونون دنيويون تمامًا، كما أن ما يسمى عنده 'سرًا' كما يصفه فلا يزيد عن عبث طفولى بسيط، ولو صح ذلك فكيف بقى ذلك السر معصومًا وكيف لم يكتشفه غيره على مر العصور؟ فالواقع أنه قانون أولى يتعلق بالتعديلات، ويصوره لنا الكاتب فى صورة مسلية حاول فيها تصوير مثلث متساوى الأضلاع يلتف على البرجل!؟ ويعتقد أن هذا يجب أن يكون 'شعار الماسونية'، والذى لم يصنعه أشمول عام *1646*، وهو أمر ينأى عن العادة فى الرمزية لو اقتصرنا على أقل الأمور، ولا نلاحى وجود 'علمٌ مالىٌ' فى التراث، وأن هذا العلم له أسراره، لكن هذه الأسرار لا شأن لها بحجر الفلاسفة، ولها طبيعة خاصة تختلف تمامًا عما نرى هنا، كما أن التكرار الدؤوب لأن النقود ليست إلا أمرًا ماديًا كميًا يترتب عليه تبنى النظرة العامة التى يطمح إليها الناس، والواقع أنها تحطم العلوم التراثية كما تدمر المعارف ذات الصبغة نفسها، حيث إن الناس أنفسهم محرومون

من العلقية الحديثة وكل الأفكار التى تقع خارج 'المادة والكمّ'، وحتى لو لم يكونوا معمَّدين فإنهم لن ينخدعوا 'بالمادية' التى فُرِضت على العالم الحديث لأغراض لا شأن لها 'بالاقتصاد'، لكن اكتشاف الأداة التى يستخدمونها بحسب الأحوال أكثر صعوبة من اكتشاف أية 'لجنة' أو 'جماعة' تتكون من الانجليز أو اليهود،... أما عن 'علم المال' فسنقول ببساطة أنه لو كان من نرتبة 'مادية' فلن نفهم مطلقًا كيف أن المسألة التى تتعلق بوجودها الواقعى ليست خاضعة لقوة الحكم الزمنى؟ وكيف أنها اتُّهِمت بتغيير العملات لو لم تكن تسود فى هذا الأمر؟ بل كانت على العكس خاضعة لنفوذ روحى تحدثنا عنه فى كتابنا 'النفوذ الروحى والسلطة الزمنية *Spiritual Authority and Temporal Power*'، وقد تجلى هذا التحكم فى النقطة التى لا يملك المرء فهمها من بقايا المخطوطات التى صورت حافة العملة منذ برهة قريبة، ولكن كيف نفسر ذلك لمن يدفع بالقومية أو غيرها التى تهدف إلى تحطيم روح التراث على نحو منهجى، ولدرجة الانغماس فى دعاوى فيليب ذيفير*Philip the Fair* المتحذلقة، زد على ذلك أن من الخطأ قول إن المعادن التى تُسك بها النقود ليس فيها قيمة كامنة حيث إن قيمتها رمزية فحسب "فالذهب والفضة هما الشمس والقمر"، وذلك ما يجعلها أكثر واقعية، فالرمزية فحسب تُكسِب الأشياء فى هذا العالم صلة بحقائق علوية، ونضيف إلى هذه الاعتراضات الأساسية ملحوظة غريبة، فإن الباب الذى يعالج 'المخابرات *Intelligence Service* ' مخيب للأمل، ولا نقول باعثًا على الاضطراب، فهى تحتوى على بنية من فرضيات ذكية، وخاصة ما تعلق منها بقضية درايفوس *Dreyfus*، ولم يرد ذكر حقيقة مؤكدة واحدة بما فيها الشهرة العامة رغم عدم نقصها، ورغم مصفوفة عريضة من الاختيارات،... ومن ناحية أخرى يشير الكاتب إلى دراسة سابقة له عن المسائل المطروحة، فكيف تأتى لهذا المتعصب ضد الماسونية أن ينشر هذه الدراسة التى نعلم تمام العلم صلاتها بالماسونية؟ ولا نرغب فى إقحام أنفسنا على إخلاص أحد، ذلك أننا نعلم أن الناس 'مقودون' دون علمهم، لكن علينا أن اعتبار هذا الكتاب كتابًا آخر يُضلل ولا ينير، ومن منظورنا المحايد لا نملك إلا الاعتراف بأن الكتب من هذا النوع تطَّرِد هذه الأيام بمعدل غير طبيعى بلا تناسب يثير الحيرة،... وأيًا كان الأمر فإن أعظم برهان على أن الكاتب لم يضع يده على كتاب 'الأركان العظمى *the great arcanum* ' الذى يعتقد أنه يكشف عنه هى واقع أنه ظهر دونما عوائق!

ALFRED DONO
Shakespeare, Creator of Freemasonry شكسبير مخترع الماسونية
London: Rider and Co.

نشر كاتب هذا الكتاب منذ عدة سنوات كتابًا عن سوناتات شكسبير بهدف استعادة ترتيبها الأصلى والبرهان على أنها القصائد 'الشخصية' لفرانسيس بيكون *Francis Bacon*، والذى يقول الكاتب إنه ابن الملكة إليزابيث، كما أن لورد سانت ألبان *Lord Saint-Alban* أى بيكون كان أول من أقام محفل الماسونية الحديثة وأول 'أستاذ عظيم' لها، وهذا الكتاب لا يعالج هُويَّة شكبير التى أثارت ولازالت تثير كثيرًا من الجدل، ولكنه يركز على بيان أن شكسبير أيًا كانت هويته قد دفع بمراجع كقيرة إلى الماسونية فى أعماله بخفاء يصل فى بعض الأحيان إلى غموض شفرى، والحق إن ذلك لا يُدهِش الذين لا يقبلون المنظور 'التبسيطى' الذى قامت عليه الماسونية فى بدايات القرن الثامن عشر، لكن حلول الشفرة التى طرحها الكاتب ليست مقنعة وخاصة فى الأحرف الأولى فيما عدا حينما يطرحها فى مجموعات تشكل اختصارات معروفة تفسرها الماسونية على نحو معقول، إلا أن هناك حالات تثير الشك وقد بَطُل استخدام عدد منها، وبقى بعضها بما يبرهن على أن الكاتب كان مصيبًا فى هذا الشطر من كتابه، ولكن الأمر يختلف لسوء الحظ عندما يتزَّيد فى تصديق أنه اكتشف 'مؤسس الماسونية الحديثة'، ولو كان شكسبير أو الشخص المعروف بهذا الاسم ماسونيًا فلابد أنه كان ينتمى إلى الماسونية العاملة *operative Masonry*، ولا يعنى ذلك أنه كان عاملا، فقد كان تأسيس المحفل الأعظم فى انجلترا بلا صفة، ولكنه كان 'تخفيفا' للماسونية التأملية الحديثة *speculative Masonry* لو جاز القول، وحتى نفهم ذلك لابد من تجنب الأفكار المسبقة عن الماسونية العاملة، وأنها كانت على منوال اتحادات العمال فى الزمن الحديث، أو أنها كانت منشغلة 'بمسائل الأجور وساعات العمل' فحسب! ومن الواضح أن الكاتب ليس على دراية كافية بعقلية العصور الوسطى، كما أنه يندفع فى عكس اتجاه الوقائع التاريخية حينما يعلن أن الماسونية العاملة قد كفَّت عن الوجود فى القرن الخامس عشر، ولم يكن لها استمرارية فى الماسونية التأملية حتى لو كانت فرضيته عن الماسونية الحديثة تعود بها إلى نهايات القرن السادس عشر، ولا نرى أن هناك قوانينًا بعينها قد صدرت ضد الماسونية فى انجلترا بأكثر مما كانت عليه فى فرنسا ضد طوائف الحرف، وسواءً أحببنا أم كرهنا فإن المحافل العاملة قد وجدت قبل سنة *1717* وما بعدها، فهذه الطريقة فى النظر إلى الأمور تؤدى إلى استحالات أخرى، وهكذا كان مخطوط *Old Chargesare* القديم أكاذيب ملفقة للأشخاص الذين يُفتَرض أنهم وضعوا الشعائر بحيث تضلل المباحث وتؤدى إلى

الاعتقاد بوجود أخوة لا وجود لها، ولكى يخفوا غرضهم الحقيقى لإحياء الأسرارية القديمة تحت رداء حديث، وقد ذُهِل الكاتب عن أن رأيه لا يعدو إنكارًا للتداول المنتظم للتراث واستبدله بتكوين 'نموذجى'، وهكذا حرم الماسونية من قيمتها التعميدية! ونتجاوز ملحوظة 'العمال الأميين' الذين شكلوا أعضاء الماسونية العاملة القديمة، حيث إنهم 'قبلوا' الأعضاء الذين لم يكونوا عمالًا ولا أميون فى كل من المحافل التى احتوت بالضرورة على كاهن وصاحب مذهب، كما أن واقع عدم القراءة والكتابة حرفيًا ورمزيًا ليس له أهمية من المنظور التعميدى، وربما منع البعض من الكتابة فيما تعلق بالشعائر التى امتنعت على الكتابة بطبيعتها، ولو صدقنا الكاتب فسوف يبدو أن البنائين الانجليز فى العصر الوسيط لم يكن لديهم لغة للتواصل! ولو كان صحيحًا أن المصطلحات والتعابير فى الشعائر فى صورتها الحديثة لازالت تحمل خصائص الحقبة الإليزابيثية فإن ذلك ليس برهانًا على أن النسخة الجديدة كانت صياغة لشعائر قديمة، وبالتالى حفظتها كما كانت سلفا، فاللغة لم تتغير كثيرًا منذ ذلك الزمن، أما ادعاء أن الشعائر لا تعود إلى ما قبل تلك الحقبة فذلك أشبه بمحاولة الدفع بأن الكتاب المقدس يرجع إلى الحقبة ذاتها برواية عبارات من 'النسخة الشرعية' برهانًا على ذلك، والتى أسندت كذلك إلى بيكون الذى كان عليه أن يعيش عمرًا طويلًا ليكتب كل ما أُسنِد إليه، وقد كان الكاتب مصيبًا تمامًا فى قول "إنه لابد من النظر إلى القضايا الماسونية من منظور ماسونى"، ولهذا كان عليه أن يجتنب الأفكار الثابتة مثل 'عظماء الرجال' التى تنتمى جوهريًا إلى الدنيوية، ولو كانت الماسونية منظومة تعميدية حقًا فلا يجوز القول بأنها 'اختُرِعت' فى زمن بعينه وأن شعائرها كانت من أعمال شخص بعينه، وأن ذلك الشخص كان كاتبًا 'عبقريًا' مرموقًا مما لا يغير من الأمر شيئا، أما عن شكسبير فإنه لم يكن ليجرؤ على القول بأى أمر ماسونى مالم يكن معفيًا من التزام السرية، وهذه حجة متهافتة خاصة وأنها تصدق على كثير غير شكسبير من الذين فعلوا الأمر ذاته حتى على منوال أكثر إفصاحا، ومثل على ذلك أن الناى السحرى لموزار أشد وضوحًا من العاصفة لشكسبير، كما أن هناك نقطة أخرى كان الكاتب يعانى فيها من عدة أوهام هى قيمة المعرفة التى احتكم عليها مؤسسوا المحفل الأعظم لانجلترا، ومن الصحيح أن آندرسون *Anderson* قد اهتم بإخفاء كثير من الأمور لا بمبادرة منه بل 'بأوامر' ممن فوقه، كما أخفى غايات ليست تعميدية بحال، ولو كان المحفل الأعظم لانجلترا قد حفظ أسرارًا بعينها عن أصل الماسونية فكيف يتأتى تفسير أن كثيرًا من المؤرخين الذين كانوا من أعضائها البارزين قد أفصحوا عن جهلهم بها؟ كما أن هناك ملحوظتان أو ثلاثة عن تفاصيل ستبين الخطأ الذى لم

ينتبه إليه فى التخيُّل، وذلك فيما تعلق بفقرة كتبها آندرسون تقول "لاحاجة للعجب عن المرتبة التى ينتمى إليها ’أخٌ خبير‘ كما لو كان فى ذلك سرٌ مغلق"، فقد كان تعبير ’الأخٌ الخبير‘ مرادفًا لزميل فى المهنة، فلفظ ’الرفيق*Companion* ‘ فى اللاتينية مرادف للخبير، فى حين أن التلميذ لم يكن كذلك بعد، و"الشاب الموهوب" توماس دى كوينسى *Thomas de Quincey* المُشار إليه ليس شكسبير ولا بيكون بل فالنتاين آندريا حامل رمزًا *A.L.* و *A.D.*, متبوعة بتاريخ مسجل على جوهرة العقد الملكى، والتى لم تكن تعنى ’صبياً *a lad*‘ بل الشاب المذكور، ثم ألا ينتبه من ’تخصص‘ فى ترجمة الحروف الأولى إلى أنها قد تعنى *Anno Lucisand Anno Domini*؟ ويمكننا الإشارة إلى هنَّات أخرى من النوع ذاته، لكننا لا نرى نفعًا من الإسهاب فيها، ولنضف فحسب أن من الصعب معرفة ماذا يقصد الكاتب بمصطلح *Rosicrosse Masons* الذى يتحدث عنها كجمعية أدبية حتى لو كانت سرِّية، وهو ما يبدو بعيدًا عن التعميد، والواقع أن الماسونية ذاتها تبدو له كمنظومة أخلاقية لا تذهب إلى ما وراء ذلك، فهل يمكن النظر بجدية إلى منظومة لا يعدو أكبر أسرارها اسم مؤسسها؟ والمؤكد أنها لا تنتمى إلى شخص بعينه أيًا كان، حتى لو كان ’رجلًا عظيماً‘، وليس هناك إجابة مشروعة عن مسألة ’الكلمة‘ التى جرى عليها كثير من التشويه والتحريف بطرق شتى، وهى مسألة تبدو أكثر وضوحًا فى العربية من العبرية، أى "مع البناء".

كشاف الأعلام والمصطلحات